أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي وكتابه التوهم

د. عبد الكريم اليافي

ولد نحو عام ١٦٥ هـ / ٧٨١ م بالبصرة • اسم أبيه أسد وكنية الأسد أبو الحارث • فربما سمى ابنه الحارث توكيداً لهذه الكنية • ولقد جاء الفتى باكراً الى بغداد حيث توفي بعد حياة حافلة بالعلم والتقوى عام ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م • وهو من كبار الصوفية وأوائل علماء الكلام وأعلام الوعاظ البلغاء •

وأبرز ما في سيرة حياته وعظه وتعليمه وكتبه الكثيرة التي تزيد على المئة والتي يتجلى فيها احترامه العميق للسنة ، وتشدده الخلقي ، وبيانه الذي يعتمد على الترغيب والترهيب وعلى التنديد بنوازع الهوى ونزوات النفس ، ودقته في التحليلات النفسية والتعريفات الفلسفية •

عقد له الحافظ أبو نُعَيْم أحمد بن عبدا لله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٩ م في كتابه « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » ترجمة ذكر فيها أحاديث رواها وأقوالاً له ومواعظ مؤثرة واستهلّها بهذه الفقرات :

« كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً ولآثار الرسول عليه السلام مساعداً ومصاحباً • تصانيفه مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة • كان في علم الأصول راسخاً ، وراجحاً ، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً ، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين والمنيبين قابلاً وناصحاً » (١) •

وترجم له الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ ١٠٧١ م في كتابه « تاريخ بغداد » ، فعده « أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن »(٢) .

ويورد الامام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى عام ٤٦٥ هـ ١٠٧٣ م في « الرسالة » عند ترجمته المحاسبي قول أبي عبدالله بن خفيف للمتصوفة: « اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم: الحارث بن أسد المحاسبي والجنيد بن محمد وأبو محمد رويم وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكي لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق »(٣) .

ومن الذين ترجموا له تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي ١٣٢٧/٧٢٧ ــ ١٣٦٩/٧٧١ في كتابه طبقات الشافعية . ونحن نورد شيئاً من ترجمته له بياناً لأسلوب من التدقيق كان الأعلام القدماء يتبعونه : « يقال انما سُمِّي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه . قال ابن الصلاح ذكره الأستاذ أبو منصور في الطبقة الأولى فيمن صحب الشافعي . وقال كان امام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام . وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها . واليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية . ثم قال لو لم يكن في أصحاب الشافعي في الفقه والكلام والأصول والقياس والزهد والورع والمعرفة الا الحارث المحاسبي لكان مُغَبِّراً في وجوه مخالفيه والحمد لله على ذلك . قال ابن الصلاح : صحبته للشافعي لم أر أحداً ذكرها سواه ، وليس أبو منصور من أهل هذا الفن فيعتمد فيما تفرد به ، والقرائن شاهدة بانتفائها . قلت ان كان أبو منصور صرح بأنه صحب الشافعي فالاعتراض عليه لائح ، والا فقد يكون أراد بالطبقة الأولى من عاصر الشافعي وكان في طبقة الآخذين عنه . وقد ذكره في الطبقة الأولى أيضاً أبو عاصم العبادي وقال كان ممن عاصر الشافعي واختار مذهبه ، ولم يقل كان ممن صحبه . فلعل هذا القدر مراد أبي منصور »(٤) .

أشرنا آنفاً الى تعريفاته الفلسفية وتحليلاته النفسية . وقد أورد السبكي فيما أورده قوله : « حسن الخلق احتمال الأذى ، وقلة الغضب ، وبسط الرحمة وطيب الكلام . ولكل شيء جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر . والعمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح »(٥) .

ويعرض صاحب طبقات الشافعية بعض تعليقات القدماء على تعريف المحاسبي للعقل ·

«قال امام الحرمين في «البرهان» عند الكلام في تعريف العقل : « وما حوّم عليه أحد من علمائنا غير الحارث المحاسبي فانه قال : العقل غريزة يُتأتى بها درك العلوم وليست منها · وقد ارتضى الامام كلام الحارث هذا كما ترى وقال عقيبه : انه صفة اذا ثبتت يُتأتى بها التوصل الى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي من مستند النظريات · وهو منه (أي من امام الحرمين) بناءً على أن العقل ليس بعلم والمعزو الى الشيخ أبي الحسن الأشعري انه العلم · وقال القاضي أبو بكر (الباقلاني) : إنه بعض العلوم الضرورية · والامام حكى في « الشامل » مقالة الحارث هذه التي استحسنها وقال: انا لا نرضاها ونتهم فيها النقلة عنه · ثم قال: ولو صح النقل عنه فمعناه أن العقل ليس بمعرفة الله تعالى وهو إذا أطلق المعرفة أراد بها معرفة الله · فكأنه قال : ليس العقل بنفسه بمعرفة الله تعالى ولكنه غريزة · وعنى بالغريزة أنه عالم لأمر جبل الله عليه العاقل ويتوصل به الى معرفة الله · انتهى كلامه في «الشامل» · والمنقول عن الحارث ثابت عنه · وقد نص عليه في كتاب « الرعاية » · وكان امام الحرمين نظر كلام الحارث بعد ذلك · ثم لاحت له صحته بعد ما كان لا يرضاه · واعلم أنه ليس في ارتضاء مذهب الحارث واعتقاده ما ينتقد ، ولا يلزمه قول بالطبائع ولا شيء من مقالات الفلاسفة كما ظنه بعض شراح كتاب « البرهان » · وقد قررنا هذا في غير هذا الموضع · وقول امام الحرمين إنه أراد معرفة الله ممنوع فقد قدمنا عن الحارث بالاسناد قوله إنه نور الغريزة يقوى ويزيد بالتقوى · نعم الحارث لا يريد بكونه نوراً ما تدعيه الفلاسفة »[٦] · وتظهر هذه المناقشة حرص علماء المسلمين على صفاء العقيدة ·

كان السلف ــ رضوان الله عليهم ــ حين يكتبون يزنون الكلمات في ميزان الدلالة بدقة ويمحصونها تمحيصاً · وردفي مستهل بحثنا قول أبي نعيم في المحاسبي: « كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً وللمخالفين الزائغين قامعاً » · والحق أن الحارث كان رائداً في علم الأصول الذي يراد به هنا علم التوحيد أو علم الكلام · ولا بد في بيان ريادته هذه أن نعتمد على مؤلف مشهور في تأريخ النحل وهو الامام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ١١٥٣/٥٤٨) · فقد عقد في

كتابه « الملل والنحل » فقرة ضافية وذات دلالة عن نشوء « الصفاتية » نورد نصها فيما يأتي لأهميتها في هذا المضمار ·

« اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزة والعظمة ولا يفرقون بين صفات لذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات جبرية مثل اليدين والرجلين والوجه ولا يؤولون ذلك الا أنهم يقولون بتسميتها صفات جبرية · ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة · فبلغ بعض السلف في إثبات الصفات الى حد التشبيه بالمحدثات ، واقتصر بعضهم على صفات دلت الأفعال عليها وما ورد به الخبر · فافترقوا فرقتين ، منهم من أوّلها على وجه يحتمل اللفظ ذلك ، ومنهم من توقف في التأويل وقال : عرفنا بمقتضى العقل أن الله ليس كمثله شيء ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها ، وقطعنا بذلك الا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »[٧] ، ومثل قوله : « خلقتُ بيديَّ »[٨] ، ومثل قوله : « وجاء ربك »[٩] الى غير ذلك · ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها · بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له وليس كمثله شيء ، وذلك قد أثبتناه يقيناً · ثم ان جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف فقالوا : لا بد من اجرائها على ظاهرها والقول بتفسيرها كما وردت من غير تعرض للتأويل ولا توقف في الظاهر ، فوقعوا في التشبيه الصرف ، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف ·

··· أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا استهدفوا للتشبيه فمنهم مالك ابن أنس[١٠] رضي الله عنه اذ قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، ومثل أحمد بن حنبل[١١] وسفيان[١٢] وداود الاصفهاني[١٣] ومن تابعهم حتى انتهى الزمان الى عبد الله بن سعيد الكلابي[١٤] وأبي العباس القلانسي[١٥] والحارث بن أسد المحاسبي · وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية · وصنف بعضهم ودرّس بعض حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري[١٦]

وبين أستاذه (أبي علي الجبائي) [١٧] مناظرة في مسألة الصلاح والأصلح فتخاصما وانحاز الأشعري الى هذه الطائفة ، فأيد مقالتهم بحجج كلامية ، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتية الى الأشعرية • ولما كانت المشبّهة[١٨] والكرامية[١٩] من مثبتي الصفات عددناهم فرقتين من جملة الصفاتية »[٢٠] •

أما قمعه للمخالفين الزائغين في كلام أبي نعيم فانما يراد به رده على المعتزلة حين عطلوا الصفات واتفقوا على نفي رؤية الله بالأبصار في دار القرار • ومن الضروري أن نوضح معنى تعطيل الصفات ، وقضية الرؤية •

ذلك أن علماء الكلام من الأشاعرة ذهبوا الى أن صفات الله تعالى على أربعة أنواع : الأول صفة نفسية وهي الوجود • والثاني صفات سلبية وهي خمس : القدم ، والبقاء ، ومخالفته تعالى للحوادث ، وقيامه تعالى بنفسه ، والوحدانية • والثالث صفات معان وهي القدرة، والارادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع، والبصر ، والكلام • والرابع صفات معنوية وهي سبع كونه قادراً ، ومريداً ، وعالماً ، وحياً، وسميعاً ، وبصيراً ، ومتكلماً •

أما الصفة النفسية فهي عند الأشعري عين الموصوف • فالوجود عين الموجود عنده • وهي عند غيره غير الذات • فالوجود عندهم غير الموجود • وأما الصفات السلبية الخمس فهي غير الذات بمعنى أنها غير قائمة بالذات • فالقدم مثلاً يسلب عنه الحدوث وهكذا بقية هذه الصفات • أي أنها أمور عدمية • وأما صفات الأفعال مثل الاحياء والاماتة والرزق والعون وأشباهها فهي غير الذات أيضاً بمعنى أنها منفكة عنها من قِبَل أنها عند التحقيق تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة • وأما الصفات المعنوية فلا خلاف فيها ويثبتها المعتزلة وهي أنه قادر بذاته ومريد بذاته وعالم بذاته وهكذا ولكنهم نفوا عنه صفات المعاني أي الصفات التي هي معان أي ليست هناك صفة تسمى العلم ولا صفة تسمى الارادة ولا صفة تسمى القدرة ••• وذلك لأن الصفة غير الموصوف ولو أثبتنا له سبحانه وتعالى صفات غير ذاته لم يكن بد من أمرين فاما أن تكون هذه الصفات حادثة واما أن تكون قديمة • فان كانت حادثة لزم قيام الحادث بالقديم وهو محال • وان كانت قديمة لزم أن يكون هنالك قدماء متعددة بتعدد الصفات زيادة على الذات وهذا هو الشرك •

ولكن الأشاعرة يرون أنه لا يلزم من ذلك تعدد القدماء كما زعم المعتزلة ، لأن كل صفة من صفات المعاني وان كانت غير سائر الصفات الا أنها لازمة للذات ولا تنفك عنها · فهي دائمة الوجود، مستحيلة العدم · فهو حي بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، وهكذا · والمحظور هو تعدد القدماء المتغايرة ، ولا تغاير هنا بين الذات والصفات ولا بين الصفات بعضها مع بعض فينتفي التعدد · فتلك الصفات زائدة على الذات قائمة بها لازمة لها لزوماً لا يقبل الانفكاك ·

هذا وربما كان الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة لفظياً لأن القول بأنها ليست بغير الذات محمول على الغير الذي ينفك عن الذات وان كانت غيراً في المفهوم والتصور ·

ومما حصل فيه النزاع أيضاً رؤية العباد ربهم · فذهب المعتزلة الى أن العقل يحكم بامتناعها لأن الرؤية لا تتحقق الا متى كان المرئي في الجهة المقابلة لنظر الرائي وهو سبحانه ليس جسماً ولا في جهة من الجهات · وذهب أهل السنة الى أنه تعالى يجوز أن يرى والمؤمنون في الجنة يرونه منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان ، اذ هذه الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه لا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك · وقد أوّل المعتزلة ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من اشارة الى ذلك · وعمد المحاسبي رداً على المعتزلة في نهاية كتابه « التوهم » الذي هو شطر مهم في بحثنا الى تصور تلك الرؤية على أنها غبطة يفوز بها أهل النعيم في الجنة كما سنرى ·

كان الحارث واعظاً بليغ الكلام يأخذ وعظه بمجامع القلوب ويخلب الأسماع ويسترق الأفهام ويستدر المدامع حتى تغرورق بها العيون · نقل صاحب تاريخ بغداد في ترجمته للمحاسبي ما حدث به اسماعيل بن اسحاق السراج : « قال لي أحمد بن حنبل يوماً : يبلغني أن الحارث هذا — يعني المحاسبي — يكثر الكون عندك · فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فاسمع كلامه ! فقلت : السمع والطاعة يا أبا عبدالله · وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله · فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة · فقلت: وتسأل أصحابك أن يحضروا معك. فقال : يا اسماعيل فيهم كثرة فلا تزدهم على الكُسْب(*) والتمر ، وأكثر منهما

★ هو ثفل الدهن اشارة الى التقلل ·

ما استطعت • ففعلت ما أمرني بـه ، وانصرفت الى أبي عبد الله فأخبرته • فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار ، فاجتهد في ورده حتى فـرغ • وحضـر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدهـا ، وقعـدوا بين يدي الحارث ، وهم سكوت لا ينطق واحد منهم الى قريب من نصف الليل • فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة • فأخذ في الكـلام وأصحابه يستمعون ، وكأن على رؤسهم الطير • فمنهم من يبكي ، ومنهم من يزعق، وهو في كلامه • فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله ، فوجدته قـد بكى حتى غُشِيَ عليه ، فانصرفت اليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقامـوا وتفرقوا • فصعدت الى أبي عبـد الله ، وهو متغير الحال • فقلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقـال : ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القـوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل • وعلى ما وصفت من أحوالهم فاني لا أرى لـك صحبتهم • ثم قام وخرج »(٢١) •

ويعلق الامام ابن السبكي في كتابه « طبقات الشافيـة » بعـد أن يورد هذه الرواية فيخاطب القارىء :

« تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة • واعلم أن أحمد بن حنبل انما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم • فانهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد فيخاف على سالكه والا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر ولكل رأي واجتهاد »(٢٢) •

ولكن الخلاف بين أحمـد والحارث مشهور • فقد « كان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام وتصانيفه الكتب فيه »(٢٣) • بل كان الامام « شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام خوفاً أن يجر ذلك الى ما لا ينبغي • ولا شك أن السكوت عنه ما لم تدع الحاجة أولى • والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة • وكان الحارث قد تكلم في شيء من مسائل الكلام • قال أبو القاسم النصراباذي : بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب • قلت : والظن بالحارث أنه انما تكلم حين دعت الحاجة • ولكل مقصد »(٢٤) •

والذي نراه أن إنكار صاحب «المسند» وأمثاله من أهل الحديث على المحاسبي وأمثاله من الوعاظ والصوفية يرجع قسم كبـير منه الى اعتماد هؤلاء في مواعظهم وأفكارهم على الأحاديث الضعيفـة الأسانيد • ذلك أن أهل الحديث يحرصون كل

الحرص على صحة الرواية وأهل المواعظ قد يلجؤون الى أحاديث مستجرحة للترغيب والترهيب ولكنها بالغة التأثير يقبلها العامة لأنها أقرب الى التمثيل بالأشياء المحسوسة ٠

وعندنا أن مثل الأئمة المسلمين في مذاهبهم مثل أصحاب هندسات أقليدس وريمن ولوبتشفسكي في علومهم الرياضية ٠ فكما أن هؤلاء بنوا هندساتهم على مصادرات واستنبطوا منها تصوراتهم كذلك كان أولئك الأئمة يعتمدون ما يمكن أن ندعوه مصادرات أو أصولاً للبحث وهذه هنا ذات مراتب وأكثر عدداً وأشد اشتباكاً ٠ ومن الواضح أنه بعد الأصول المعتمدة الأربعة وهي القرآن والسنة والقياس والاجماع يأتي مدى الاعتماد على أحاديث الآحاد ومبدأ الاجتهاد ومبدأ المصالح المرسلة وهي الأوصاف التي تعرف علّيتها ولم يشهد لها الشرع بالاعتبار ولا بالابطال ، ولا سيما اذا كانت المصلحة ضرورية قطعية كلية ٠ وهذه أمور داخلة في مباحث أصول الدين الواسعة ٠ وكان الأئمة القدماء يحترم بعضهم بعضاً ويقدر بعضهم جهود بعض وبحوثه وتقواه ووجهات نظره ٠ ثم جاء المتأخرون ففلا بعضهم في تجريح الآخرين أو التشنيع عليهم وهذا ليس من عادة الأبرار ولا من شأن المفكرين الأحرار ٠ واذا كان الامام السبكي قد قال في تعليقه : « ولكل مقصد » فنحن نقول : «ولكل مبادئه التي يبني عليها اعتباراته» وهكذا لا نستغرب قول أبي زرعة تلميذ ابن حنبل حين سئل عن المحاسبي وكتبه فأجاب السائل: «إياك وهذه الكتب ٠ هذه كتب بدع وضلالات ٠ عليك بالأثر فانك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب ٠ قيل له : في هذه الكتب عبرة ٠ قال : من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة ٠ بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم ، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق ٠ ثم قال : ما أسرع الناس الى البدع »(٢٥) ٠

ولد الحارث في زمن الخليفة الهادي ولما تولى هارون الرشيد الخلافة (سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م) كان يناهز الخامسة ٠ وقد عاصر خلافة الأمين (١٩٣/٨٠٩ م) والمأمون (١٩٨/٨١٣ م) والمعتصم (٢١٨/٨٣٣م) والواثق (٢٢٧/٨٤٢ م) والمتوكل (٢٣٢/٨٤٧ م) اذ توفي في عهده ٠

وهكذا كان عصر الحارث من أبهى عصور الخلافة العباسية وأكثرها غنى ووفرة وازدهاراً . كانت العلوم بأنواعهامزدهرة وكانت الزراعة والتجارة رائجين أي رواج ،وكانت القوافل تجوب الطرق البرية محملة بأصناف السلع بين قطر وآخر وكانت البواخر تصل بين أقطار المعمورة مشحونة بأصناف الخيرات من لباس وطعام وتوابل وغيرها . وكانت البصرة من المرافىء المزدهرة اذ ذاك وكان الملاحون الى جانب حمولات مراكبهم يروون للناس ما شاهدوه في الأقطار النائية كالهند والصين والجزر المنتشرة في خطوط ملاحتهم . وطفق الناس يميلون الى استماع هذه الأخبار دقيقة أو مبالغاً فيها والى قراءة ما يدوّن منها وكذلك ما يترجم من لغات الأقوام الأخرى ولا سيما ما نقل عن الفرس والهند مما يمثل آداب تَيْنك الأمتين ويصف حكمة حكمائهما وأحوال رعاياهما . وشرعت تتكون طائفة من تلك الأخبار المروية والمتناقلة متعددة المصادر ومتفاوتة المقاصد بعضها للتسلية ولترويح النفس وبعضها للموعظة والاعتبار وبعضها للتبصرة والافادة ، وسوف ينضم بعضها الى بعض في غمار السنين لتؤلف السير الشعبية المشهورة التي تأتي في طليعتها قصة « ألف ليلة وليلة » إذ كانت نواتها التي تجمعت حولها تلك القصص والأخبار رواية «هزار أفسانه» التي نقلت عن الفارسية . ولا شك أن بعض تلك القصص من أصل بغدادي تصور جوانب الترف التي كانت تتألق في قصور الخلفاء والأمراء والتجار ورجال الجيش وكتاب الدواوين ، ومن المعلوم أن الغنى الفاحش لا يأتي بالطرق المشروعة وأن الترف لا يرضى عنه أهل الورع والتقوى ، كذلك هو موضع نقمة على لسان الشعراء الحساسين المحرومين مثل ابن الرومي (٢٢١/٨٣٦ ـ ٢٨٣/٨٩٦) . ولئن بدا هذا الشاعر في بعض الأحيان راضياً عن الحياة الطبيعية المعطاء والدولة الزهراء في قصيدته التي مطلعها

ضحك الربيع الى بكا الديم فغدا يسوّي النبت بالقمم

اذ يقول :

والدولة الزهراء والزمن المز هار حسبك شافيي قرم

لنجدنه في قصائد أخرى يندب حظه ويرثي لحاله ويحسد غيره من المحظوظين في الدنيا :

أتراني دون الأولى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتّاب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس والأحباب

ثم يتفنن في وصف النعيم والملذات والمجالس والحياة اللاهية التي كان يشاهدها أو يسمع أخبارها :

درٌ صهباء قد حكى درّ بيضا ء عروب كدمية المحراب
تحمل الكأس والحليُّ فتبدو فتنة الناظرين والشرّاب
يا لها ساقيا تديره يداه مستطابا ينال من مستطاب
لذة الطعم في يدي لذّة المد ثم تدعو الهوى دعاء مجاب
حولها من نجارها عينٌ رمْلٍ ليس ينفك صيدها أُسْد غاب
يونقُ العينَ حسن ما في أكف ثمّ تسقي وحسن ما في رقاب
ففمٌ شارب رحيقا وطَرفٌ شارب ماء لبّةٍ وسخاب
ومزاج الشراب ان حاولوا المز ج رضاب يا طيبَ ذاك الرضاب
من جوارٍ كأنهن جوارٍ يتسلسلن من مياه عذاب(٢٦)
لابسات من الشفوف لبوسا كالهواء الرقراق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهبن أي التهاب
فترى الماء ثمّ والنار والآ ل بتلك الأبشار والاسلاب

ويمضي الشاعر في وصف تلك المجالس المترعة بالجمال والترف واللهو والاغراء لينتقل الى التنديد بأربابهاالذين يجلسونها والذين طاش توزيع الثروة فأصابهم منها النصيب الوفير :

فتخايلن باهتزاز غصون ناعمات وبارتجاج روابي
ناهدات مطرّفات يما نع نك رمانهن بالعنّاب
لو ترى القوم بينهن لأجبر ت صراحا ولم تقل باكتساب

يريد أن يقول : إن المرء لدى رؤيته ذلك يفضي الى الجبر لا الى الكسب والاختيار حين لا تنظم الأمور الاقتصادية تنظيماً عادلاً يمنع الاستغلال والتفاوت الكبير بين حظوظ الناس :

من أناس لا يرتضَون عبيدا وهُمُ في مراتب الأرباب

ولا عجب أن يحفز على الثورة الدموية وهو الشاعر الرقيق :

لهف نفسي على مناكير للنكـ ـر غضاب ذوي سيوف غضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحي ذات طهر ترابها كالملاب
مِنْ كلاب نأى بها كلُّ نأي عن وفاء الكلاب غدرُ الذئاب
واثبات على الظباء ضعاف عن وثاب الأسود يوم الوثاب ...

يبدو من خلال هذه الأبيات المندّدة الثائرة التهجم اللاذع على الموسرين المتمولين كما نستشف اشارة الى قضايا الجبر والكسب والاختيار مما كان موضوع جدال بين المذاهب الفلسفية الكلامية اذ ذاك . في هذا الجو الموّار كالبحر ذي الأمواج المتلاطمة بمختلف النزعات والآراء نشأ الحارث في مجالس العلم الديني وحلقات الورع وندوات التقوى فنهض يدافع عن سلامة المجتمع ازاء الترف واللهو ويناضل الاتجاهات التي رآها منحرفة عن مصالح الشعب والرعايا وذلك بالوعظ وهو التبليغ المدقق في نزوات النفوس وفي ميول الطباع ثم بالتأليف المنافح عن صحة العقيدة كما يراها وزيادة على ذلك كله بالمثل الخلقي المتحرج العنيف الذي ضربه في سلوكه وسعيه وتزهده وتصوفه الجانح نحو التقشف الشديد كأن هذا التقشف تعديل يقابل ذلك اللهو والترف ويناقضهما .

ذكر أبو نعيم الاصبهاني قول الجنيد : « كان الحارث كثير الضر فاجتاز بي يوماً وأنا جالس على بابنا ، فرأيت في وجهه زيادة الضر من الجوع فقلت له : يا عم لو دخلت الينا نلت من شيء عندنا ! فقال : أو تفعل ؟ قلت : نعم وتسرني بذلك وتبرّني . فدخلت بين يديه ودخل معي وعمدت الى بيت عمي ــ وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا ــ سريعاً فجئت بأنواع كثيرة من الطعام فوضعته بين يديه . فمد يده وأخذ لقمة فرفعها الى فيه فرأيته يلوكها ولا يزدردها فخرج وما كلمني . فلما كان الغد لقيته فقلت : يا عم ! سررتني ثم نغّصت عليّ . فقال : يا بني ! أما الفاقة فكانت شديدة . وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته اليّ . ولكن بيني وبين الله علامة اذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً ارتفع الى أنفي منه فورة فلم تقبله نفسي ، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت »(٢٧) .

وعندنا أن الحارث حاكت في نفسه شبهة في هذا الطعام المجلوب من عند غني واسع الحال فلم يستطع أن يستسيغه على جوعه وسغبه • ومن المعروف علاقة جهاز الهضم بالأمور النفسية في الطب الجسدي النفساني •

جاء في كتاب « حلية الأولياء » أن الجنيد وهو تلميذ المحاسبي كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القال والقيل ،لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله ، وأصله العزوف عن الدنيا ، كما قال حارثة : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري »[٢٨] •

بل كان المحاسبي يؤثر الخصاصة والفقر على الغنى ولو أمكن الغنى وتيسر• قال الجنيد أيضاً « مات أبو الحارث المحاسبي وان الحارث لمحتاج الى دانق فضة ، وخلَّف أبوه مالاً كثيراً وما أخذ منه حبة واحدة ، وقال : أهل ملَّتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفياً »[٢٩] • وفي رواية القشيري « لأن أباه كان يقول بالقدر »[٣٠] أي كان معتزلياً والواقفية نحلة من المعتزلة •• وموقف الحارث هذا من قبيل الورع والتحرج والتقشف فان اختلاف المذهب في نطاق الاسلام لا يحول دون الميراث • كذلك كان المحاسبي يرى فقر الفقراء أفضل من غنى الأغنياء ولو صرف هؤلاء أموالهم في سبل مشروعة خوفاً من شغل البال والاهتمام بها والانصراف عن جوهر العبادة ، أي كان يرى أن الفقير الصابر خير من الغني الشاكر •

ولكن أئمة آخرين من الحنابلة وأهل الحديث والفقه لا يرضون عن الغلوّ في التقشف • ولكل من هؤلاء الاعلام مبادئه ومقاصده كما ذكرنا آنفاً • عقد أبو الفرج بن الجوزي فصلاً في كتابه « تلبيس ابليس » جاء في الباب التاسع منه قوله : « لا يلتفت الى قول الحارث المحاسبي وأبي طالب المكي فيما ذكرا من تقليل المطعم ومجاهدة النفس بترك مباحاتها فان اتباع الشارع وصحابته أولى • وكان ابن عقيل يقول : ما أعجب أموركم في التدين ، إما أهواء متبعة ، أو رهبانية مبتدعة ، بين تجرير أذيال المرح في الصبا واللعب وبين إهمال الحقوق واطراح العيال واللحوق بزوايا المساجد • فهلا عبدوا على عقل وشرع »[٣١] •

ويناقش ابن الجوزي مسألة الخروج عن الأموال والتجرد عنها ورأي المحاسبي في أن ذلك أفضل من جمع المال الحلال ورأيه في أن الصحابي الجليل عبد الرحمن

ابن عوف مع فضله يوقف في عرصة القيامة بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف فيمنع من السعي الى الجنة مع فقراء المهاجرين فهو يحبو في آثارهم حبوا ، لأن ادخار المال وجمعه خوفاً من الفقر في رأي الحارث من سوء الظن بالله وقلة اليقين بضمانه وكفى بذلك إثماً ٠٠٠ وقد جاراه أبو حامد الغزالي في ذلك وقواه ٠٠ فينتهي أبو الفرج الى أن « هذا كله بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال »[٣٢] ثم يشرع فيوضح شرف المال الحلال وحسن النظر في طرق صرفه في اعفاف النفس والعائلة والادخار لحوادث الزمان وقصد التوسعة على الاخوان واغناء الفقراء وفعل المصالح فجمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات ٠

يقول أبو عبد الرحمن السلمي في المحاسبي: «هو أستاذ أكثر البغداديين»[٣٣]. من أساتذته في الرواية يزيد بن هارون ، وطبقته ٠ والرواية ركن من أركان الحضارة العربية الاسلامية ٠

وممن روى عنه أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الصوفي وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي والشيخ الامام الجنيد واسماعيل بن اسحاق السراج والقاضي أبو علي الحسين بن خيران وأحمد بن القاسم بن نصر وأحمد بن عبد الله بن ميمون وغيرهم ٠ ولقد كان أثر المحاسبي في الامام أبي حامد الغزالي كبيراً ولا سيما في كتابه « احياء علوم الدين» فهو يذكر كتب المحاسبي ويورد جملاً وعبارات من كلامه ٠

أما كتبه المطبوعة فهي :

١ ــ بدء من أناب الى الله :

نشره المستشرق الألماني هلموت ريتر بمناسبة مؤتمر المستشرقين التاسع عشر الذي عقد في رومة (٢٣ ــ ٢٩ ايلول ١٩٣٥) ٠

٢ ــ الرعاية لحقوق الله عز وجل :

نشرته المستشرقة الانكليزية مرغرت سميث ٠ Margaret Smith

E. J. W. Gibb memorial, New series XV. 1940.

٣ ـ كتـاب التوهـم :

عني بنشره المستشرق الانكليزي الدكتور ا.ج. آربري ـ القاهرة ـ مطبعـة. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ وقدم له أحمد أمـين .

٤ ـ رسالة المسترشدين :

حققها وأخرج أحاديثها وعلق عليهاعبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الاسلامية حلب ـ الفرافرة ١٣٨٤/١٩٦٤

٥ ـ الوصايا والنصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية :

نشره عبد القادر أحمد عطا القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٤ .

٦ ـ العقـل وفهم القـرآن :

قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي دار الكندي ودار الفكر ـ الطبعـة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ .

٧ ـ المسائل في أعمال القلوب والجوارح والعقـل :

نشره عبد القادر أحمد عطا القاهرة ١٩٦٩ .

ومن كتبه المشهـورة

٨ ـ الدمـاء :

يرى فيه أن الدماء التي أريقت بين الصحابة لا تمس وحدة العقيدة . جاء في كتاب تاريخ بغداد « وذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء فقال : على هذا الكتاب عوّل أصحابنا في أمر الدماء بين الصحابة » .

٩ ـ رسالة المكاسب والورع والشبهـات .
١٠ـ رسـالـة العظمـة .
١١ـ المسائـل في الزهـد .
١٢ـ كتاب التفكر والاعتبار .
١٣ـ رسـالـة المراقبـة .
١٤ـ فصل في المحبة ـ ذكره أبو نعيم في الحلية .
١٥ـ القصد والرجوع الى الله .

ومن تناول الحارث بن أسد المحاسبي بالبحث والدراسة المستشرقة مرغريت سميث في كتابها :

An Early Mystic of Bagdad, a study of the life and teaching of Harith B. Asad al-Muhäsibï, Ad 781 - Ad 857.
London - Sheldon Press, 1935.

والشيخ عبد الحليم محمود في كتابه :

Al Mohasibi un mystique musulman religieux et moraliste, Geuthner, Paris, 1940.

وهو رسالة نال بها شهادة الدكتوراه.

والمستشرق الألماني ي. فان إس J. Van Ess في كتابه :

Die Gedankenwelt des Harit al Muhasibï anhánd von übersetzungen aus seinen Schriftenn dargestellt und erläutert, 1961 - Bonn.

وفي هذا الكتاب عرض واسع لمؤلفات الحارث .

كيف كان الحارث يؤلف كتبه

يروي أبو نعيم في الحلية أن أبا القاسم الجنيد بن محمد قال « كان الحارث المحاسبي يجيىء الى منزلنا فيقول : اخرج معي نُصْحِر فأقول له : تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي الى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول : اخرج معي ولا خوف عليك . فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه . فاذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي : سلني ، فأقول له : ما عندي سؤال أسألك . فيقول لي : سلني عما يقع في نفسك . فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها ، فيجيبني عليها للوقت ثم يمضي الى منزله فيعملها كتباً »(٣٤) .

ونفهم من هذا الخبر قوة شخصية المحاسبي . فقد كانت تهيمن على مريده الجنيد وهو ما هو ذكاءً وفضلاً وعلماً حتى كانت شوارع بغداد عاصمة الدنيا اذ ذاك تبدو فارغة من المفاتن وتلك « الشهوات والآفات »، ثم إن التنزه والجلوس في خارج المدينة كانا يسبلان الهدوء والارتياح والطمأنينة عليهما ، ثم إن السؤال والجواب كانا وسيلتين للمحاورة واقتداح الفكر ووضوح التصورات وتداعي الخواطر وارتسام بعض الكلمات وتبلّر الجمل حتى اذا آب الأستاذ الى منزله حرص على تقييدها .

ويروي صاحب الحلية أن الحارث كان يقول في احدى مواعظه : « افهم ما أقول لك ، وفرغ للفكرة فيه عقلك ، وأدم له توهمك ، وتوهمه بذهنك ، وأحضر لبك واشتغل بذكره وبقطع كل مذكور سواه ، ومتوهم غيره • فانا خُلِقنا للبلوى والاختبار ، وأُعد لنا الجنة أو النار ،فعظم ذلك الخطر ، وطال به الحزن لمن عقل وادكر حتى يعلم أين يكون المصيروالمستقر ، ذلك بأنه عصى الرب ، وخالف المولى ، وأصبح بين الغضب والرضا ،لا يدري أيهما قد حل به ووقع ، فعظم لذلك غمّه ، واشتد به كربه ، وطال لهحزنه ، حتى يعلم كيف عند الله حاله • فاليه فارغب في التوفيق، واياه فسل العفوعن الذنوب ، واستعن بالله في كل الأمور • فالعجب كيف تقر عينك أو يزول الوجلعن قلبك ، وقد عصيت ربك ، والموت نازل بك لا محالة بكربه وغصصه ونزعهوسكراته • فكأنه قد نزل بك وشيكاً فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقومنها الا الى الحشر الى ربك ، فتوهم ذلك بقلب فارغ وهمة هائجة من قلبك بالرحمة لبدنك الضعيف ، وارجع عما يكره مولاك وترضى عسى أن يرضى عنكوأعتبْه واستقله عثراتك وابك من خشيته عسى أنيرحم عبراتك • فان الخطب عظيم ، والموت منك قريب ، ومولاك مطلع على سرك وعلانيتك، واحذر نظره اليك بالمقت والغضبوأنت لاتشعر فأجِلّ مقامه ولا تستخف بنظره ، ولا تتهاون باطلاعه،واحذره ، ولا تتعرض لمقته • فانه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لك بعذابه »(٣٥) •

واذا طالعنا كتاب « التوهم » وجدنا هذه الجمل تكاد تكون هي نفسها في مستهله • أي إن هذا الكتاب أصله موعظة مؤثرة عمد قائلها بعد إلقائها الى توسعتها واستكمالها على شكل كتاب وجعل لفظ التوهم المتكرر فيها عنواناً له• وهو يطلب الى السامعثم بعده الى القارىء أن يتوهمحال الموت وما بعدها من نشور وحساب وجحيم أو نعيم كما يفصل المؤلف ذلك فيكتابه تفصيلا بديعاً ورائعاً أقرب ما يكون الى الترغيب والترهيب والعمل علىاصلاح النفسوتحسين السلوك والمعاملة. ولا شك أن أمثال هذه المواعظ كانت تلقى بلغة سهلة وبيان واضح وقوة جازمة وحازمة ومؤثرة ولا سيما اذا كان الالقاءفي حشد جماهيري كما يحدث ذلك في المساجد ، لأن التجمع والاحتشاد أقوىعلى العدوى النفسية وأسهلللتلقين وأفعل في تطهير النفوس وتصفية الضمائر ، وكذلك إذا كان الواعظ أهلاً للوعظ ومتميزاً بالأمانة ورفعة المكانة ومحط الأنظار في التقشف والزهد والتقوى والعبادة •

اهتم بمخطوطة « التوهم » المستشرق الانكليزي أرثر اربري الذي درّس في كلية الآداب بالجامعة المصرية سابقاً ونشره لأول مرة في القاهرة عام ١٩٣٧ ويقع في ٦٣ صفحة معمقدمة موجزة قدمها لهالباحث المشهور أحمد أمين صدّيق المستشرق.

وقد أعاد طبعه ونقله الى الفرنسية مع مقدمة وحواش وتعليقات مفيدة المستشرق أندري رومان André Roman في كتابه:

Une Vision Humaine des Fins Dernières, Le Kitāb al-Tawahhum d'al Muhāsibī, Librairie C. Klincksieck Paris 7e - 1978.

ويبدولنا أنه اعتمد النص الذي أخرجه أربري لأن في الطبعتين بعض الأخطاء اللغوية أنفسها ففي الصفحة الثانية من نسخة أربري والفقرة الثامنة من نسخة رومان :

فذلّت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت. والصواب لماعانيت ذلك.

وفي الصفحة العاشرة في النسخة الأولى والفقرة الرابعة والثلاثين في النسخة الثانية فلم يحاسّ (؟) من الخلائق أحداً.

والصواب فلم يحاش بالشين أي لم يستثن.

وفي الصفحة الثلاثين من النسخة الأولى فمثلك (؟) لا تجاب.

وفي الفقرة المائة من النسخة الثانية فمثّلك لا تجاب.

والصحيح فَمِثْلُكَ لا تجاب أو لا يجاب أي أنت أقل من أن تجاب.

والتعبير أدبي شائع في اللغة العربية يذكره علماء البلاغة في اثبات الحكم بطريق الكناية التي هي أبلغ كقولك مثلك لا يبخل بمعنى أنت لا تبخل وذلك في بحث تقديم المسند اليه كاللازم(٣٦).

وثمة أخطاء أخرى من السهل تلافيها.

يشعر القارىء لكتاب « التوهم » الى جانب الشعور الديني العميق كأنه يطالع رواية. لكن أحداث هذه الرواية تبدأ عند كرب النزع لتصف غصص الموت وأحوال القبر وأهوال الحشر والحساب والمرور على الصراط والعرض على الجحيم والفوز بالنعيم وتشرح كل ذلك شرحاً مفصلاً وطريفاً يترجح بين الخوف والرجاء والترهيب والترغيب وتترقى الرواية شيئاً فشيئاً لتصف عذاب جهنم لمن حق عليهم العذاب ونعيم الجنان لمن فازوا بحسن المآب ثم تلك الغبطة الكبرى وهي النظر الى وجهه تعالى.

ونحن نود أن نعرض على القارىء الكريم ثلاثة نصوص من الكتاب توضح طريقة الوعظ ترهيباً وترغيباً وكيف ينهض المؤلف من خلال الوعظ الى الرد على المعتزلة :

(١)

٠٠٠ حتى اذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حسٌ يسمع، ولا شخص يُرى وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يُفْجأ روحك الا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم ٠

فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تأتي الى العرض على الملك الأعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والاكرام والعظمة والكبرياء ٠ فبينا أنت فزع للصوت اذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبَّراً من قرنك الى قدمك بغبار قبرك ، قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبَّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم ٠ فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ،فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت يمده المنادى، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى اذا وافيتَ الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والانس عراة حفاة ، قد نُزع المُلك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار ، فهم أذلّ أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه ٠ ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرا الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطية أصابتها ؛ فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور ، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه ، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلّهم البعث

وجمع بينهم النشور • حتى اذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها،واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها • فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمهامن فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر الى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافّات مايتشقّق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ، كما قال الجليل الكبير فكانت وردةً كالدهان[٣٧] ، يوم تكون السماء كالمُهْل وتكون الجبال كالعِهْن[٣٨] . (فقال المفسرون إن المهل هي الفضة المذابة يخالطها صفرة ، وإن العهن هو الصوف المنفوش ، وقوله وردة كالدهان كلون الفرس الورد) • فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين الى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلوّ أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عزّ وجل ــ كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال، حدثنا رشدين بن سعد عن أبي السمح عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لله مَلَك" ما بين مواقي عينيه الى آخر شفره مسيرة مائة عام؛ حدثني يحيى بن غيلان قال ، حدثنا رشدين بن سعد عن ابن عباس بن ميمون اللخمي عن أبي قبيل عن عبد الله عن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لله عز وجل ملك ما بين شفري عينيه مائة عام ــ فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم اجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم • فتوهمهم،وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك وكذلك الى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفاً واحداً ، حتى اذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق

قاب قوس أو قوسين ، ولا ظل لأحد الا ظل عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرّها واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ،فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى اذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ،وبعضهم حقويه ، وبعضهم الى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه ــ عن عمير بن سعيد قال : جلست الى ابن عمر وأبي سعيد الخدري ، وذلك يوم الجمعة فقال أحدهما لصاحبه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أين يبلغ العرق من ابن آدم يوم القيامة ؟ فقال أحدهم شحمة أذنيه ، وقال الآخر : يلجمه، فقال ابن عمر : هكذا وخط من فيه الى شحمة أذنيه، فقال: ما أرى ذلك الا سواء ٠

عن خيثمة عن عبد الله قال : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها يرون كواعبها وأكوابها ، والذي نفس عبد الله بيده ان الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيخ في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه ، وما مسه الحساب ، قال فقالوا : مم ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال فقال : مما يرى الناس يلقون ٠ عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الرجل (وقال علي مرةً ان الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه الى انصاف أذنيه من طول القيام ٠ عن عبد الله رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم ان الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي من طول القيام قالا جميعاً) حتى يقول ربّ أرحني ولو الى النار ــ وأنت لا محالة أحدهم ؛ فتوهم نفسك لكربك وقد علاك العرق وأطبق عليك الغم وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء الى دار السعادة أو الى دار الشقاء ، حتى اذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم ، فما ظنك بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا ينفح وجوههم روح ولا طيب نسيم ، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم حتى بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به ٠

(٢)

فتوهم قلبك في الجنان وقد قامت بين يديك قهارمتك معظمين لك ثم الوصفاء والخدام فاستقبلوا كأنهم اللؤلؤ المكنون فسلموا عليك، ثم أقبلوا بين يديك؛ فتوهم تبخترك في موكب من قهارمتك وخدامك يزفونك زفاً الى قصورك وما أعد لك مولاك ومليكك، فلما أتيت باب قصرك فتحت الحجاب أبوابك ورفعت لك الستور وهم قيام على أقدامهم لك معظمين، فتوهم ما عاينت حين فتحت أبواب قصورك ورفعت ستوره من حسن بهجةمقاصيره وزينة أشجاره وحسن رياضه وتلألؤ صحنه ونور ساحاته؛ فبينا أنت تنظر الى ذلك اذ بادرت البشرى من خدامك ينادون أزواجك: هذا فلان بن فلان قد دخل من باب قصره، فلما سمعن نداء البشراء بقدومك ودخولك توثبن من الفرش على الأسرة في الحجال وعينك ناظرة إليهن في جوف الخيام والقباب فنظرت الى وثوبهن مستعجلات قد استخفهن الفرح والشوق الى رؤيتك؛ فتوهم تلك الأبدان الرخيمة الرعبوبة الخريدة الناعمة يتوثبن بالتهادي والتبختر، فتوهم كل واحدة منهن حين وثبت في حسن حللها وحليتها بصباحة وجهها، وتثني بدنها بنعمته، فتوهم انحدارها مسرعة بكمال بدنها نازلة عن سريرها الى صحن قبتها وقرار خيمتها فوثبن حتى أتين أبواب خيامهن وقبابهن، ثم أخذن بأيديهن عضائد أبواب خيامهن للقصر الذي ضرب عليهن الى قدومك فقمن آخذات بعضائد أبوابهن، ثم خرجن برؤوسهن ووجوههن ينحدرن من أبواب قبابهن متطلعات ينظرن اليك مقبلات قد ملئن منك فرحاً وسروراً.

فتوهم نفسك بسرور قلبك وفرحه وقد رمقتهن ببصرك ووقع ناظرك على حسن وجوههن وغنج أعينهن فلما قابلت وجوههن حار طرفك وهاج قلبك بالسرور فبقيت كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج في قلبك من سرور ما رأت عيناك وسكنت اليه نفسك، فبينما أنت ترفل اليهن اذ دنوت من أبواب الخيام فأسرعن مبادرات قد استخفّهن العشق مسرعات يتثنين من نعيم الأبدان ويتهادين من كمال الأجسام ثم نادتك كل واحدة منهن: يا حبيبي ما أبطأك علينا؟ فأجبتها بأن قلت: يا حبيبة ما زال الله عز وجل يوقفني على ذنب كذا وكذا حتى خشيت أن لا أصل إليكن فمشين نحوك في السندس والحرير يثرن المسك ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن استعجالاً اليك وشوقاً وعشقاً لك، فأول من تقدمت منهن

اليك مدت اليك بنانها ومعصمها وخاتمهاكما قال النبي عليه السلام ؛ فتوهم حسن بنان أنشىء من الزعفران والكافور ، ونعم في الجنان الألف من الدهور ، فتوهمه حين مدّته اليك يتلألأ نوراً ويضيء اشراقاً ، فلما وضعت بنانها في بنانك وجدت مجسّة ليّنة بنعيمه وكاد أن ينسل من يديك للينه ، وكاد عقلك أن يزول فرحاً بما وصل الى قلبك من طيب مسيس بنانها ، ثم مدت يدك الى جسمها الرخيم الناعم فضمتك الى نحرها فانثنيت عليها بكفك وساعدك حتى وضعته على قلائدها من حلقها ، ثم ضممتها اليك وضمتك اليها ؛ فتوهم نعيم بدنها لما ضمتك اليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه ، فتوهم ما باشر صدرك من حسن نهودها ولذة معانقتها ، ثم شممت طيب عوارضها فذهب قلبك من كل شيء سواها حتى غرق في السرور وامتلأ فرحاً لما وصل الى روحك من طيب مسيسها ولذة روائح عوارضها ؛ فبينا أنت كذلك اذ تمايعن عليك فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك فملأن وجهك بأفواههن ملتثمات وملأن صدرك بنهودهن فأحدقن بك بحسن وجوههن وغطين بدنك وجللنه بذوائبهن واستجمعت في مشامك أراييح طيب عوارضهن ؛ فتوهم نفسك وهن عليك منكبات بفيك ملتثمات متشممات عليك متثنيات بنعيم أبدانهن ، لهن استراحة عند ضمك اليهن لشدة العشق وطول الشوق اليك متشبثات بجسمك ومتنعمات بنسيم أراييح عوارضك ، فلما استمكنت خفة السرور من قلبك وعمت لذة الفرح جميع بدنك وموعد الله عز وجل في سرورك فناديت بالحمد لله الذي صدقك الوعد وأنجز لك الموعد ، ثم ذكرت طلبك الى ربك اياهن بالدؤوب والتشمير ، فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن . لمثلِ هذا فلْيَعمل العاملون(٣٩) .

(٣)

فتوهم نفسك اذ منّ عليك ربك وأنت لاصق برفيقك منكبك بمنكبه ، وقد دنوتما من أشجار الجنة فنفضت ثمرها فوقعت الثمار في أيديكما وأيدي أولياء الرحمن ، ثم تنحت بأصولها عن طريقهم فهم يسيرون فرحين ، وقد شخصت قلوبهم بالتعلق الى نظر حبيبهم فهم يسيرون بالسرور ويلتفت بعضهم الى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم الى بعض ، يتداعبون في سيرهم ، يحمدون ربهم على ما صدقهم على ما أباح لهم من جواره ؛ فبينا هم في سيرهم اذ دنوا من عرش ربهم

وعاينوا حسن حجبه ونوره واستحثوا السير شوقاً وحباً وفرحاً به • فتوهم نجائبهم تطير في سيرها باعتدال موكبهم واشراق وجوههم والملائكة قد أحدقت بالنجائب تزفهم زفاً الى ربهم حتى انتهوا الى فحصة عرش مولاهم ، فتوهم سعة تلك الفحصة وحسن نورها ببهجتها وزهرتها ، وقد وضعت الزرابي والنمارق على كثبان المسك ، عرف كل فتى منهم ما أعدله ، والكراسي لأهل صفوته من عباده ، وأحبائه من خلقه ، لما دنوا الى ما أعد لهم من المنابر والكراسي والزرابي والنمارق، فثنى رجله الحسنة من الركاب الى منبر أو كرسي أو زربية ؛ فتوهم ثنيهم أرجلهم الى كراسيهم ، حتى استووا عليها ، فتوهم نعيم تلك الأفخاذ والأوراك المرتفعة على الكراسي بالدر والياقوت ، فاعظم به من مقعد وأعظم بولي الله متربعاً • فلما أخذ القوم مجالسهم واطمأنوا في مقعدهم والحجب تسطع نورها فيالذة أعينهم ، وقد أصغوا بمسامعهم منتظرين لاستماع الكلام من حبيبهم ؛ فتوهمهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر منازلهم ، فهم في القرب منه على قدر مراتبهم ، فالمحبون له أقربهم اليه قرباً اذ كانوا له في الدنيا أشد حباً ، وأقرب الى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه ، ثم الأنبياء عليهم السلام ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم ، فأعظم به من مزور ، وجلّ وتكبر من مزور •

فتوهم مجلسهم بحسن كرامتهم وجمال وجوههم واشراقها لما رهقها نور عرشه عز وجل واشراق حجبه فلو صح لك عقلك ثم توهمت مجلسهم واشراق كراسيهم ومنابرهم وما ينتظرون من رؤية ربهم ، ثم طار روحك شوقاً اليه لكنت بذلك حقيقاً • فيا عظم ذلك عند عاقل عن الله، مشتاق الى ربه ورؤيته، فتوهم ذلك بعقل فارغ لعل نفسك أن تسخى بقطع كل قاطع يقطعك عنه ، وترك كل سبب يشغلك عن التقرب فيه الى ربك • فلما استوى بهم المجلس واطمأن بهم المقعد وضعت لهم الموائد ليكرم الله عز وجل زواره بالاطعام والتفكيه لهم ، ووضعت الموائد لزوار الله عز وجل وأحبائه من خلقه ، قامت الملائكة على رؤوسهم معظمين لزوار الرحمن ، فوضعت الصحاف من الذهب فيها الأطعمة وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوا ، فقدموا أيديهم مسرورين باكرام ربهم لهم ، لأن حقاً على كل مزور أن يكرم زائره فكيف بالمزور الكريم الواحد الجواد الماجد العظيم • فتوهم وهم يأكلون فرحين مستبشرين باكرام مولاهم لهم ، حتى اذا فرغوا من أكلهم قال الجليل لملائكته :

اسقوهم، فأتتهم الملائكة ، لا الخدام والولدان ، بأكواب الدر وكؤوس الياقوت، فيها الخمر والعسل والماء والألبان ؛ فتوهم تلك الكاسات وتلك الأكواب بأيدي ملائكة الرحمن ، فتناولها أولياء الله فشربوها ، فتنازع حسن الشراب في وجوه الزوار ، فلما سقتهم الملائكة ما أمرهم الله به من الأشربة قال الجليل : اكسوا أوليائي ، فتوهم الملائكة ، وقد جاءت بالحلل التي لم يلبسوا في الجنة مثلها ، ثم قاموا على رؤوسهم فألبسوها أهل كرامة الله ورضوانه ، فتوهم وقد صيروها من فوق رؤسهم حتى صارت على أقدامهم فأشرقت بحسنها وجوههم ، ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم ، فارتفعت السحاب بحسنها وشدة ضيائها ونورها لحمل ألوان الطيب من المسك وجميع طيب الجنان ما لم يجدوا مثل رائحته ، فتوهمها تمطر عليهم والطيب يتساقط عليهم مطراً حتى علا جباههم وثيابهم ، فلما أكلوا وشربوا وخلعت الملائكة الخلع وطيب مطر السحاب ، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ثمَّ برفع الحجب؛ فبينا هم في ذلك اذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله ، فلما نظروا اليه والى ما لم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذي لا يشبهه شيء من خلقه ، فلما نظروا اليه ناداهم حبيبهم بالترحيب منهم وقال لهم : مرحباً بعبادي، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة ، لأنهم يسمعون كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء • فتوهمهم، وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لاستماع كلامه ، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم ، فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباً بهم ، ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه ، فحياهم بالسلام فردوا عليه أنت السلام(٤٠) ومنك السلام ولك حق الجلال والاكرام• فمرحباً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي وخافوني في الغيب، وقاموا مني على كل حال مشفقين ، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم أثرة لرضاي عنهم ، قد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي ، تمنوا عليَّ ما شئتم • فلو رأيتهم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه في دنياهم من رعاية عهده وحفظه ودوام خوفهم منه ، وقد استطاروا فرحاً لما شكر لهم رعايتهم حقه، وحفظ منهم خوفهم، ورحب بهم محبة لهم ،

اذ كانوا بذلك اياه في الدنيا يعبدونه؛ استطارت قلوبهم فرحاً وسروراً اذ لم يفرطوا في طاعته ولم يقصروا في مخافته ، فاغتبطوا لما كانوا به لله في الدنيا يدينون من شدة خوفهم ورعاية حقه وحفظه ، فردوا اليه الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله ، أنهم قد قصروا عما كان يحق له عليهم إعظاماً لـه واستكثاراً ، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربـه واستماع كلامه ، فقالوا عند ذلك: وعزتك وجلالك وعظمتك وارتفاع مكانك ما قدرناك حق قدرك ولا أدينا اليك كل حقك فأذن لنا بالسجود ، فقال لهم ربهم : اني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة وأرحت لكم أبدانكم فطالما أتعبتم الأبدان وأكنتم لي الوجوه ، فالآن أفضتم الي كرامتي ورحمتي فتمنوا علي ما شئتم ــ وفي بعض الحديث أنهم اذا نظروا اليه خروا فيناديهم بكلامه تبارك وتعالى ارفعوا رؤوسكم ، ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر ــ فتوهم بعقلك نور وجوههم وما يداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا مليكهم ، وسمعوا كلام حبيبهم ، وأنيس قلوبهم ، وقرة أعينهم ، ورضا أفئدتهم ، وسكن أنفسهم ، فرفعوا رؤوسهم من سجودهم ، فنظروا الى من لا يشبهه شيء بأبصارهم ، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى الرضا والرفعة . فما ظنك بنظرهم الى العزيز الجليل الذي لا يقع عليه الأوهام ، ولا يحيط به الأذهان ، ولا تكيفه الفكر ، ولا تحده الفطن ، الذي لا تأويه الأرحام ، ولم تنقله الأصلاب ، ولا يبدو فيكون مطبوعاً منتقلاً ؛ الأزلي القديم الذي حارت العقول عن إدراكه ، فكلّت الألسنة عن تمثيله بصفاته ، فهو المنفرد بذاته عن شبه الذوات ، المتعالي بجلاله على مساواة المخلوقين ؛ فسبحانه لا شيء يعادله ، ولا شريك يشاركه ، ولا شيء يريده فيستصعب عليه أو يعجزه إنشاؤه ، استسلم لعظمته الجبارون ، وذل لقضائه الأولون والآخرون ، نفذ في الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون ، وبما لو كان كيف يكون ، فأحاط بالأشياء علماً ، وسمع أصواتها سمعاً ، وأدرك أشخاصها ... (٤١) ونفذ فيها إرادته ، وأمضى فيها مشيئته ، فهي مدبرة ... (٤١) . وقربها اختراعاً فكانت عن ارادته ، لم يتقدم منها شيء قبل وقته الذي أراد فيه كونه ، ولم يتأخر فيه عن نهيه ، وكيف يستصعب عليه من لم يكن شيئاً مذكوراً حتى كونه سبحانه الواحد القهار .

□ خاتمـة :

يروي السبكي في طبقات الشافعية عمن حضر وفاة الحارث فقـال : ان رأيت ما أحب تبسمت اليكم وان رأيت غير ذلك تنستمتم في وجهي قال : فتبسم ثم مات(٤٢) ٠

هذا وقد كان الامام أحمد بن حنبل قد تعرض لمحنة في خلق القـرآن وزج في السجن فلما خرج في زمن الواثق ثم قرّبـه المتوكل عظمت مكانته الاجتماعية فوق ما هي عليه من علم واسع بالحديث وبالفقه ٠ وقد سلف أن أوضحنا انكاره على الحارث استفاضة وعظه وتكلمه في شيء من علم الكلام فانقطع الحارث عن نشاطه واختفى في داره ببغداد ٠ فلما مات لم يصلّ عليه الا أربعة نفر(٤٣) ٠

□ الحواشـي :

١ ـ ج ١٠ ص ٧٣ ـ ٨٤ ٠
٢ ـ ج ٨ ص ـ ٢١٤ ٠
٣ ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٩ / ١٩٤٠ ص ١٣ ٠
٤ ـ ج ٢ ص ٣٧ طبعة القاهرة ٠

ابن الصلاح (٥١٧ / ١١٨١ هـ ـ ١١٨١ / ١٢٤٥ م) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمـان الشهرزوري سكـن الشام ففوض اليه الملك الأشرف التدريس في دار الحديث بدمشق ٠

أبو منصور (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) هو عبد القاهر بن طاهر البغدادي من أئمة الأصول في عصره يقـال انـهكان يدرّس في سبعة عشر فنا ترك طائفة من الكتب منها الفرق بين الفرق وهو مطبوع ٠

أبو عاصم العبادي ٣٧٥ / ٩٨٥ ـ ٤٥٨ / ١٠٦٦ هو محمد بن أحمـد الهروي الشافعـي ولـد بهراة وتفقه بهـا وبنيسابور ٠ من تصانيفه كتاب في طبقات الفقهاء ٠

٥ ـ المصدر نفسه ص ٤١ ٠
٦ ـ المصدر نفسه ص ٤٢ ٠

امام الحرمين هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينـي ٤١٩ / ١٠٢٨ ـ ٤٧٨ / ١٠٨٥ بنى لهـ الوزير نظام الملك « المدرسة النظامية في نيسابور » من أعلام الشافعية والأشاعرة من كتبه «البرهان في أصول الفقه» و « الشامل في أصول الدين » ٠ وهو أستاذ أبي حامد الغزالي ٠

٧ ـ طه (٢٠ ـ ٥) ٠
٨ ـ ص (٣٨ ـ ٧٥) ٠
٩ ـ الفجر (٨٩ ـ ٢٢) ٠
١٠ـ امام دار الهجرة واحد الأئمة الأربعة عند أهل اسنة وصاحب « الموطا » (٩٣ / ٧١٢ ـ ١٧٩ / ٧٩٥) ٠
١١ـ أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وصاحب « المسند » (١٦٤/٧٨٠ ـ ٢٤١/٨٥٥) في أيامه دعا الخليفة المامون الى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل وخلفه المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن واطلق سنة ٢٢٠ ولما ولي المتوكل بعد اخيه الواثق أكرم الامام وقدّمه ٠
١٢ـ سفيان بن سعيد الثوري صاحب مذهب في الفقه من أئمة العلم والعمل والتقوى (٩٧/٧١٦ ـ ١٦١/٧٧٨) ٠
١٣ـ داود بن علي الأصفهاني امام المذهب الظاهري ٠ كان حافظاً مجتهداً كثير الورع (٢٠١/٨١٦ ـ ٢٧٠/٨٨٤) ٠
١٤ـ من علماء الكلام الأوائل له كتب منها « الصفات » و « الرد على المعتزلة » (ت نحو ٢٤٥/٨٦٠) ٠
١٥ـ من متكلمي أهل السنة في القرن الثالث الهجري ٠ له كتب ورسائل في الرد على النظام ٠
١٦ـ علي بن اسماعيل الأشعري من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة وامام المتكلمين المجتهدين ٠ تلقى مذهب المعتزلة ثم رجع وجاهر بخلافهم (٢٦٠/٨٧٤ ـ٣٢٤ / ٩٣٦) انظر الحاشية التالية ٠

١٧- محمد بن عبد الوهاب الجبائي صاحب مذهب في الاعتزال(٢٣٥/٨٤٩ - ٣٠٣/٩١٦ والمناظرة مشهورة نوردها هنا لزيادة الفائدة :

« سال الشيخ (الاشعري) رضي الله عنه أبا علي فقال: ايها الشيخ ما قولك في ثلاثة مؤمن وكافر وصبي ؟ فقال : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الهلكات ،والصبي من أهل النجاة • فقال الشيخ : فان أراد الصبي ان يرقى الى أهل الدرجات هل يمكن ؟ قال الجبائي : لا •يقال له ان المؤمن انما نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها • قال الشيخ : فان قال التقصير ليس مني • فلوأحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن • قال الجبائي : يقول له الله كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهي الى سن التكليف • قال الشيخ : فلو قال الكافر يا رب : علمت حاله كماعلمت حالي فهلا راعيت مصلحتي مثله فانقطع الجبائي •

١٨- فرق متعددة يزعم بعضهم أن معبودهم صورة ذات أعضاءوأبعاض اما روحانية واما جسمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن •

١٩- نسبة الى محمد بن كرام السجزي (ت نحو ٢٥٥/٨٦٩)كان ممن يثبت الصفات الا انه انتهى فيها الى التجسيم والتشبيه •

٢٠- مكتبة الحسين التجارية ١٣٦٨/١٩٤٨ ص ١٢٣ - ١٢٧ •

٢١- ج ٨ ص ٢١٤ - ٢١٥ •

٢٢- ج ٢ ص ٤٠ •

٢٣- تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢١٤ •

٢٤- طبقات الشافعية ج ٢ ص ٣٩ •

٢٥- تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢١٥ وشقيق هو ابن ابراهيم البلخي من مشاهير مشايخ خراسان كان استاذ حاتم الأصم •

٢٦- الجواري الأولى الأوانس والثانية الزوارق • وهنا نعجب لنوه بهذا التشبيه وهو أن الفتاة تبدو في رقتها ورشاقتها ولطفها وحركتها كالزورق المنساب فوق الماء • وهوتشبيه استعمله الشاعر الفرنسي بودلير في قطعة شعرية له بعنوان السفينة الجميلة فيقول مفصلا وجوه الشبه :

Quand tu vas balayant l'air de ta jupe large,
Tu fais l'effet d'un beau vaisseau qui prend le large,
Chargé de toile, et va roulant,
Suivant un rhytme doux, et paresseux, et lent.

(Les fleurs du mal)

٢٧- حلية الاولياء ج ١٠ ص ٧٤ - ٧٥ •

٢٨- ج ١٠ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ •

٢٩- المصدر نفسه ص ٧٥ •

٣٠- الرسالة ص ١٢ •

٣١- مطبعة النهضة ١٩٢٨ ص ١٥٢ •

٣٢- المصدر نفسه ص ١٧٨ •

٣٤- ص ٧٤ • ورد في النص : اخرج بنا نصحن • فصححه المستشرق الانكليزي اربري في كتابه عن الصوفية نطحن وترجم جان غويار Jean Gouillard حين نقل كتاب اربري الى الفرنسية نطحن كذلك • والصحيح نصحر اي نذهب الى الصحراء في خارج بغداد •

٣٥- المصدر نفسه ٩٠ - ٩٢ •

٣٦- حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لمتن التلخيص (معارف نظارت جليله ، استانبول) ص ٤٠٥ - ٤٠٦ •

٣٧- الرحمن ٥٥ - ٣٧ •

٣٨- المعارج ٧٠ - ٨ ، ٩ •

٣٩- الصافات ٣٧ - ٦١ •

٤٠- الحشر ٥٩ - ٢٣ •

٤١- بياض في الأصل •

٤٢- ص ٣٨ - ٣٩ •

٤٣- تاريخ بغداد ص ٢١٦ •

□ تعليـق :

كتب طـه حسين مقدمة لنسخة رسالة الغفران التي نشرها كامل كيلاني جاء فيها :

« شبهها قوم بحديث « دانت » وربما وفقوا في هذا التشبيه ، وزعم قوم أن « دانت » تاثر بها في حديثه ، ولعلهم قاربوا الصواب في هـذا الزعم ٠ولكن هذا كله لا يعنيني الآن ، وانما يعنيني حين أضع كتاباً خاصاً لدرس هذه الرسالة درسة علمياً ٠كل هذا لا يعنيني الآن ، وانما الذي يعنيني أن أحداً من كتاب العرب وشعرائهم لم يسبق أبا العلاء الى هذا الفن من الكتابة والفهم والخيال ولم يلحقه فيه ، وانما انفرد به أبو العلاء انفراداً في كل هذه الآداب،وفي كل هذه الحضارات التي عاشت هـذه القرون المتصلة وأزهرت فيها هذا الازهار الغريب ٠

نعم ، رسالة الغفران هي آية الأدب العربي من هذه الجهات كلها قصة غريبة لا تقـع في الأرض وانما تقع في السماء ٠ وليس الغرض منها الفكاهة وحدها ولا النقد وحده ، وليس الغرض منها كفراً ولا ايماناً ، وانما هذا كله هو الغرض مـن هذه الرسالة » ٠

لا شك أن رسالة الغفران هي آية من آيات الأدب العربي من وجوه كثيرة ٠ ولكن الحارث المحاسبي في كتابه « التوهم » قد سبق « الى هـذا الفن من الكتابة والفهم والخيال » وان كان الغرض متفاوتاً في كل من الكتابين ٠ المقصد في كتاب التوهم الوعظ والترغيب والترهيب والرد على المعتزلـة في امكان رؤيته تعالى في الجنة لأوليائه الأصفياء ، والمقصد من رسالة الغفران متشعب ومتعدد فيها النقد وفيها اللغة وفيها تصحيح بعض الروايات وفيهـا ايمـان عميق صنف به مؤلفها حسب اعتباراته من هو أهل لدرجات النعيم ومن لا يستحق الوصول اليه ٠ ولا نجزم هل اطلع المعري على كتاب التوهم الذي كتبه المحاسبي قبله بأكثر من قرن أو أوحى اليه هذا الكتاب برسالته الفائقة فهما متباعدان جـداً ولكن المبدأ والاطار واحد وهو وصف ما يجري في الآخرة حسب تصور كل منهما وحسب مقصده من ذلك ٠ ثم ان الشاعر الايطالي دانتي (١٢٦٥ ــ ١٣٢١ م) لم يطلع على خبر هذين الكتابـين وانما اطلـع على ترجمة احدى قصص المعراج التي نقلت في عهـده الى اللاتينية ثم سطا على ما فيها من تصوير وخيال وتنكر أي تنكر لينبوع الهامه ، ومنهل خياله ، وقد ألحقنا ببحثنا هـذا محاضـرة للمستشرق الايطـالي فرنسسكو غابريلي القاها في مدرج جامعة دمشق ،وترجمها الأستاذ الدكتور موسى الخوري ، ونشرها في مجلة المجمع العلمي العربي عام ١٩٥٩ في المجلد (٣٣) والجزء الأول ٠ أوضح فيهـا تاثر دانتي بقصـة المعراج تلك ونحن نعيد نشرها بعد الاستئذان من المترجم ليستتب النظر وتتحقـق نسبة التأثـر ، ويستبين الأخذ والاستفادة ٠

★ ★ ★

ضوء جديد
على دانتي والاسلام*

بقلم: فرانسسكو غابريلّي

ترجمة: د. موسى الخوري

أربع وثلاثون سنة قد انقضت منذ أن عُرِض، على الأكاديمية الاسبانية، كتاب تقدم به عند انتمائه للأكاديمية (Discorso de recepcion)، المستشرق المختص بالدراسات العربية المدعو « ميجويل آسين بلاسيوس »، وكان في شرخ شبابه آنذاك. ولا أزال أذكر الى الآن الأثر الذي تركته في نفس والدي قراءة الكتاب المذكور المسمى « فكرة المعراج الاسلامية في الكوميديا الالهية » (Escatologia musulmana en la Divina Comedia) وهو أثر امتزج فيه الاعجاب بالدهشة، وكاد يبلغ حد الفزع بالرغم من أن والدي كان من أوائل الذين قاموا بنشر آراء آسين في ايطاليا؛ ذلك أن الطرافة والجرأة واتساع الافق التي اتسم بها افتراض آسين، والنتائج التي توصل اليها، أحدثت وقعاً شديداً. ولا أزال أحمل في ذهني ذكريات غير مكتملة الوضوح عن الأصوات المتنافرة التي ارتفعت في نقد المستشرق الشاب، وفي نقد دانتي في جو الحماس المحموم الذي تميزت به احتفالات عام ١٩٢١ بمرور ستمائة سنة على وفاة دانتي، كما اني أحمل ذكريات مبهمة عن حماس المؤمنين بنظرية آسين، وخيبة الأمل المريرة التي مني بها مقدسو دانتي، والأصداء العميقة المتلازمة لكل من التأييد والاستنكار؛ هذه المشاعر جميعها أثارها كتاب آسين مما لم يسبق اليه أي سفر آخر طيلة مائة عام. ثم ما لبثت أن طفت في كل مكان أصوات المعارضين الذين لم يؤمنوا بنظرية آسين ممن اعتمدوا في ذلك على الحجة أو المنطق أو من الذين آمنوا في أول الأمر ثم أخذ ايمانهم يضعف ويهن، وكان في عدادهم والدي. وقد رد عليهم آسين في كتابه « تاريخ معضلة ونقدها » (Historia y critica de una polemica) ببراهين حية مقنعة، وشيجة الاتصال بموضوع الجدل. ثم ما عتمت حدة الجدل أن خفت وانتهى الأمر، كعادة الأمور في مثل هذه الحال، بأن خلف النزاع وراءه عدداً من المسائل يحيط بها سوء التفاهم وعدم الوضوح.

الا أن التحامل المبدئي على العالم « الاسلامي العربي » الغريب البعيد في لغته وتقاليده ومكانه وحضارته ظل قائماً لا يقهر ٠ وكان آسين يعتقد اعتقاداً راسخاً أن معارضة آرائه ، ولا سيما من قبل الايطاليين ـ وهذا أمر كان مطابقاً للحقيقة فعلاً ـ لم يكن الباعث الوحيد عليه التبلد الذهني ، أو الفزع من رأي مستجد ، أو التصلب الفكري أمام الحقيقة المرة يُكْتَشَفُ عنها لأول مرة ، وانما كان بالاضافة الى ذلك كله التعصب الثقافي القومي ، والانصراف التام الكلي للدفاع بأي ثمن عن مجد قومي امتدت اليه يد الانتقاص والتجريح بعد أن ظلت أصالته وعظمته لا يرقى اليهما شك أو نقد حتى ذلك الحين ٠ وقد بذل آسين عناية شديدة في نهاية كتابه ليؤكد بأن مجد دانتي الشعري لم تكن لتنتقص من قدره تلك الصلة الوشيجة المستمرة التي آمن هو أنه اكتشف وجودها بين الصورة التي قدمها دانتي عن العالم الآخر وبين فكرة المعراج وفلسفة الحشر والنشر الاسلامية ، وأردف قائلاً : ان اعتزاز الايطاليين بالاصالة المطلقة لقصيدتهم المقدسة وما انتاب هذا الاعتزاز نتيجة لنظريته انما هو الذي أوحى برد الفعل الايطالي أكثر من أي دافع آخر سواه ٠

فاذا كان هناك والحالة هذه من يعتبر العصبية القومية الايطالية العقبة الأساسية التي حالت دون قبول افتراض آسين ، فعلى مثل هذا أن يدرك أن الفكرة الايطالية في فلسفة النقد والجمال ، هذه الفكرة التي ذاع صيتها في سائر أنحاء أوربة ، هي التي تأبى علينا ، نحن معاشر الايطاليين ، أن نقابل بالفتور مشكلة لا تمت بصلة الى سمو فن دانتي وصفته الشعرية الفذة ، حتى لو كان دانتي مديناً لابن عربي بكل ما اعتقد آسين أنه مدين له به (وسنرى فيما بعد أن تنبؤات آسين قد ثبتت صحتها في اتجاه آخر) ، فلا ينبغي لنا نحن الايطاليين من عشاق الشعر أن يخطر ببالنا قط أنه قد ينشأ عن هذا أي انتقاص ، مهما ضؤل ، لعظمة دانتي في الناحية التي وهبها لنا على وجه ليس له بديل أو مثيل ، الا وهي الناحية الشعرية ٠ فدانتي الشاعر لا يرقى اليه لوم أو تجريح ، وقصيدته قد تقبل النقد الا من وجهة النظر الفنية الجمالية ؛ والمستشرق الاسباني العظيم كان في مقدمة من أدركوا هذه الحقيقة البسيطة وأعلنوها ٠ والواقع أن أخطر الانتقادات التي وُجهت الى كتاب آسين كانت تتصل بمناح أخرى غير هذه التي ما كانت لتعتبر وجهة نظر شرعية محقة ، وعلى هذا الأساس وحده نشأت أخطر الشكوك بصدد افتراضات المؤلف ٠ فهل كان دانتي يعرف من اللغة العربية ما يؤهله للاطلاع على المواد التي استطاع آسين البحاثة العالم أن يبرزها للمقارنة بقصيدته ؟ وهل كان في الحقيقة أكثر اطلاعاً من عامة معاصريه على شؤون العالم العربي الاسلامي ؟ وكيف تيسر له الاطلاع على انتاج ابن عربي أو أبي العلاء المعري وكلاهما يتصف بالغموض والابهام ؟ وأي دليل على أن مؤلفات هذين الكاتبين أو أي انتاج عربي آخر يبحث في فلسفة الحشر والنشر قد ترجم الى لغات غربية ؟ ان هذه جميعها مشكلات تقع في مجال أبحاث التاريخ الثقافي ، ويجب علينا حلها اذا أردنا اثبات أسباب التشابه بين فلسفة الحشر الاسلامية وفكرة الحشر عند دانتي كما أوردها آسين ٠ وقد أجاب عنها آسين بقوله انه ليس من البعيد أن يكون دانتي قد ألمَّ بقليل من اللغة العربية (ولكن الأمر كما نعلم نحن المستشرقين حق العلم يقتضي أكثر من مجرد الالمام بقليل من

العربية لفهم مؤلفات أبي العلاء وابن عربي المعقدة !) ، وأشار آسين أيضاً الى أنه قدر على أن يبين وجود اهتمام خاص بالتاريخ الاسلامي والثقافة الاسلامية في انتاج دانتي ، ابن فلورنسة البكر، وكذلك نوه آسين باحتمال لم يتمكن من دعمه بالوثائق وهو ان يكون « الّفيري دانتي » قد وقع على نصوص في فلسفة الحشر الاسلامية في بعض الترجمات ، وأن هذه الترجمات قد تكون مما حمله معه برونيتو لاتيني (Brunetto Latini) عند عودته الى مقاطعة توسكاني بايطاليا بعد انتهاء سفارته لدى ملك اسبانيا في عام ١٢٦٠ م ، وقد كانت هذه النقطة الأخيرة بالذات ، أي الوسيلة التي انتقلت عن طريقها فكرة الاسلام عن العالم الآخر الى دانتي ، هي التي ظلت الى وقت قريب مشكلة مبهمة تؤلف الحلقة المفقودة في السلسلة التي أحكم رباطها آسين ،حلقة حلقة ، بنفاذ وتعمق لا مثيل لهما ، بين اسبانيا العربية ـ اليهودية ـ المسيحية في القرن الثالث عشر ، وايطاليا في القرن الرابع عشر .

لقد أصبح معروفاً الآن بعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاماً على عرض المشكلة لأول مرة أن الحلقة المفقودة ، قد عثر عليها . ذلك أن عالمين أحدهما اسباني والآخر ايطالي ، (وقد أمسك كل منهما بأحد طرفي السلسلة مستقلاً عن الآخر وغير عارف بجهوده حتى النهاية) ، نشرا خلال هذه السنوات النصين اللاتيني والفرنسي لكتاب اسباني عربي يدور حول فلسفة الحشر العربية الاسلامية . وقد ثبت أن هاتين الترجمتين كانتا معروفتين في ايطاليا في القرن الرابع عشر ؛ وهكذا تظهر لنا مشكلة دانتي والاسلام تحت ضوء جديد كل الجدة . وقد أسميت هذا الكتاب الفذ كتاب (المعراج أو كتاب معراج محمد) وفقاً للأسماء المتعددة التي عُرف بها باللاتينية والفرنسية القديمة والايطالية . وقد تم وضع الكتاب ـ كما كان متوقعاً بل محتوماً ـ في بلاط الفونسو بمدينة أشبيلية وبأمر الملك نفسه ، الذي دُعي بحق ملك الدينين أو الأديان الثلاثة، والذي تصدق فيه هذه الصفة أكثر مما تصدق في جده ، فاتح طليطلة . وكان ابرهيم الفقين ، الطبيب والعالم اليهودي المشهور بترجماته لمؤلفات ابن الهيثم والزرقاني ، قد نقل الى اللغة القشتالية ، قبل عام ١٢٦٤ بزمن غير طويل ، وبأمر من الملك نفسه ، النص الشائع لقصة المعراج أو رحلة محمد في أنحاء العالم الآخر . وعن ترجمة ابرهيم القشتالية هذه ،وهي ترجمة مفقودة ، أخذ الكاتب الايطالي بونافنتورا من أهل سيينة نص الترجمتين الفرنسية واللاتينية الموازيتين له ، ومخطوطة احداهما لا تزال محفوظة في اكسفورد ببريطانيا في حين حفظت مخطوطات الأخرى في باريس والفاتيكان . وقد نُشرت الترجمتان في أن واحد من قبل أنريكو شيرولي في ايطاليا، وجوزيه مونوز سندينو في اسبانيا .

واذا استثنينا المقدمة الوجيزة التي كتبها بونا فنتورا سيينة شارحاً أصل الكتاب ومبرراً الغاية من وضعه فنحن نجد بين أيدينا في الحالتين ترجمة أمينة حرفية ، وفق أساليب الترجمة في ذلك العصر ، لمؤلَّف عربي في فلسفة الحشر والنشر ، وقد يكون أصل هذا المؤلَّف مفقوداً ، ولكنه كان ولا شك شائعاً جداً في اسبانيا في القرن الثالث عشر ، كما أنه لا بد أن يكون لهذا الأصل علاقة بالنصوص الأخرى الشفوية الخاصة بفلسفة الحشر التي نسخها أو لخصها آسين في كتابه . ولكنه يمتاز عليها جميعاً بتناسقه وشموله الكاملين ، وفي

مقاطع منه رونق أدبي قديم لا يخلو من قوة التأثير في النفس · أما القصة فهي معروفة : جبريل يوقظ محمداً من نومه في مكة ، ويأمره بامتطاء البراق ، ذلك الجواد المجنح الذي يحمله الى المسجد الأقصى ، ومن هناك يصعد الى السماء على درج ذهبي برءاق · ومن هنا أخذ اسم الكتاب الذي يتحدث عن أرجاء العالم الآخر · ويرى محمد (ﷺ) بعد ذلك ملك الموت ، ثم يرى ملكاً بشكل ديك ، وآخر نصفه من نار ونصفه من ثلج(١) ويجتاز سبع سماوات ، يلتقي في كل منها بنبي ، حتى يمثل أخيراً أمام عرش الله ؛ ثم يزور الفردوس ويرى ما فيه من مباهج الطبيعة والمحبة ،ويتسلم من الله عزّ وجلّ القرآن الكريم وأوامر الصلاة اليومية والصوم(٢) ، وتخفف هذه الأوامر فيما بعد استجابة لتوسلاته ، ومن ثمّ يرى جهنم، ويطوف بأطباقها ودركاتها السبعة،ويرى أنواع التعذيب فيها ، بينما يشرح له جبريل يوم القيامة والحساب على جسر الصراط · وعبثاً يحاول لدى عودته الى الارض اقناع قريش بصدق رؤياه ، وقددونها ، وشهد على صدقها كل من أبي بكر وابن عباس(٣) بناءً على طلبه · والصفات المميزة للمؤلف الأصلي محفوظة هنا بأمانة ، لا بنتيجة الاسلوب الأدبي لكتاب فحسب (هذا الاسلوب الذي على الرغم مما فيه من تشويه ، ياتي على ذكر عدد كبير من الاسماء والاماكن الواردة في الأصل العربي ، ويردد جملاً عربية كامنة في التسبيح والصلاة) ، بل لخلوه أيضاً من اي شرح او ايضاحات دفاعاً عن الدين من وجهة النظر المسيحية ، وهكذا فاننا ما جردالنص من حله اللغات ذات الاصل اللاتيني التي وضع فيها ، فاننا نجد فيه العقيدة الاسلامية الشعبية في الموضوع محفوظةً بكل ما فيها من صراحة لا تخلو من بعض البساطة ·

وهذا الكتاب الذي جعله الملك في متناول يد الغرب المسيحي (في ما لا يقل عن ثلاثة اسفار وربما في اكثر من هذا العدد ، بدافع من حب الاستطلاع الثقافي أكثر من الرغبة في الدفاع عن وجهة النظر المسيحية) ، انتشر بصورة فعالة وبطرق متعددة ؛ وبوسعنا ان نتتبع ما كان له من وقع في اسبانيا وفرنسا وايطاليا · وبناءً على ما بيّنه شيرولي فان كتاب ابرهيم الفقين المترجم الى لغة قشتالة والذي لم يصل الينا هو المصدر الذي أخذ عنه « سان بيدرو باسكال » خلاصته الضافية عن رحلة محمد (ﷺ) الى العالم الآخر كما وردت في كتابه (Sobre La Seta Mahometana) الذي أشار اليه أسين وجعله مصدراً يُحتمل أن يكون دانتي قد اعتمده · وعلى أساس المعلومات الدقيقة المتجمعة لدينا والحدس المعقول فان المخطوطات الثلاث المحفوظة لكتاب بونا ڤينتور ، وجميعها من مطلع القرن الرابع عشر ، تحملنا الى مقاطعة بريتانية في شمالي فرنسا (المخطوطة اللاتينية المحفوظة بباريس)، والى انكلترة (مخطوطة اكسفورد الفرنسية)،والى بروڤنس (مخطوطة الفاتيكان اللاتينية)، وتدلنا على أن كتاب المعراج (Liber Scalæ) ما لبث أن شق طريقه الى ما وراء جبال البرانس · وأما فيما يتعلق باطلاع الايطاليين على هذا الكتاب فنحن اذا جعلنا تاريخ ترجمته عام ١٢٤٦ (وبذلك نكون قد تخلينا عن فكرة نقله على يد برونيتو لاتيني الذي سبقت سفارته لدى بلاط الفونسو التاريخ المذكور بأربع سنوات) فاننا نعثر على اقتباسين صريحين من قبل كاتبين ايطاليين ، أحدهما يلخص الكتاب تلخيصاً ضافياً مما يثبت أنه كان معروفاً في ايطاليا في منتصف القرن الرابع عشر وأواخر القرن الخامس عشر ، ففي

ذينك القرنين كانت كتابات راهب أبوليا الفرنسسكاني روبرتو كاراكشيولو الدينية معروفة ومشهورة، وفي عهد السلالة الأراغونية في نابلي أورد روبرتو هذا في كتابه كلمة الايمان (Specchio della Fede) خلاصة لما وصفه هو « بالكتاب الذي يدعوه المسلمون بالمعراج وبلغة العرب سلم محمد » • ولا ريب في ان هذا هو كتابنا وانه قد اطلع عليه بنص لاتيني• غير أن الشاعر التوسكاني فازيو ديقلي اوبرتي يدنينا أكثر كثيراً من دانتي من حيث الزمان والمكان ، فهو يصف في كتابه دتامندو (Dittamondo) الفردوس كما تخيله المسلمون، منوهاً بكتاب المعراج في قوله :

« ولكنه في كتابه (أي كتاب النبي محمد ﷺ) الذي يدعى المعراج يسرد ترتيب طعام الطوباويين •

ويتحدث عن كل تفاحة (أي كل ثمرة من ثمار الفردوس) ••• » •

ويعود الفضل في لفت الانتباه الى هذا المقطع البالغ الأهمية والمؤلف من أبيات ثلاثة الى شيرولي • ترى أي ثمن كان يدفعه آسين لهذا المقطع !

وهكذا تكون السلسلة قد اكتملت • لقد كانت أوربة الغرب أو بتعبير أدق ايطالية القرن الرابع عشر تمتلك نصوصاً موفورة مفصلة، تمتاز بأمانة النقل ، عن نظرة الاسلام للعالم الآخر ، نصوصاً يستطيع أياً شاء أن يقرآها بالاسبانية أو الفرنسية أو اللاتينية دونما حاجة الى معرفة كلمة واحدة من اللغة العربية • وما من شك في أن « فازيو » قرآها ، وقد أثبت ما قرأه في قصيدته التي لا تعد من الشعر الرفيع ، وهي قصيدة فيها مزيج من الأساطير التاريخية الكونية ، يشهد موضوعها عليها بانها تقليد لشعر دانتي • ونحن لو افترضنا أن مواطن فازيو وأستاذه العظيم لم يقتبس عن كتاب المعراج اقتباساً كبيراً فهل نستطيع أن ننفي الاحتمال بأن دانتي قد رأى كتاب المعراج ؟ وهو احتمال يوحي به تطابق مادة الموضوع، والتماثل في نواح كثيرة محددة ، ووسيلة الانتقال التي ثبتت تأريخياً• ان التعصب القومي الثقافي ــ أو كما أوثر أن أفسر هذا التعصب بقولي التبلد الذهني المقرون بالخجل والافتقار الى دليل ايجابي ــ لم يعد يقوى على انكار الافتراض الدال على الذكاء المتوقد الذي قدمه آسين قبل ثلاثين سنة وأمكن الآن اثباته بصورة رائعة ، وذلك من ناحية الحدس التي قام على أساسها •

غير أن اثبات حقيقة شيء ، وتقدير قيمتها والمكان اللائق بها ومدى أهميتها في مجموع هذه المادة شيء آخر • ترى كيف يمكننا أن نقدر قيمة الاحتمال الذي يكاد يكون الآن حقيقة واقعة مؤكدة ، وهو أن هذه الخلاصة (Summa) عن فلسفة الحشر الاسلامية لم تكن مجهولة لدى مؤلف الكوميديا الالهية؟ وأي الاستنتاجات يمكن التوصل اليها من هذه المقارنة التي سبق أن أجراها في جوهرها آسين (ما دام ثابتاً أن معظم عناصر كتاب المعراج هذا كانت موجودة في المواد العربية الأخرى التي جمعها ودرسها) ؟ أي الاستنتاجات المنصفة يمكن التوصل اليها من مقارنة المصدر الشرقي بقصيدة دانتي ؟ وأود أن أكرر قولي ان اعتبارات الفن الشعري البحتة لا مكان لها هنا، ولكن هنالك مشكلة كاملة من أوجه الشبه السيكولوجية والمعنوية والثقافية التي لا تعتبر المقارنة معها مشروعة فحسب بل ملائمة

وواجبة • واذا كان البحث فيما إقتبسه دانتي من هذه النماذج وكيف اقتبسه عنها غير ذي اهميه للحكم على دانتي بصفة كونه شاعراً ،فانه عظيم الأهمية لايضاح المصدر الفكري لمعتقداته ، والموقف الديني الأساسي لروحه وطرائق انتقائه ودمجه هذه العناصر الأجنبية في ثقافته المتاهبة للاستيعاب ، أو بعبارة أخرى: ما هو مدى وما هي حدود هذا الاتصال بين فلسفة الحشر والنشر الاسلامية وبين« مضمون » ـ وهنا استعمل الكلمة بمعناها المالوف في فن الشعر ـ رؤيا دانتي ؟ أية تأثيرات محددة أثارها هذا الاتصال في تكوين القصيدة الملهمة ؟ وهل يستطيع المرء أن يتحدث عن اقتباس مباشر مادي يكاد يكون اليا ، وعن اوجه التقابل في المفاهيم ، ان لم يكن في الفن الشعري ، او أن يتحدث عن الاثر المتغلغل ، ان لم يكن المستبعد سواه ، للرؤيا العربية السابقة ، في رؤيا الشاعر الايطالي •

ان هذه الناحية لأكثر عمقاً ودقة ، من نواحي القصيدة ، استاثرت باهتمام عالم واحد فقط من العالمين اللذين فسّرا كتاب المعراج ، اما بالنسبة الى العالم الآخر مونوز (Munoz) فالعلاقة بين الكتاب المذكور والكوميديا لا تعدو علاقة الأنموذج بالتقليد ، التقليد الذي عملت فيه بطبيعة الحال يد التحسين والتجميل ، وأضفت عليه صفة البهاء الروحي ، ولكنه على اي حال تقليد مباشر لا لبس فيه ، وما كان ليخطر ببال لولا وجود السابقه الأولى • وبعبارة أخرى ان وجود كتاب المعراج ، وثبوت انتقاله الى عالم دانتي ، هما دليلان كافيان لأن يثبتا بصورة آلية الاعتماد المباشر للاحق على السابق في السلسلة الطويلة من أوجه التماثل التي أوردها آسين ،وهي أوجه التماثل في اسلوب التاليف وفي الفكر الأخلاقية واللاهوتية وفي الصور ورواية الحوادث ، وذلك من اسلوب تصميم الأقسام الثلاثة للعالم الآخر ، الى أسلوب العقاب ، الى مباهج الفردوس الأرضي ، الى الرؤى التي تبهر الأبصار في الفردوس السماوي • ويرى مونوز ان سلسلة آسين القائمة على أساس أوجه الشبه واعتماد حلقة على أخرى ، لا تقبل النقض أو الجدل، وكل ما ينقصها هو البرهان على وسيلة النقل التاريخية • ولما كنا قد وجدنا الآن هذه الحلقة في كتاب المعراج ، فقد انتهى الأمر وصار كل عنصر من عناصر الرؤى الاسلامية ، مهما غمض الشبه بينه وبين رؤيا دانتي ، يؤلف رابطة مباشرة بين الأصل والتقليد ، أو بين الأصل والفرع ، بل قُل رابطة بين السبب والأثر • وفي هذه الحال فالكوميديا الالهية يجب أن تذكرنا في الحقيقة بجامع قرطبة العظيم الذي كُيِّفت أعمدته الشرقية المراكشية بما يتلاءم هو ومذهب التثليث المسيحي •

أما شيرولي فانه يبدي حساً تاريخياً أكثر حذراً (ولا ريب أنه لا يضمر أي تحيز قومي)؛ وهو لا يرى أن قيام الدليل على معرفة ايطاليا للكتب التي تبحث فلسفة الحشر والنشر الاسلامية ، واحتمال اطلاع دانتي على هذه الكتب ، يكفيان في حد ذاتهما ليضعا بين ايدينا الدليل على شاعرية دانتي وروحانيته ومقدار ابداعه • وهو لا يتطرق الى مشكلة « دانتي والاسلام » بالذات الا في نهاية بحث كامل رائع حول « فلسفة الحشر والنشر الاسلامية وكتّاب الغرب في القرون الوسطى » ، وهو بحث جمع فيه شيرولي وحلل كل أثر من آثار معرفة كتّاب الغرب المسيحيين للفكرة الاسلامية عن العالم الآخر ، حتى ما كان منها مستقلاً عن كتاب المعراج : فمن مؤلفات بولوجيوس والفاروس القرطبيين ، الى بترو الفونسو ،

الى مجموعة طليطلة (Collectio Toletana) ، ومن غوغلميو دالفارينا الى جان دوفيرتي وغوغلميو الطرابلسي ، ومن رامون مارتي الى لولو (Lullo) ، ومن توماس يورن الى روجر بيكن • وتبرز من هذا البحث صورة كاملة مدهشة تجمع بين ما كتب من طراز الدفاع الركيك الشعبي عن العقيدة المسيحية ، وما في ذلك من مبالغة وتهويل شديدين بالنواحي الدنيوية والحسية للفردوس كما يصوره القرآن (ونلاحظ هنا أنه من وجهة النظر المسيحية فان مهاجمة الفكرة الاسلامية عن جهنم أشق كثيراً من مهاجمة فكرة الفردوس) ، وبين المحاولات الفلسفية ، التي اضطربت بتأثير قوة الفكر الاسلامي ولكنها لم تكن تجهله ، لاضفاء الصبغة الروحانية على عقوبات العالم الآخر ومباهجه وللتوفيق بين استقامة الرأي في العقيدة الدينية وتقرير فكرة سامية عن العالم الآخر • وقد بلغت مدرسة اكسفورد الغاية في مجال التفسير المسيحي للفكر الاسلامي في القرون الوسطى ، فقد درست هذه المدرسة بدقة متناهية نضال ابن سينا وابن رشد لوضع الغبطة الفلسفية المدركة الى جانب النواحي الأخرى من فلسفة الحشر والنشر الاسلامية في القرآن ، كما بلغ هذه الغاية بطبيعة الحال ريموندو لولو ، المفسّر الكبير للعالم الاسلامي الذي عاش في القرن الثالث عشر واستقى معرفته من المناهل الأصلية الأساسية ، فاستطاع أن يقدم لمعاصريه أصدق وأكمل صورة للفكر الاسلامي وبصورة خاصة لفلسفة الحشر والنشر العربية الاسلامية •

ولكن دعنا نهبط من هذا البحث العام الواسع الذي يدلل على القيمة الفريدة الفذة لدراسة شيرولي لنعود الى دراسة العلاقة المباشرة بين دانتي والاسلام تمهيداً لتقدير أثر كتاب المعراج في الكوميديا الالهية تقديراً واقعياً • فنحن اذا درسنا مجمل معرفة دانتي بالديانة والعلوم والحضارة الاسلامية نصل الى نتائج أبسط كثيراً • فمن الوجهة التاريخية ليست هناك أهمية كبرى للأبيات المتعلقة بالنبي محمد (ﷺ) في المقطع الثامن والعشرين من قصيدة الجحيم ، اذ لا تتبدل فيها الصورة التقليدية التي كان يعزوها الغرب للنبي العربي في القرون الوسطى ، وقلما نجد في مؤلفات دانتي العقائدية مقتبسات عن مؤلفين مسلمين امثال الفلكيين الذين عرفهم الغرب بأسماء : البوماسار (Albumasar) والفراغانو (Alfragano) والبتراغيو (Alpetragio) والفلاسفة ابن سينا وابن رشد ؛ واذا وجدت هذه المقتبسات فانما تكون قد أخذت بطريقة غير مباشرة عن البرتوس مانيوس (Albertus Magnus) وسان توماس : وعلى أي حال فالمؤلفات الاسلامية لم تكن متوفرة لدانتي الا بالنص اللاتيني • وخلاصة القول اننا نجد أنفسنا مضطرين ازاء هذا كله الى انكار وجود ذلك الاطلاع الخاص على العالم العربي الاسلامي والاهتمام الخاص به الذي يلحظه البعض في مؤلفات دانتي • ويبدو لنا أن معرفته بالعالم العربي الاسلامي لا تزيد على معرفة أي رجل واسع الاطلاع في عصره • ومع ذلك وبالنظر الى أن دانتي كان العالم الكبير والمفكر المتسع الثقافة (Clerk, Scholar) فان بعض الفكر الاسلامية الفلسفية والأخلاقية ـ وخاصة المتعلق منها بفلسفة الحشر الاسلامية ـ قد تسربت الى شاعرنا بمعزل عن كتاب المعراج وعن غير طريقه : مثال ذلك نظرية ابن سينا وتعابيره عن النور ، المشار اليها اشارة صريحة في كتاب (Convitio) والمقطع الوارد في كتاب مجموعة طليطلة

(Collectio Tolenta) والذي يتحدث عـن بقعةفوق حاجب الروح القادمة حديثـاً ، تزيلها الملائكة لدى دخولها الفردوس ، مما يعيد الىذاكرتنا في الحال علامات الخطيئة السبع التي تمحى عـن حاجب دانتي تدريجياً في اثنـاءصعوده شعاب المطهر ، وبهذا نصل أخيراً الى كتاب المعراج ، ومن المرجح أن يكون دانتي قداطلع عليه ، فالى أي حـد كان الكتاب مصدر إلهام عام له ، وأي أثر خاص كان له فيـه ؟

لقد أجاب شيرولي عن هذا السؤال اجابةتميزت بمنتهى الحكمـة وذلك مراعاة منـه لا لمؤيدي دانتي بل للحقيقة ذاتها ٠ فهو يظنأن قراءة الرؤيا الاسلامية يمكن أن تكون عند دانتي أحد الحوافز الخارجية التي حفزته الىمعارضة ما كان يُفترض أنه كتاب مقدس في الاسلام (لأن هـذا ما كان يعتقـده الغرب فيكتاب المعراج) ، بقصيدة مسيحية عن « رحلة الى الاخرة تسمو بصدق العقيدة والحذقالفني في معالجة أعظم مواضيع الملاحم الدينية ، على الصور الرائعة التيربطها الاسلام، بالفردوسوالجحيم » ، بدون أن ننسى لحظـة واحـدة الدور الاولي الذي تلعبـه في اصل القصيدةفكـرة الحيـاة الجديـدة (Vita Nuova) أو بالاحرى الحيـاة الجديدة نفسها والحيـاةالمتقمصة المنقولة ، والرغبـة في أن يقـول في ملهمته بياتريس « ما لم يُقل في أحـد مـنقبل » ٠ وفي نطاق هـذا التأثير العام نستطيع أن نعزو الى السابقة الاسلامية فكـرة الدليلالصابر الكريم، مفسّر جميع الأسئلةوالشكوك (ويقوم بهذا الدور فرجيل وبياتريس مـعدانتي وجبريل مـع محمد) ، كـذلك المسائل الدقيقة الكثيرة المتصلة بعلم الكون ، واللونالمحلي الخاص لأقوال إله الجحيم بلوتو ونمرود أو نمبروتي تلك الاقوال الغريبة التي تعيـدالى الذاكرة بعض العبارات العربية الواردة في النصوص اللاتينية لكتاب المعراج ٠ ولكـندعنا الآن نواجه السيل الدافق من المتشابهات بين دانتي وكتاب المعراج ٠ ان شيرولي عندمايستعرض أكثر هـذه المتشابهـات اتصـالاً بموضوع البحث لا يغيب عنه أن يؤكد أهميةكـل منها ، ليس على حـدة وانفصال ، بـل كجزء متحد بالمصادر الأخرى العديدة للالهامالتي كانت قريبـة المنـال لدانتي ومألوفـة بالنسبة الى ثقافته وخياله : ومنهـا المصادرالكلاسيكية الاغريقية اللاتينيـة ، والتـوراة والانجيل والمصادر المسيحية ، وهي مصـادرساهمت في تكوينه الروحي (ذلك لأن أي اطلاع خاص مـن قبلـه على أمور العـالم العربيالاسلامي هو ، كما رأينـا ، مجرد افتراض ووهم) ، تلك المصادر التي كـان بالامكان فيكثيـر مـن الأحيان أن توفر لدانتي الالهام نفسه الذي يوفره له كتـاب المعراج لتزويدهبتفاصيل رؤياه ٠ وهـذه هي الحال مـع نسر جوبتر الذي صوّره دانتي، حيث يمكن توحيدالمصادر الكلاسيكية ومصادر التوراة المعروفة ودمجهـا بالصورة الاسلامية للمَلَـك الذييتخـذ شكل ديـك كبيـر ويقف على الأرض السابعة ، ولكنه يرفع رأسه عالياً حتى يدانيعرش الاله وينشد مسبحاً بحمده ومجده(٤) ٠ وكذلك فمن الواضح أن السلّم الالهي الذييستخدمه الالـه (Saturn) ، ذلـك المرتقى الذهبي اللون ، فقـد استوحي في المقام الأولمـن سلّم يعقوب الوارد ذكره في التـوراة ، ولكن هـذا لا يستبعد الالهـام الجزئي مـنمعراج محمد الممتد من القدس الى الفردوس الذي أعطى كتاب المعراج اسمه ٠ وهكذا فيمايتعلـق بالمحاكمة على الجسر الدقيق المسمى بالسراط ، القائم أمام الفردوس ومـن تحتهالجحيم تفغر فاها ، فهي تبدو في نظر شيرولي

مماثلة للمحاكمة بالنار التي يتعرض لها دانتي لبلوغ الفردوس الأرضي، هذا الفردوس الذي تبدو الدوافع الاسلاميه لوصفه وصفاً أقرب الى الحس وأكثر ايحاءً ، رغم أنه ينبغي أن لا ننسى الدور الذي تلعبه في هذا الايحاء أساطير التوراة عن جنة عدن ، والأسطورة الكلاسيكية عن حالة البشرية البدائية البريئة المباركة التي يشير اليها دانتي بقوله :

لعل الذين أعلنوا في غابر الأزمنة في أناشيدهم
قيام العصر الذهبي والرغد الذي يسوده
انما حلموا بذلك المكان على جبل «بارناسوس»

ان دانتي نفسه ليلفت انتباهنا في هذه الابيات من الشعر الى الصور السامية التي كانت تسبح امام خياله السامي عندما أبدع بمقاطعه الشعرية التلاثية الخالدة الغايه الالهية كتيمه ونابضه بالحياة : ومع ذلك فالمرء لا يستطيع ان ينكر انكاراً تاماً ما حصل عليه شاعرنا من الهام في عمله الابداعي من ذكريات (فردوس المباهج) ، في كتاب المعراج وما فيه من ملذات هادئه ، لكنها صبيانيه ، وينبوع مزدوج يتحول في قصيدة دانتي الى نهري « ليث » و « يونوي » ، وحادث وصول زمرة جديدة من أرواح البشر والعرائس اللاتي كن في انتظار هذه الارواح بحب وشغف • ولكن حتى في هذه الحالة فان امكانية وجود العنصر الاسلامي متحداً بعناصر اخرى كثيرة ، أعظم منه حيوية ورضوحاً في ذهن الشاعر ، أمر يجب ان لا يبالغ فيه الى حد يتعارض مع ما يمليه العقل أو يتعدى حد الاحتمال ، ويجب تبعاً لذلك ان لا يطلب الينا اعتباره مصدراً رئيسياً وموجهاً للالهام • واننا لنتساءل : ترى هل كان على دانتي أن يقرأ في كتاب المعراج عن حور محمد ليحلم أنه رأى من جديد في مجد الفردوس الأرضي بياتريس ، تلك التي كانت أسمى تجربة روحية في شبابه والنجم القطبي لحياته ؟ وهكذا يمر شيرولي مراً سريعاً خفيفاً بهذا الخضم الواسع من المتشابهات ، (لا بسبب السطحية ، بل لدقة وروعة المعالجة) مختبراً كلاً منها ازاء مبدئه الاساسي ، وهو ما نردده هنا مرة أخرى ، الاعتراف باحتمال امتزاج الدافع الاسلامي مع عدد كبير من المصادر الأخرى التي كان لها دوماً المكان الأول في ذهن دانتي وروحه ، حتى ولو أنه من الثابت تقريباً أن دانتي اطلع على كتاب المعراج ، ذلك النص الوحيد الذي فتح أمامه الباب المؤدي الى عالم آخر ، لولا ذلك لبقي غريباً عن روحه ، وغريباً عن القيم الاساسية لنفسه اللاتينية المسيحية ومناقضاً لها •

وهكذا فاننا عندما نحكم ، في تحليلنا النهائي ، على الصلة القائمة بين دانتي وكتاب المعراج أو اي عنصر آخر من عناصر فلسفة الحشر والنشر الاسلامية يمكن أن يكون قد اتصل بالشاعر بوسيلة من الوسائل [وهنا أفكر بصورة خاصة بالمواضيع الجدلية لمجموعة طليطلة (Callectio Toletana)] يجب أن لا ننسى ما يجزم به شيرولي في صفحاته الأخيرة التي تمتاز بروعة خاصة ، ألا وهو أنّ دوافع الالهام والتفاصيل الروائية التي يمكن ارجاعها الى مصادر عربية قد دخلت الكوميديا كجزء من بناء أوحى به كله مصدر آخر ، مختلف عنه ، ولكنه مثالي وفريد في نوعه ، الا وهو المصدر المسيحي • ويوضح لنا شيرولي

من هذا الاختلاف الأساسي في الروح ، هـذاالاختلاف الذي يتميز تقريره والاعتراف بـه بما كان لبيضة كولمبس مـن طبيعة الوضوحالكامل والفعالية في حـل المشاكـل ، ناحيـة واحـدة فقط نجملهـا في الأمور التـاليـة :الأهمية المطلقـة للايمان في عقيـدة الخلاص الاسلاميـة والأعمال كوسيلة للخـلاص عنـددانتي وفي المسيحيـة ، وتقرير أهميـة البـر والمحبة في العقيدة المسيحية كنقيض لمشيئة اللهالتعسفية(٥) التي لا تقبل الجدل أو الاعتراض في الاسلام ، واختلاف قيمة الصلاة بين الطقوسالاسلامية الالزامية المضنية(٦) من جهة وقوة المحبة الحية التي تفعل فعلها مع العدالة الالهيةفي الصلاة المسيحية · فليس باستطاعتنا اذن أن نتحدث عن انموذج وتقليد، حتى ولو سلمناباحتمال الانتقال المادي لصور وفكر معينة ، ولا عن مجرد اضفاء الصبغة الروحية في حـينيختلف الالهـام الأساسي والموقف الأسـاسي اختلافاً جذرياً · ولذلك فان المحرر الايطاليلكتاب المعراج يستنتج أن القصيدة المقدسـة لا يمكن مقارنتها بجامع قرطبة ، المكرّس الآنلمذهب يختلف عـن المذهب الذي أنشيء هـذا البناء الرائع في سبيله ، ولكن لكي نقدم مثالاًهندسياً أكثر ملاءمة لعلاقـة دانتي بالعـالم العربي ، يجدر بنـا أن نلجأ الى ذلك العمودالعربي الاسباني ، المنقوش عليه اسم صانعه المسلم والقائم في بناء مسيحي خالص ، مـنالوجهتـين التاريخيـة والفنيـة وفي مجموعه وجميع تفاصيله ، ونعني به كاتدرائية بيزا ،حيث ما زال العمود المذكور يشهد بفن مجيد آخر بعد أن آخـذ عرضاً ونتيجة لحادث معينخاص واستخدم في اعطاء شكل رسمي ظاهري لمثـل أعلى يختلف عنـه في الناحية الدينية ،والشكل الظاهري ·

ان أحدث دراسة شاملة للمشكلة القديمةالتي أثارها آسين لأول مرة وأعيدت دراستها الآن على ضـوء أحـدث اكتشاف في الموضوعيؤدي بنـا الى النقطة التاليـة : وهي كمـا أسلفنا أن العالمين اللذين ترجما كتاب المعراجهما أبعـد ما يكونان عـن الاتفاق في النتائج التي توصـلا اليهـا وفي أسلوب استخدامهمـاالترجمتيهما · أما تقرير أيّ الاثنين يجب أن نتبع في موقفه واتجاهه (ويبدو من نافلة القولأن أذكر هنا أياً مـن المترجمين الاثنين يعتبره كاتب هـذه الأسطر مصيباً) فهذا يتوقف علىادراك الناقد الفرد وحاسة الحكم الصحيح على الأمور عنـده ، معززين ، كما يجوز لنـا أننضيف ، بالاطلاع المباشر على انتاج دانتي تفكيره وفنه ، وهو اطلاع كان آسـين العظيميتمتع به ولا ريب ، بخلاف بعض الذين رجعوا الى كتابه · ولكننا نرى أنه ، حتى في نتائجهماالمتعارضة سار محررا المعراج الذي نقـل الى الغرب بفضل الملك الفونسو شوطاً كبيراً مـنالطريق مترافقَـين ، والحقيقة هي أن هـذا الجزء المشترك من الطريق الذي تكتنفه حقائقايجابية لا يشوبها أي خلاف في التفسير ، هو الذي يدلنا على مدى النصر الذي أحرزه آسين بعـد وفاتـه ·

ان أستاذ مدريد الذي وقف وحده في وجهعدم مبالاة الذين يأبون التصديق وعدائهم ، أكّد أن المعتقدات الاسلامية المتعلقة بفلسفةالحشر والنشر والتي جمعها وحلّلها وانتقاها من أكثر مجالات الأدب العربي تباعداً ــ التقليدي منها واللاهوتي ، والصوفي والتهذيبي ، والعلمي والشعبي ــ لم تكـن تلك المعتقداتتختفي وراء ستار حـديـدي قوامـه اللغـة والحضارة عـن عالم الغرب اللاتيني وحبـهللفضول والاستطلاع · وقـد تتبع آسين الى

أبعد الحدود المعروفة آنذاك وأقصاها تسرب هذا التراث الشرقي الى العالم اللاتيني ، وبعد أن سدَّ بدافع من الايمان الحدسي جميع الفجوات التي واجهته رأى هذا التراث يزدهر في كثير من الأحيان بمماثلات ومشابهات مدهشة في (ملحمة دانتي الملهمة)، وهي أعظم ما وصل اليه الانتاج الفني للعصور الوسطى المسيحية . وبدا هذا التسرب الذي تتبعه آسين مماثلاً لمجرى الفيوس الأسطوري ، اذ اختفى في أعماق أرض اسبانيا ليظهر مجدداً في ايطاليا بعد انقضاء فترة من الزمن وقد اكتسب شكلاً خالداً في شعر دانتي . وكان يكتنف مجرى هذا الجدول في باطنه غموض شديد زاد فيه أن المرء لم يكن ليعرف أي المصادر المتعددة التي استقصاها آسين هو الذي وصل بالطريق المجهولة الى الهدف غير المرتقب . أما الآن فقد اتضحت المشكلة وتبسطت في آن واحد . فتلك النصوص العميقة الغور وغير المترجمة من الأدب العربي العالي ، كمؤلفات أبي العلاء المعري وابن عربي وما ماثلها لم تسترع انتباه دانتي بطريق مباشرة ؛ ولكنه من المحتمل أن يكون انتاج من الأدب العربي الشعبي ، تلذ مطالعته وله طابع تهذيبي، قد وصل الى دانتي ووقع تحت بصره وعينيه ؛ ذلك لأنه من المؤكد أن ذلك الانتاج (وهو كتاب المعراج) قد وصل الى البيئة التي كان يعيش فيها دانتي وانتشر في الجو الثقافي الذي كان يستنشق هواءه ،وهو أمر ثبت لدينا بعد نشر ترجمات الكتاب اللاتينية التي سبق لنا ذكرها ، والتي يرجع الفضل في وجودها الأول الى ما تحلى به ملك اسبانيا الفونسو من حب استطلاع مبدع خلاق . وبهذه الوسائل ، وربما بها وحدها ، نستطيع أن نتحدث عن اتصال مباشر ، لولا ذلك ما كان ليخطر ببال ، بين ثقافة دانتي (وأعني بها ثقافة الشاعر وثقافة مجتمعه) وبين المجموعة العظيمة من المواد العربية التي جمعها آسين ، تلك المجموعة التي كان اتساعها وتنوعها عائقاً في طريق قبول نظريته . وخلاصة القول فقد ثبت الآن وجود هذا الاتصال غير المباشر بصورة واضحة المعالم . والى هذا الحد وبموجب هذه الشروط ، يبدو حدس آسين لنا جميعاً في الوقت الحاضر ثابتاً ساطع النور . أما اذا تعدينا هذا الحد فسنجد آراء متعددة مختلفة فيما يتعلق بكيفية تفسير المختصين بدراسة دانتي للحقائق التي تم اثباتها ؛ وكما رأينا ، فهنالك من يرى أن الاتصال الذي تم ايضاح طريقه ، يثبت الدور الرئيسي الحاسم الذي يقول آسين ان فلسفة الحشر والنشر الاسلامية قد لعبته في خلق أعظم قصيدة مسيحية . ولكن هنالك من جهة أخرى أولئك الذين ، بنتيجة التمحيص والتدقيق والمقارنة الماهرة ، يعترفون بوجود إقتراحات وايحاءات ، طابعها التعميم ، وصور ودوافع رافدة ، طابعها التخصيص ، دخلت جميعاً في روحانية وثقافة وخيال ، ليست سامية ومتفوقة فحسب ، بل ومختلفة عن تلك الاقتراحات والدوافع والصور اختلافاً تاماً جذرياً .

ومهما يكن من شيء فلنقبل الأمور التي نتفق حولها بدلاً من التشبث بالأمور التي نختلف عليها . ولنرحب باكتشاف هذه القطعة الجديدة من شبكة الثقافة الدولية للقرون الوسطى ، تلك الشبكة التي تميزت بالمتانة والصلابة والمرونة ولم تعرف الأستار الحديدية (وهذا القول يخجلنا ويبعث على الاضطراب عندنا نحن أبناء هذا العصر)، بل اجتازت أبعد المسافات وأعظم الحواجز المادية والروحية (بفضل التعاون بين القوى الفكرية) مما تحسدها عليه منظمة اليونسكو في يومنا هذا ،وذلك بعد أن سلطت على القطعة المذكورة

أنوار انبعثت عن مجهود قام به في آن واحد عالمان أحدهما اسباني والثاني ايطالي ·
ولنفكر مرة أخرى هنيهة من الزمن في هذه السلسلة السحرية : كتاب المعراج العربي ، ملك اسبانيا ، طبيب يهودي ، ومسجل عقود ايطالي · · · ، وفي الصور الخيالية للآخرة التي ازدهرت بصورة غامضة في قلب شبه جزيرة العرب ، وقد أحاطت بالبحر الأبيض المتوسط ونفذت الى لغة تسكانية العذبة ووصلت أرض فلورنسة فأسهمت في اخصاب التربة التي أنتجت زهرة الكوميديا الالهية السامية ، هذه القصيدة المقدسة التي أحاطتها يد الأرض والسماء ، ونكرر القول هنا أننا نقصد أرض الحضارة المسيحية وسماءها ، ولكنها سماء لا تخلو من انعكاسات من السماء المرصّعة بالنجوم ، التي حلّق فيها البراق المجهول الغامض في ليلة الاسراء المقدسة عند المسلمين ، ومن أرض الاسلام وخاصةً أرض اسبانيا حيث التقت حضارتان وتمازجتا في اتحاد عجيب ، وحيث أدرك بالحدس القوي النفاذ ، عالم محب للعزلة ، قبل خمس وثلاثين سنة ، انتقالاً أدبياً رائعاً ، ثبت وجوده الآن بالوثائق المحسوسة القاطعة ·

* * *

□ الحواشي :

(*) بحث للمستشرق الايطالي « فرانسسكو غابريلي » القاه في مدرج جامعة دمشق وترجمه الأستاذ الدكتور موسى الغوري ، ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق · ونحن نعيد نشره لاهميته ولجلاء هذا الجانب الغامض ·

١ ـ هذا لم يصح رواية ولا دراية · (لجنة المجلة)

٢ ـ انما فرض الصوم في السنة الثانية من الهجرة ، فبينه وبين فريضة الصلاة خمس سنوات · (لجنة المجلة)

٣ ـ ولد عبد الله بن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة (أي عام الاسراء والمعراج) كما في « الاصابة » وغيرها · (لجنة المجلة)

٤ ـ ليس في الاسلام نص في هذا · (لجنة المجلة)

٥ ـ ليس في الاسلام مشيئة تعسفية ، ولا اكراه ولا الزام ، بل في القرآن الكريم « لا اكراه في الدين » وفيه « لكم دينكم ولي دين » · (لجنة المجلة)

٦ ـ ليس في العبادة الاسلامية طقوس · والصلاة المفروضة لا تحتمل أكثر من خمس دقائق ، وأما القداس الكنسي ففيه طقوس وأزياء مختلفة معروفة · (لجنة المجلة)

* * *

اللاذقيّة
من خلال صحافتها القديمة

خالد الشريقي

أول ظهور للصحف بعد اختراع الطباعة، كان في أواخر القرن السادس عشر في أوربة ، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذت الصحافة الدورية تنتشر في أوروبة وأمريكا ، وبدأت الصحافة تتخذ مهنة صحفية حقة .

في عام ١٧٠٢ ، ظهرت في لندن أول صحيفة يومية في العالم ، وفي عام ١٧٨٨ تأسست صحيفة التايمز الشهيرة ، وكانت الثورة الفرنسية حافزاً لظهور الصحافة الحديثة(١) .

أما مولد الصحافة في العالم العربي ، فقد اقترن بحملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، فأصدرت الحملة البونابارتية جريدتين باللغة الفرنسية ، وفي عام ١٨٢٨ ، أصدر محمد علي جريدة الوقائع المصرية(٢)، وكانت بعض أعدادها تصل الى البلاد الشامية ، وخاصة عن طريق الحملة المصرية على سورية بقيادة ابراهيم(٣) بن محمد علي والي مصر ، ثم صدرت الأهرام عام ١٨٧٥(٤) ، بعدها مجلة الهلال عام ١٨٩٢(٥).

في عام ١٨٥١ ، صدرت في بيروت مجلة (مجموع فوائد) ، تبعتها في عام ١٨٥٢ مجلة أعمال الجمعية السورية ، ثم صدرت في بيروت عام ١٨٥٨ أول جريدة سياسية أسبوعية (حديقة الأخبار)(٦) ، وكان رزق الله حسون قد أصدر من قبل في استنبول أول جريدة عربية خارج الوطن العربي هي (مرآة الأحوال العربية) عام ١٨٥٥(٧) .

أما أول صحيفة ظهرت في دمشق فهي (نفير سورية) عام ١٨٦٥ ، وكانت أسبوعية أدبية أصدرها والي سورية راشد باشا(٨) ، وفي عام ١٨٦٥ صدرت في حلب جريدة (غدير الفرات) ، وكانت أسبوعية أيضاً ، تهتم بنشر أخبار ولاية حلب(٩) ، ثم الشهباء(١٠) عام

١٨٧٨(١١) ، التي أصدرها عبدالرحمن الكواكبي، وعندما أغلقتها سلطات الاحتلال العثماني ، أصدر صحيفة (الاعتدال) ، وتعتبرهاتان الجريدتان المثال الأول للصحف الحرة الوطنية التيحاربت السلطان عبدالحميد(١٢) ٠

صحف اللاذقية في ظل الحكم العثماني :

بعد اعلان الدستور العثماني عام١٩٠٨، نشطت الصحافة السورية ، لأنها نعمت بحرية نسبية(١٣) في ظل الدستور ، فصدر في سوريةأكثر من مئة جريدة ومجلة حتى عام ١٩١٤ ، وفي اللاذقية صدرت الصحف الأسبوعية التاليةبعد اعلان الدستور العثماني مباشرة :

ـ جريدة « اللاذقية » عام ١٩٠٩	:	سعيد حسن سعيد
ـ جريدة « المنتخب » عام ١٩١٠	:	ادوار مرقص
ـ جريدة « أبو نواس » عام ١٩١١	:	محمد صبحي عقدة

وكان محمد صبحي عقدة من المشاكسين الأشداء للحكم التركي ، فلم تستمر جريدته في الصدور غير بضعة أشهر فقط ، أغلقها الوالي التركي بعد ذلك مباشرة ، فسافر الى تركية(١٤) ، واستطاع اقناع السلطات التركية بالسماح له باصدار جريدة جديدة ، فسمحوا له بذلك ، وأصدر جريدة تحت اسم (عكاز أبي نواس) في العام التالي ١٩١٢ ، لكن شغب هذا المشاكس الشرس على الحكم التركي ،كان السبب في صدور الأمر العثماني بايقافها، الا أنه تمكن في العام التالي١٩١٣ من اصدارجريدة أخرى باسم (أبو نواس الجديد) ، ولم يكن حال هذه الجريدة أفضل من حال أخواتها،لأن الأمر العثماني صدر باغلاقها أيضاً ، واشترطوا عليه بعد أن أدركوا لعبته في اصراره على اسم (أبو نواس) ، بأنه اذا أراد اصدار صحيفة جديدة أن يغير اسمها نهائياً ، بحيث لا يمت الى أبي نواس بأية صلة ، فاستجاب لهم ، وأصدر في العام نفسه ١٩١٣ جريدةباسم (أبو فراس)(١٥) ، ومن الملاحظ أن كل هذه الأسماء تحوم حول أبي نواس ، لأن محمد صبحي عقدة ـ وكان يطلق عليه « أبو نواس » ـ يريد أن يؤكد من خلال ذلك أن جرائده هذه امتداد لأول جريدة أصدرها باسم (أبو نواس) ، وأنه لا يعترف بالسلطات التركية ، ولا يحفل بتعسفها ، وكانت كل جريدة جديدة تتبع الترقيم الذي انتهى اليه آخر عدد من الجريدة التي صدرت قبلها ٠ ثم أصدر فيما بعد في دمشق عام ١٩٢٣ جريدة (الحق العام)(١٦) ٠

وفي عام ١٩١٣ ، أصدر في اللاذقية سعيد حسن سعيد جريدة (العربية) ، كما أصدر عبدالحميد حداد جريدة (ما صنع الحداد) في عام ١٩١٦(١٧) ٠

وأنوه الى أن نشرة صحفية أدبية غير دورية ، كانت قد صدرت قبل ذلك في اللاذقية في حدود عام ١٨٩٨ ، تحت اسم (من مآثر لاذقية العرب) ، أصدرها الشيخ محمد سعيد صفية في مناسبات مختلفة ، دون أن يتقيد بمواعيد صدورها ، وقد اتخذت هذه النشرة شكل المجلة(١٨) ٠

في ظل الدستور العثماني الصادر عام ١٩٠٨ ، قفزت صحافة الولايات الخاضعة للحكم التركي قفزة واسعة ، بسبب الحماية الدستورية الموقتة التي تفيأت بظلها ، فازداد منح الامتيازات الصحفية بشكل عشوائي، دون دراسة امكانيات صاحب الجريدة طالب الامتياز ، وتتالت الصحف بغزارة في عموم الولايات ، واذا كان أحد الدارسين(١٩) يرى أن عدداً من أصحاب هذه الصحف في سورية كانوا من الدخلاء ، وأنهم تناولوا موضوعات ليست من الصحافة في شيء ، فان هذا الرأي لا ينطبق على أصحاب الصحف الصادرة في اللاذقية في ظل الدستور العثماني من أمثال: سعيد حسن سعيد ــ ادوار مرقص ــ محمد صبحي عقدة ــ عبد الحميد حداد .

يقول يوسف الحكيم في مذكراته(٢٠) عن سعيد حسن سعيد انه كان خطيباً في المحافل الشعبية في اللاذقية ، ولقب بالخطيب الشعبي لكثرة ما ألقاه من الخطب التي كانت تلهب حماس الجماهير . أما ادوار مرقص ، فهو كما هو معروف عنه ، الشاعر والكاتب والأديب(٢١) ، ومحمد صبحي عقدة ، الوطني المشاكس ، هو الذي جعل الفرنسيين يرتعشون وهم يمسكون مدافعهم ، عندما يقرؤون ما يكتبه(٢٢) ، كما أنه سجن بعد تعطيل صحفه لصلابته وعناده في مقاومة المستعمر دون أن يهادن أو يتنازل عن مبادئه الثورية . وأخيراً الشيخ عبدالحميد حداد المعروف في الأوساط الأدبية والاجتماعية في اللاذقية وغيرها .

ورغم أن الدستور العثماني قد أطلق الحريات في بادىء الأمر ، الا أنه سرعان ما ارتد على عقبه ، وفرض الرقابة الشديدة على الصحف السورية ، وأصدر القرارات التي تكبل الصحافة وتحد من حريتها(٢٣) الى أن انتهى بها الأمر الى توقفها نهائياً عن الصدور .

كانت الجرائد التي صدرت في اللاذقية في هذه الفترة أسبوعية ، وهي اما سياسية ، كجريدة اللاذقية والعربية والمنتخب، أو مزاحية (فكاهية انتقادية) ، كجريدة (ما صنع الحداد)، والجرائد النواسية المتتابعة ، وكانت هذه الجرائد تتخذ من الهزل والمزاح، ستاراً تحاول أن تصل من ورائه الى هدفها من التعرض للسلطات العثمانية والجهاز الاداري المسيطر، ليس هذا فحسب ، بل انها عمدت الى الكشف عن عيوب مجتمع اللاذقية الذي مزقه الاحتلال مشيرة الى موضع المرض فيه ، قال محمد صبحي عقدة في أحد أعداد جريدته متهكماً على من يدعي العلم والمعرفة وهو جاهل بهما :

اذا هبَّت رياح الخرطبيلِ ومِلء الناس من قال وقيلِ
تمسَّك ان ظفرتَ بذيل فيل تكون يداه كالباع الطويلِ
وخذ عنه المعارف والفوائد

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى أغلق الاتحاديون الصحف نهائياً

في ظـل الانتـداب الفرنسي :

لم تنعم اللاذقيـة بحرية العهـد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠ ، لأن جيوش الانتداب الفرنسي احتلت الساحل السوري عقب انسحاب الجيوش التركية منه مباشرة ، وقد صدرت في اللاذقية في هذه الفترة الصحف والمجلات التالية :

عام ١٩١٩ ـ جريدة النهضـة الجديدة : ادوار مرقص

عام ١٩٢١ ـ جريدة اللاذقيـة : عبدالحميد حداد وصبحي الطويـل
ـ جريدة الزهر : خليـل المجدلي (سفيه الشرق)
ـ جريدة المنـار : المطران آرسانيوس حـداد
ـ جريدة الصـدى : عابـد جمال الدين

عام ١٩٢٢ ـ جريدة النحلـة : مصبـاح شريتـح

عام ١٩٢٣ ـ مجلة العلوي : برهان الدين بيك مصري زاده
ـ النشـرة الشهرية للأعمـال القضائيـة

عام ١٩٢٤ ـ مجلة الأبحاث القضائية ومجلة النشرة الاقتصادية
ـ جريدة الاعتـدال(٢٤) محمد جميل شومان ثم جلال شومان ـ حررها فيما بعد فخري راعي وكمال شومان

عام ١٩٢٥ ـ مجلة النـور نصرالله طليـع وجـاد كومـين

عام ١٩٢٦ ـ دولـة العلويين : (جريـدة رسميـة)

عام ١٩٢٧ ـ جريدة صدى اللاذقية(٢٥) : عبدالحميـد حـداد
ـ مجلة التجدد (صافيتا) : أديب طيـارة

عام ١٩٢٨ ـ جريدة الأدهمية (جبلة) : فـارس كنـج

عام ١٩٢٩ ـ مجلة المرشد العربي : الشريف عبدالله الفضـل
ـ جريدة الرغائب : حكمت شريف ومحمد تحلوس

عام ١٩٣٠ ـ مجلة الأماني : ابراهيـم عثمـان
ـ جريدة الحكمـة : حسن جفمو وحكمت شريف

عام ١٩٣٢ ـ جريدة اللاذقيـة(٢٦) : محمود رباح حـداد
ـ جريدة الفلـق : خليـل ترت

عام ١٩٣٣ ـ جريدة لسان الشرق : محمد غالب سعيد
ـ جريدة الارشـاد : آمـين حكيـم
ـ صـدى بوقـا : (رسـمية)

عام ١٩٣٦ ــ جريدة العوامل	:	سليمان حكيم
ــ جريدة الصاعقة	:	وصفي حداد وأمين حكيم
ــ جريدة القانون الطبيعي	:	عبدالسلام جود
ــ جريدة الطبل	:	فايز شومان
ــ جريدة الغول	:	عبدالسلام جود
ــ جريدة الخبر	:	صبحي فرزات ثم محمد ريس
عام ١٩٣٧ ــ مجلة النهضة (طرطوس)	:	وجيه محيي‌الدين
عام ١٩٣٨ ــ جريدة الشاطىء السوري	:	وصفي وأمين حداد
ــ جريدة صوت الحق	:	عابد جمال‌الدين وعبداللطيف يونس
عام ١٩٤٤ ــ جريدة الوعي القومي	:	يحررها رياض رويحه
عام ١٩٤٦ ــ جريدة الجلاء(٢٧)	:	رياض رويحه
ــ مجلة القيثارة	:	محمد عباس وجماعة الشعر الجديد(٢٨)

لم يكن حال الصحافة في ظل الانتداب بأحسن منها خلال الحكم العثماني، فقد فرضت عليها رقابة صارمة ، كما صدرت عدة قوانين تحد من حريتها ، وتضع قيوداً عليها ، وكان الفرنسيون كما كان العثمانيون قبل ذلك ، يعطلون كل صحيفة تبث الروح الوطنية ، ويلاحقون أصحابها ، ويرمون بهم في السجون(٢٩) ، وبالرغم من الكبت وأساليب القمع والتهديد ، الا أن الصحافة السورية ، ومنها صحافة اللاذقية ، لم تهادن المستعمر ، ولم ترضخ له ، وان خشي البعض من هؤلاء الصحفيين بطش الحاكم الفرنسي، الأمر الذي جعلهم يتوجهون في نقدهم الى الحكام العرب الذين ينفذون سياسة المستعمر .

☐ ملاحظات على هامش صحافة ما قبل الاستقلال :

١ ــ الصحف الصادرة في اللاذقية في فترة الانتداب تعتبر امتداداً لما صدر قبلها أيام الاحتلال العثماني من حيث الأسلوب والاخراج والكتابة(٣٠) .

٢ ــ لم تلتزم الصحيفة عادة بما ورد في التعريف الذي أطلقه أصحابها عليها ، فقد يرد مثلاً أنها جريدة (هزلية جدية) ، أو (جدية هزلية) ، كجريدة لسان الشرق ، أو جريدة (سياسية انتقادية اقتصادية فكاهية هزلية) مثل جريدة (النحلة) ، أو جريدة (علمية أدبية اقتصادية تجارية زراعية) كجريدة الرغائب .

٣ ــ بعض هذه الجرائد كانت تنشر بالفصحى والعامية في كل عدد منها، كجريدتي الفلق ولسان الشرق ، وعدد قليل منها كان ينشر بالعربية ولغة الاحتلال معاً .

٤ ــ كانوا يخلطون بين الصحيفة والمجلة، وتصدر شهرية أو نصف شهرية ، ف(المنتخب) الصادرة أيام الاحتلال العثماني سماها صاحبها صحيفة علم وأدب وسياسة وفكاهة ، وقد صدرت في ستة عشرة صفحة من القطع الصغير بين غير غلاف ، مع أن كلمة مجلة وردت في افتتاحية أحد أعدادها .

٥ ـ جميع هذه الصحف كانت تصدر أسبوعية وبعضها يصدر مرتين في الأسبوع، وقد يتأخر موعد صدورها في كثير من المرات، فتتعرض للاغلاق(٣١).

٦ ـ الصحافة في العهدين الاستعماريين التركي والفرنسي كانت شخصية خاصة، فقد كان أصحابها ينفقون عليها من مالهم، دون أن يستطيعوا جمع ما صرفوه من بيعها أو الاشتراك فيها، وهذا ما أدى الى توقف الكثير منها عن الصدور، بسبب العجز المادي الذي لازم أصحابها.

٧ ـ قام عدد كبير من أصحاب هذه الصحف بتحريرها بأنفسهم، كما لجأ عدد آخر الى الاستعانة بمحررين، وكثيراً ما كان ينتقل تحرير الواحدة منها من شخص الى آخر خلال مدد قصيرة.

أما أسلوب تحرير معظم هذه الصحف، فكان يعتمد بالدرجة الأولى على قص ما تكتبه صحافة دمشق وارساله الى المطبعة لنشره، وهذا ما دعا جريدة الاعتدال الى نشر الخبر الطريف التالي في عددها ٦٤٨ تاريخ ١٩٤٦/٦/٢١: (اتفقت ادارة هذه الجريدة مع كاتبين كبيرين، أحدهما انكليزي، والآخر أميركي، للاشتراك في تحريرها، وقد وصلا ظهر أمس، الأول يدعى مستر شفرة حلاقة، والثاني مستر مقص جوخ، وذلك مجاراة للصحف اليومية التي تصدر في اللاذقية).

٨ ـ حجم الصحيفة يعود دائماً الى ميزانية صاحبها، فهي من أربع صفحات عندما يكون في بحبوحة، لكنها تنكمش الى صفحتين صغيرتين عندما يكون في أزمة مالية.

٩ ـ صدر عدد هائل من الجرائد في اللاذقية، يفوق ما صدر في غيرها من المدن السورية، ومرد ذلك يعود الى أحد الأسباب التالية:

- توقف الجريدة بأمر من السلطة لأسباب سياسية، أو لتعرضها لهذه السلطة.
- توقفها بسبب العجز المادي، أو عدم تقيد صاحبها بمواعيد صدورها.
- توقفها بسبب وفاة صاحبها، أو تنازله عنها لغيره.
- طلب صاحبها تغيير اسمها لأسباب شخصية.

وفي كل الأحوال، كان يصار الى طلب امتياز جديد، لاصدار جريدة أخرى مشابهة للأولى في الاسم، وامتداد لها، كما يبدأ ترقيمها بالعدد الذي يلي رقم آخر عدد من الجريدة التي توقفت، وقد نشرت احدى هذه الجرائد في ذلك الوقت حول هذا الموضوع الأبيات التالية:

كثرت عندنا الجرائد حتى ... أوشكت أن تقارب المليونا
وكثير يسعى لنيل امتياز ... فكأن الموجود لا يكفينا
لهف نفسي على الجريئة منها ... يخلقون الأسباب كي لا تكونا
عهدنا الله لن نقصّر يوماً ... سننادي بالحق لو شنقونا

١٠ ـ اهتمت صحافة هذه الفترة بالأخبار المحلية البحتة أيضاً ، وخاصة أخبار من كان يطلق عليهم (الوجهاء) .

١١ ـ لأن الأوضاع المالية لأصحاب هذه الجرائد كانت سيئة ، فقد كانوا يعتمدون في تمويلها على الاشتراكات دون أي مصدر آخر، كتب خليل مجدلي صاحب جريدة الزمر ، الذي أطلق على نفسه لقب (سفيه الشرق) ، الشعار التالي في رأس كل عدد من جريدته : « من قرأ جريدة الزمر ، أو سمعها، أو لمسها، أو نظر إليها عن بعدها ٥٠ كم ، يعد مشتركاً ، ويلزم الدفع حالاً » .

قيمة الاشتراك ـ الدرجة الأولى : عن المروءة .
ـ الدرجة الثانية : ثلاث ليرات .
ـ الدرجة الثالثة : الزعران والطفرانين وتقليد آكابر المفلسين : ممنوع اشتراكهم .

كما كان شعار جريدة الفلق : (من قبل عدداً وحداً عد مشتركاً، ويلزمه الدفع حالاً).
ومنذ صدور العدد الأول من جريدة الزمر عام ١٩٢١ ، أكد صاحبها على الأمر التالي :

فلا تلم الزمّر السفيه لنفخة اذا أنت في دفع الاشتراك ماطلت

ومع ذلك ، فقد كانت هذه الجريدة رصينة جادة ، تتكلم عن الاصلاح، وتدعو الى البناء ، كتب صاحبها عن سبب تسميته لها قائلاً : (وقد اخترنا لها اسم الزمر رمزاً الى أن هذه الأداة الموسيقية الشرقية تستخدم أحياناً بقصد إلفات الأذهان لأمر يراد اشهاره ، أو مشروع يراد ايقاف الناس عليه ، وأحياناً الحفلات الفرح والطرب ، نعم ، ان هذه الأداة شرقية ، وبما أننا في وسط شرقي ، والسواد الأعظم من الأهلين لا يزال متمسكاً بعاداته القديمة وتقاليده ، فاننا نتناول الزمر ونتكلم بفمه ، فنرجو أن يجتمع حول الزمر الجم الغفير من الناس كلما سمعوا صوته ، حتى يرفع رأسه افتخاراً بقومه) .

□ بعد الاستقلال :

تابعت بعض الصحف الصادرة في عهد الانتداب صدورها بعد الاستقلال ، اضافة الى الصحف السياسية الجديدة التالية :

صدى الاتحاد ٩٥١ ـ البلاد ٩٥٢ ـ وفي عام ٩٥٤ صدرت الجرائد: الساحل السوري ـ الاستقلال ـ الدفاع ـ النفير ـ ثم نداء البلاد وصدى الاتحاد في عام ٩٥٧ ، وكانت قد صدرت في عام ٩٥٠ مجلة المنبر التي تحولت الى مجلة الغد في عام ٩٥٣ .

ألغى الانقلاب الأول (حسني الزعيم) ، الكثير من الصحف السورية، وأبقى في اللاذقية على: الخبر ـ الاعتدال ـ الارشاد ـ الجلاء ـ اللاذقية ـ الشاطىء .

أما الانقلاب الثاني (الحناوي) ، فقد أعاد معظم الصحف المعطلة .

وفي عهد الشيشكلي ، فرض الدمج على الصحف ، فصدرت جريدة البلاد عام ٩٥٢ نتيجة دمج جريدتي الخبر وصدى الاتحاد ،لكن هذه التجربة لم تعمر ، اذ عادت الصحف الى الصدور • وبعد الشيشكلي ، أعيد العمل بالقوانين الصحفية التي كانت سائدة قبله ، وتوفر للصحافة نوع من الحرية ، فأصبحت جادة ، تنادي بالوحدة العربية ، والعمل القومي •

في ظل الوحدة ، صدر القانون ١٩٥ لعام ٩٥٨ ، الذي يجيز لأصحاب الصحف التنازل عن امتيازات اصدار صحفهم لقاء تعويض مادي تقدره لجنة خاصة ، وعلى الصحيفة التي تريد الاستمرار في الصدور أن تضع في حسبانها أنها لن تتلقى أية مساعدة مالية من الدولة(٣٢).

ويعتبر هذا القانون الخطوة الأولى من أجل وضع الصحافة السورية تحت اشراف الدولة ، ولأن هذه الصحف كانت تعاني من الضيق المادي ، فقد رأى أصحابها في هذا القانون كسباً مادياً لهم ، وتم التنازل في اللاذقية عن الصحف التالية لقاء تعويض مادي: نداء البلاد ــ الاستقلال ــ الشاطىء السوري ــ الارشاد ــ الساحل السوري ــ الدفاع ــ اللاذقية ــ البلاد •

أما الحكم الانفصالي ، فقد رفع الحجر عن الصحف المتوقفة ، وسمح لها بالصدور ، على أن تسترد الدولة ما قبضه أصحابها من تعويضات لقاء تنازلهم عنها ، وأن يتم ذلك على أقساط سنوية ، فصدر عدد من الصحف التي كانت متوقفة : الاستقلال ــ الساحل السوري ــ الدفاع ــ البلاد ــ الشاطىء السوري •

وبعد ثورة ٨ آذار ، توقفت جميع هذه الصحف ، اثر صدور بلاغ يقضي بذلك ، وقامت مؤسسة الوحدة ، وأصبحت الصحف تتبع الدولة ، وصدرت بعض المجلات التي لم تعمر طويلاً ، منها : صدى الجامعة ٩٧٨ ــ مجلة جامعة تشرين ٩٧٨ ــ الطليعة العمالية عن اتحاد عمال محافظة اللاذقية ، الى أن صدرت جريدة الوحدة عن مؤسسة الوحدة عام ٩٨٤ •

□ اللاذقية في شارع صحافتها :

ولكن لماذا هذا التسابق الى اصدار الصحف في اللاذقية ، وهي المدينة الصغيرة في تلك الفترة ؟ أو كما قال عنها أحد القادة الأتراك عندما زارها: (قرية كبيرة تينها طيب).

١ ــ سنضع في اعتبارنا أولاً أن نسبة المتعلمين في اللاذقية تفوق غيرها في بقية المدن السورية ، وهذا ينبطق على أية فترة مرت عليها •

٢ ــ في عهدي الاستعمار التركي ثم الفرنسي، كانت الغاية من اصدار الصحف مقارعة الاستعمار ، وبث الروح الوطنية ، خاصة وأن اللاذقية لم تنعم بالحرية بعد جلاء الجيوش التركية عنها ، وقد نهجت في ظل الانتداب الفرنسي الأسلوب نفسه الذي كانت تتبعه من قبل ، وان كان بعض الصحفيين قد صمتوا عن ذلك(٣٣) •

٣ ـ تبني الأحزاب التقليدية في ذلك الوقت لعدد من هذه الجرائد بغية دعمها في المعارك الانتخابية والحزبية والدعاية لها (الاعتدال ـ الوعي القومي ـ الجلاء).

٤ ـ هواية بعضهم، وحبهم الحقيقي للعمل الصحافي (فخري راعي ـ جلال وكمال شومان).

هذا، ولا ينبغي ان يغيب عنا أن هذه الصحف لم تعاصر بعضها في الصدور، لأن الكثير منها لم يعمر غير أشهر أو سنوات قليلة جداً، وكان الشارع في اللاذقية بشكل عام في عهدي الاحتلال و الانتداب مشغولاً بمناوأة الاستعمار والتصدي له، وان كان ذلك يتم في معظم الاحيان عن طريق مهاجمة أذناب الاستعمار، ومن يسير في ركابه.

‌‌‌علاقة صحفيي اللاذقية بالآخرين:

رغم جدية بعض هذه الجرائد في هذه الفترة، الا أن بعضها الآخر كان يبحث عن وسيلة للتكسب، وتهديد الناس بنشر فضائح واهية عنهم، او غير صادقة، ولكن هؤلاء (الناس) يعرفون ما يرمي اليه صاحب الجريدة، فمنهم من يشتري سكوته، ومنهم من يتحداه ويرفض الرضوخ الى رغباته المادية، وبالنظر لكثرة عدد الجرائد التي صدرت في اللاذقية في وقت واحد، فقد كان في امكان من يُهاجم أن يلجأ الى جريدة اخرى للدفاع عنه مقابل ما يتبرع به اليها باسم الاشتراك او الاعلان، فقد هاجمت احدى جرائد اللاذقية مراسل جريدة دمشقية بتاريخ ٢٥/٤/١٩٤٧ قائلة: (على اثر اخفاق احد مراسلي الصحف بالوصول الى بضع ليرات سورية من مدير شركة ـ ... ـ في اللاذقية، كتب المذكور الى جريدة دمشقية محترمة رسالة ملفقة عاب فيها على المدير المذكور تزوجه من فرنسية، ناسياً أو متناسياً أن هناك عدداً من خيرة رجالات البلاد متزوجون من فرنسيات، وبعضهم من ألمانيات، فليخرس النفعيون، ولتنتبه الحكومة الى أعمال هذه الجراثيم التي تسلب وتنهب وتحتال تحت ستار الصحافة، وجهل أصحابها بحقائق هؤلاء الادنياء).

وبلغت الجرأة باحدى هذه الجرائد بأن هددت كل رجالات اللاذقية، عندما نشرت هذا العنوان المفزع: (جريدة ـ ... ـ تبدأ بمحاكمة عدد كبير من الشخصيات البارزة في المحافظة ... ترقبوا هذا الموضوع الخطير ..)، ان كل من كان يعتبر نفسه شخصية بارزة في هذه المحافظة في ذلك الوقت ـ وما أكثرهم ـ، سيشك بأنه المقصود بهذا العنوان، وبأن الفضائح ستصله وتعريه في العدد القادم، وكل واحد منهم يعرف في قرارة نفسه أنه محل للفضيحة، لذلك فانه سيسرع الى ادارة الجريدة ليشتري سكوت أصحابها عنه.

وكان الصحفيون يعانون باستمرار من الضائقة المادية، التي كانت السبب في توقف صدور صحف البعض منهم، كتب أحد الصحفيين بتاريخ ٨/١/١٩٤٥ معتذراً عن توقف صدور جريدته: (اننا نعتب على الظروف التي أبت الا أن نقف عاجزين عن تغذية هذه الجريدة بما تحتاج اليه من المواد والأطعمة، نعتب على الذين لم يدفعوا لنا الا عملة الكلام والثناء والتصفيق)، كما أن هذه الضائقة جعلت أحد الصحفيين يحلم باللحم والدسم، كتب في عام ٩٤٦ في باب (حوادث وأخبار) الخبر التالي: (شوهدت سيارة ـ .

.. ـ متجهة في طريق صلنفـة ، حاملة خروفأسميناً... فتصورناه للحال محشياً أمامنا على المائـدة ، ونحـن ناكل بشهية ، جعله الله فالخـير ..) . وهاجمت احدى الجرائد هؤلاء المتطفلين مـن الصحفيين ، فنشـرت قصيدة ،نقتطف منهـا :

اذا الموائد قـد مـدت مناسفهـا ❊ سمعت منـه شـخيراً مثلمـا يجبُ
تخاله عنـد ضرب النـَّاب مفترساً ❊ كـأنـه لسبـاع الغـاب ينتسبُ
فيمسك القوم عن أكـل وعن شرب ❊ يبحلقون وقـد هُدت لهـم ركبُ
أما (فلان) فلا خـوف ولا وجـل ❊ ولا اكتراث لمـَن مـن حوله غضبوا
حـتى اذا قـام عن عشـر وأربعة ❊ مـن المناسف فلّ القوم أو هربوا

وكان الذي يزعج احدى الجرائد في عام١٩٤٦ ما يلي :

التسول باسم الصحافة ـ صاحب الجريدةالذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ـ النصّاب الذي يقدم نفسه للناس ممثلاً عـن صحافـةاللاذقيـة .

وكان بعض هذه الجرائد يعتمد على الاعانات المـادية التي يفرضها على الميسورين تحت سـتار الاشتراكات ، كمـا أن الاشتراكفيها كان شبه قسري ، والويل لمن يتخلف عن تسديد اشتراكه ، كتبت احدى الجرائد تحتعنوان (كلمة نهائية) في عام ١٩٤٧ ما يلي : (يؤسفنا أن يعمد البعض الى المماطلة بأساليبمفضوحة ، وفي مقدمة هؤلاء المماطلين الذين أعيانا أمرهم موظف في مصلحة المرة الاقليميةباللاذقية ، سنضطر الى مطالبته على صفحات هذه الجريدة اذا لم يبادر الى تسديد ما عليهقبل صدور العدد القادم ...) .

هذه المهاترات ، وهذا الأسلوب الرخيص والاسفاف في العمل الصحافي ، ومحاولة اقلاق المواطنين ، والتشهير بهم ، سواء في اللاذقيـةأو في غيرها من المدن السورية، دعا الى فرض الرقابة على الصحافة السورية في عام ١٩٤٧(٣٤) ، الا أن الأمر لم يعجب أصحاب الصحف التي كانت تعيش على موائد الآخرين في ذلكالوقت ، فكتبت احدى هذه الصحف تعليقاً على ذلك : (ما زالت الحكومـة ماضيـة بتطبيـقسـياسـة المستعمر على الصحف السورية ، مخالفة بذلك روح الدستور ونصـه ، فكلمـاقامت صحيفة تقول الحقيقة ... نزلت بهـا كارثة التعطيـل ...) .

حديث الشارع في اللاذقيـة :

رافقت هذه السلبيات ايجابيات ملتزمة ، كان الصحفيون الجادون يرفضون الانسـياق وراء هذه المهاترات الشخصية ، ويدركون أنمهمـة السلطة الرابعة النقـد السليم المتزن والتوجيه ، وخدمة القضايا الوطنية بعيداً عنالمآرب الخاصة ، وكانت البلاد قد خرجت مـن قبضة قوى الانتداب ، فرحة بحريتها ، لكنهـالم تستطع أن تنظر الى نفسها في المرآة لتصلح من شأنها ، وتسوي من حالها ، فقـد صدمهاالتـآمر على جزء غال مـن الوطن العربي ،

وكانت قضية فلسطين شغلها الشاغل ، وهمها الكبير ، وكانت صحافة اللاذقية الجادة متميزة في مواقفها ، صادقة في دعواتها الى توحيد الصفوف ، والدعوة الى الجهاد ، وجمع التبرعات ، فتوقفت الحملات فيما بين اصحابها باتفاق مسبق كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وبلغ الأمر ببعض هذه الصحف ، وقبل قيام حرب فلسطين الى ان نبهت الى الخطر من ضياع فلسطين كما ضاع لواء اسكندرون ، ففي تاريخ ١٩/١٠/١٩٤٦ وتحت عنوان (من صحفي عربي الى الرئيس ترومان)(٣٥) ، علا صوت الصحفي الشاب فخري راعي صارخاً: (اذا كانت قضية فلسطين توضع موضع المساومة للفوز بصفقة الانتخابات ، ففلسطين قبل كل شيء ليست من ولايات أميركا ولا من مستعمراتها ، بل هي من بلاد العرب ، وفي قلب كل عربي ، واذا قدر لك أن تفوز بأمنيتك ، وهذا ما نمقته ، فعليك أن تدرك بأن الناس أحرار في بلادهم ، كما أنتم أحرار في بلادكم ، وان عليك أن تعرف أيضاً أن القنابل الذرية ، والصواريخ تستطيع ان تحطم وتدمر ، ولكنها ليست بمستطيعة أن تفرض الصهيونية الجانية على فلسطين ، ولا أن ترفع من قدر اميركا في أعين العالم الحر ، وأنظار الشعوب المتمدنة ...) .

قبل نهاية عام ٩٤٧ ، كان الشارع في اللاذقية يغلي حماساً من أجل انقاذ فلسطين ، بعد اعلان الصهاينة عن انشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، اثر رفض الدول العربية مشروع التقسيم ، فقد عمت المظاهرات شوارع المدينة احتجاجا على ذلك ، وأقيمت معسكرات التدريب للمتطوعين ، وبقيت فلسطين حديث صحافة اللاذقية ، حتى ان السجناء في سجون اللاذقية تقدموا بطلبات للتطوع في جيش الانقاذ الذاهب لتحرير فلسطين(٣٦) ، وفي عام ٩٤٨ كانت صحافة اللاذقية تستصرخ الضمائر كي لا تتحول فلسطين الى مأساة أندلسية ثانية ، وحتى لا تضيع كما ضاع لواء اسكندرون ، وكانت تدعو الحكومات العربية الى العمل الجاد من أجل انقاذ فلسطين(٣٧) . وبدأ الحديث عن حرب فلسطين منذ تاريخ شباط ٩٤٨ ، وكان عام ١٩٤٩ عام الخيبة بعد أن احترقت فلسطين وسرقت ، وكان يكتب في صحافة الخمسينات في اللاذقية (لا تنسوا فلسطين) .

وفي عام ٩٤٧ كان الشارع في اللاذقية مشغولاً بتأمين الرغيف الذي أطلقوا عليه (خبز الفقير) ، وكان يوزع مجاناً على الفقراء كما يلاحظ ذلك مما نشرته صحف تلك الفترة ، وكانت عناوين الصحف تقول (لا خبز في بلاد الخبز) .

وكان الغلاء الذي أعقب الحرب العالمية الثانية في ازدياد مستمر ، ففي نيسان ٩٤٧ كانت أوقية اللحم الضاني تباع بسبعين قرشاً ، وكانت تعرفة أجور ركوب عربات الخيل في اللاذقية كما يلي :

غرش سوري

٥٠ توصيلة داخل المدينة .

٧٥ توصيلة من ضمن المدينة الى السجن أو المستشفى .

١٠٠ توصيلة من ضمن المدينة الى الطابيات أو دورة البحر .

وفي العام ١٩٤٧ أيضاً ، كان ما يشغل اللاذقية المماطلة في تنفيذ مشروع مرفأ اللاذقية، فقد أضربت اللاذقية عدة أيام بسبب هذه المماطلة ، وكان مما نشرته صحافة اللاذقية هذه الزجلية :

بدنا المرفأ بدنا البور
حاجه ظلم وحاجه جور
وعدتونا خمسين مره
لا تعيدو تمثيل الدور

وبقي المرفأ ورقة رابحة بيد المرشحين في الانتخابات النيابية في تلك الفترة ، حتى ان بعض المرشحين أطلقوا على انفسهم لقب (أبو المرفأ) ، وبتاريخ ١٢ شباط ٩٥٠ صدر قانون انشاء شركة مرفأ اللاذقية ، وتم انجازه في عام ١٩٥٣ .

واذا عدنا الى صحافة اللاذقية في عام ١٩٤٥ لعرفنا أن خروج المرأة المسلمة من دون حجاب (السفور) ، كان حديث الشارع ، وسبباً في غضب صحافة اللاذقية ، وكان ما يطربها اصدار قرار بمنع تجول النساء بعد الساعة الرابعة .

وكان المحب في اللاذقية في عام ٩٤٦ يذوب شوقاً لرؤية من يحب، وهو ان فشل في رؤيتها، كان يصب غضبه على كل شيء ، حتى على أزهار الربيع : (اذا لم أظفر بحبيبتي ، فلا غردت بلابل الربيع ، ولا سقيت أزهاره من الندى النعسان) .

وبتاريخ ١٧ نيسان ٩٥٤ نشرت جريدة الشاطىء(٣٨) تحذيراً بقصد منع النساء من دخول السينما، وكان النقد ينصب بقسوة على غرور الشباب والفتيات الذين(٣٩) (هدموا قواعد الدين والفضيلة ، وانقادوا بتيار المدنية الحديثة ، حتى تنظر الى الشاب وكأنه فتاة جميلة لما يقوم به من تنميق في هيكله وهندامه ونتف حواجبه وتعديل وجهه، يطارد الفتيات من مكان لآخر ، حتى الفتيات انفسهن أصبحن يلبسن لباس الرجال ليبرزن ما خفي من أجسادهن ، ويعرضن شعورهن المقصوصة كالرجال ...) ، وفي عددها الصادر بتاريخ ١٧ تموز ٩٥٥ نشرت جريدة البلاد(٤٠) ما يلي :

(تلقت وزارة المعارف من وزارتها البلاغ التالي :

١ ـ يمنع منعاً باتاً اشتراك الطالبات مع الطلاب في أعمال التمثيل، فلا يمثلن الا وحدهن وفي مدراسهن فحسب .

٢ ـ ليس للطالبات الاشتراك مع الطلاب في ركن الطلبة .

٣ ـ يحظر على النوادي والجمعيات والمدارس الخاصة اشراك الطالبات مع الطلاب في النوادي والتمثيل) .

واذا تجولنا في شوارع اللاذقية كما طلبت منا جريدة البلاد بتاريخ ٣٠/١١/٩٥٤(٤١)، لرأينا في أمسية كل يوم عدداً كبيراً من الشباب والطلاب يقفون في نقطة مفرق شارع غسان

بشكل يستحيل معه مرور النـاس ولا سيماالسيدات والأطفال ، الأمر الذي يعرض سمعة هؤلاء الفتية للطعن ، واعتبرت احدى الجرائد(٤٢) أن الرجل الذي يمسك بيد زوجته في الشارع من قبيل (البطر) وتقليد أصحاب الملايين ٠

وكان ما يزعج الشارع في اللاذقية في عام٩٥٢ مصانع النجارة والحدادة التي أقيمت في قلب المدينة لتنشر مرض العصبي بين النـاس(طاق ٠٠ دي ٠٠ دي ٠٠) منذ الصباح الباكر وحتى المساء، وكذلك اقامة مستودعات الاسمنت ضمن المدينة وتأجير الساحات المكشوفة لكبار مستوردي الحديد ، فالويل لأصحاب البيوت المجاورة(٤٣)، وكذلك الدراجات النارية التي كانت تؤجر للأطفال أو الثقلاء الذين لا يستعملونها لقضاء الحاجات ، ولكن للتسلية وازعاج الناس وترويع المارة ، وخاصة عندما تحل ساعة الراحة(٤٤) ، وحتى عام ١٩٥٤ كان سير الدراجات على الأرصفة ، والروائح المنبعثة من محلات بائعي الفلافل تقلق وتزعج شوارع اللاذقية(٤٥) ٠

وفي عام ٩٥٢ ، هبط سعر كيلو السمن الحيواني في اللاذقية من ٦٠٠ ق.س الى ٥٢٥ ق.س بسبب جودة الموسم ووفرة الأمطار وتوالد الماشية وتوفر الكلأ، في حين أن الشكوى من الغلاء وارتفاع الأسعار كانت واضحة في العام١٩٥٣ ، وكان الشارع في اللاذقية يتذمر من جشع الباعة والتجار وطمع المحتكرين والمستغلين الذي فاق كل حد بمناسبة قدوم شهر رمضان ، فقد قفزت أسعار البندورة من٢٥ ق للكيلو الى ليرة سورية ، والبرتقال من أربعين قرشاً الى ثمانين ، أما الخيار فقد ارتفع سعر الكيلو منه الى ليرتين اثنتين(٤٦) ٠

وكانت أنواع السجائر الصادرة عن الريجي (ادارة الحصر) في عام ٩٥٣ ، والتي أعلن عنها في صحف اللاذقية هي : السيد ـ جوكي كلوب ـ اكسترا اكسترا ـ ينيجه ـ نوع أول ـ بافرا ـ طاتلي سرت ـ رودياك ـ الريجي(٤٧) ٠

أما عدد الولادات والوفيات في محافظة اللاذقية في عام ٩٥٢ فقد عددتها جريدة البلاد(٤٨) بتاريخ ١٧/٢/٩٥٣ كما يلي(٤٩) :

	الولادات	الوفيات
قضاء اللاذقية	٨١٤	١٨٤
قضاء جبلة	٥٦١	١١١
قضاء بانياس	٤١٠	٩٧
قضاء طرطوس	٣٥٤	١١٥
قضاء صافيتا	٢٧٣	٦٨
قضاء تلكلخ	٣٣٧	٩١
قضاء مصياف	٢٧٩	٤٣
قضاء الحفة	٢٨١	٥٦

وحتى عام ٩٥٣ كانت الدعوة موجهة لتنظيم النقل الداخلي في اللاذقية ، كما كان النداء مستمراً وبالحاح لردع المخالفين الذين لا يتقيدون بأنظمة منع التدخين في السينما ·

وفي عام ٩٥٤ قررت مصلحة أوقاف اللاذقية تحويل مسجد أبي الدرداء الكائن في الطابيات الى جامع ، وعكفت على تحضير المخطط اللازم للشروع بالعمل فوراً(٥٠) · أما الوفر في صندوق تقاعد نقابة محامي اللاذقية فقد بلغ ٣٦ ألف ليرة ، الأمر الذي ساعد على رفع راتب تقاعد المحامي من ١٢٥ ل. الى ١٧٥ ل.(٥١) · وفي هذا العام كانت الدعوة قائمة لشق شارعين في محلتي الشحادين (الأشرفية الآن) والصباغين ، والاعتناء بهاتين المنطقتين اللتين تشكلان ثلث سكان المدينة – حسب قول الجريدة – وذلك أسوة بشارعي الحرية والغافقي(٥٢) ، وبلغ عدد البواخر التي أمّت مرفأ اللاذقية في هذا العام ٦٨٨ باخرة ، كما تم في هذا العام أيضاً منح موظفي شركة المرفأ التعويض العائلي(٥٣)، وقد أصدرت لجنة تحديد الأجور في اللاذقية بأكثرية الآراء ومخالفة ممثل العمال القرار التالي(٥٤) في عام ١٩٥٤ :

يحدد الحد الأدنى لأجور عمال النجارة كما يلي :

الفئة الأولى	عامل عادي	٣٠٠ غ.س	في اليوم
الفئة الثانية	معاون نجار	٤٠٠ غ.س	في اليوم
الفئة الثالثة	الدهان	٤٠٠ غ.س	في اليوم
الفئة الرابعة	معلم نجار	٥٠٠ غ.س	في اليوم

وكانت كهرباء اللاذقية في وضع لا تحسد عليه ، بسبب حاجتها الى التجديد بعد أن أخذت محركاتها تتحمل جهداً لا طاقة لها به(٥٥) ، وعادت الشكوى من أزمة النقل الداخلي الى الظهور في العام ٩٥٨ لأن مشروع الباصات ما زال حلماً ، كما أن عربات الخيل قد ألغيت، والتاكسيات مفقودة(٥٦) ، وبتاريخ ٢٠ آب ٩٥٨ نشرت جريدة نداء البلاد (العدد ١٥٩) خبراً عن وصول باصين للنقل الداخلي الى ميناء اللاذقية ، وعلقت على ذلك قائلة : (ان الباصين المشار اليهما يستحيل عليهما السير في مختلف شوارع المدينة بسبب طولهما الزائد عن الحد ، اذ يبلغ طول الواحد منهما أكثر من عشرة أمتار ، الأمر الذي يستحيل معه وضعهما في خدمة الشعب) ، وفي هذا العام تكاثر (الفسفس) في بعض دور السينما ، كما أن المواطنين رفعوا شكاويهم بسبب صعوبة الاتصال الهاتفي بدمشق وعدم توفر الخطوط(٥٧) ·

وفي العام ٩٥٨ أيضاً طلبت وزارة الشؤون البلدية والقروية من المحافظة الايعاز الى البلدية لموافاتها بالمعلومات التالية(٥٨) :

١ – عدد الطنابر المرخصة ·
٢ – عدد الطنابر العاملة بدون رخصة ·
٣ – عدد الطنابر الملغى تسجيلها لاستبدالها بسيارات النقل الداخلي
٤ – مدى الحاجة الى الطنابر العاملة حالياً ·

كما منحت السلطات المختصة في هذا العام تراخيص لفتح مقاهي على الصخور البحرية القائمة الى الشمال من فندق السياحة والاصطياف ، وينص الترخيص على تأجير المتر المربع الواحد بما يقارب ستين غرشاً سورياً في السنة الواحدة(٥٩) ، وحتى ما بعد عام ٩٥٨ كنا نقرأ باستمرار عن دور من أربع غرف وصالون معروضة للايجار ، وان بلدية اللاذقية أفقر بلدية في الجمهورية ، أما أسعار السفر بالطائرة فقد كانت كالتالي(٦٠) :

دمشق ـ اللاذقية	١٨ ل.س
اللاذقية ـ حلب	١٢ ل.س
لاذقية ـ قامشلي	٥٢ ل.س

وكانت تسعيرة المواد الغذائية في اللاذقية كما يلي(٦١) .

ـ سمن نباتي الصحيفة ١٦ كغ	بسعر	٢٧,٥٠	ل.س
ـ سمن حموي ممتاز	سعر الكيلو	٧,٥٠	ل.س
ـ لحم غنم	سعر الكيلو	٣,٢٥	ل.س
ـ جبن أبيض حلو بلدي	سعر الكيلو	٢,٠٠	ل.س
ـ زيت زيتون ممتاز	سعر الكيلو	٢,٧٥	ل.س

وارتفعت الشكوى في هذا العام من سوء توزيع البريد(٦٢) ، كما اختفى البنزين والكاز من الأسواق ، وبيعت تنكة البنزين بخمس وعشرين ليرة سورية(٦٣) ، وفي عام ١٩٦٢ نظم السير باتجاه واحد في بعض شوارع اللاذقية المزدحمة ، ولاقى ذلك قبولاً حسناً لما ينطوي عليه من تسهيل لعمليات المرور(٦٤) ، كما كثر الذباب والحشرات والهوام في هذا العام ، وأصيبت اللاذقية خلال الصيف بأزمة ثلج عنيفة(٦٥) ، وحتى عام ٩٦٤ لم تلغ الطنابر من اللاذقية ، وطالبت جريدة صدى البلاد(٦٦) بتحديد مواقف جديدة لها ، فقالت : (فتشوا عن موقف جديد لا تحيط به المنازل ودور العلم والثقافة ، موقف يتناسب وأصوات البغال المنكرة وأقذارها المتراكمة) .

وبعد ، لم تعد اللاذقية(٦٧) قرية كبيرة تينها طيب ، كما وصفها أحد القادة الأتراك في مطلع القرن العشرين ، ولم نعد نسمع من يقول : (من قرأ جريدة ـ ... ـ أو سمعها أو لمسها ، أو نظرها عن بعد ٥٠ كم يعد مشتركاً ، ويلزم الدفع حالاً) ...

المراجع والهوامش :

١ ـ موسوعة المعرفة .
٢ ـ المعرفة وكتاب الصحافة العربية ـ اديب مروة .
٣ ـ تاريخ الصحافة السورية ج١ ـ شمس الدين رفاعي .
٤ ـ المعرفة .
٥ ـ مروة .
٦ ـ رفاعي .
٧ ـ المعرفة .
٨ ـ رفاعي ومروة .
٩ ـ رفاعي .
١٠ـ رفاعي .
١١ـ ذكر مروة ان صدور هذه الجريدة كان في عام ١٨٧٧ .
١٢ـ رفاعي .

١٣- مـروة .

١٤- أورد رفاعي أن محمد صبحي عقدة سافر الى تركيا بعد اغلاق جريدته (أبو نواس) وأصدر في استنبول جريدته الأسبوعية (عكاز أبي نواس) عام ١٩١٢ ، ومما يجعلني أؤكد أن صدور هذه الجريدة قد تم في اللاذقية ان محمد الشريقي كتب في العدد الأول منها مقالا بعنوان (أبـو نواس بين الصادق والكاذب) ، ومحمد الشريقي كـان صغيراً في تلك السنة ، كما أنه لم يغادر اللاذقية الا بعد عدة أعوام من تاريخصدور ذلك العدد ، اضافة الى اننا لن نصدق أن محمد صبحي عقدة حمـل مواضيعه مـن اللاذقية الى استنبول ، فطبع جريدته فيها ثم عاد بها الى اللاذقية ، كما اننا لن نصدق انه أرسل اعدادها من استنبول الى اللاذقية بواسطة البريد ، خاصة وانهـا استمرت في الصدور عدة أشهر ، وفي هذا خسارة ماديـة مرهقة ليس من السهل تحملها ، اضافة الى سوء وبطء وسائل النقل (البريد والمواصلات) في ذلك الوقت .

١٥- مـروة ورفاعي .

١٦- رفاعي .

١٧- رفاعي .

١٨- صدرت هذه النشرة في حدود عام ١٣١٧ هجرية .

١٩- مـروة .

٢٠- سورية والعهد العثماني - يوسف الحكيم ص ١٦٠ .

٢١- المصدر السابق - ص ٩٨ .

٢٢- رفاعي .

٢٣- مـروة .

٢٤- استمرت هذه الجريدة في الصدور لمدة تزيد على خمس وعشرين سنة ، رغم توقفها لمدة قصيرة ، وتعتبر من أطول الجرائد عمراً .

٢٥- صدرت هذه الجريدة بعد الغاء جريدة اللاذقية الصادرة عام ١٩٢١ .

٢٦- جميع الجرائد في هذه الفترة كانت اسبوعية ، وبعـد اغلاق هذه الجريدة ، عادت فصدرت يومية سياسية في عام ١٩٤٥ حتى وفاة صاحبها في عام ١٩٥٧ .

٢٧- صدرت بعد الغاء جريدة الوعي القومي .

٢٨- كانت تستقطب اليها الشعراء الشباب في سورية ولبنان.

٢٩- سجن محمد صبحي عقدة عام ١٩٢٤ .

٣٠- كان عمال المطابع هم الذين يخرجون الصحيفة .

٣١- باستثناء جريدة الخبر التي تحولت فيما بعد الى يومية سياسية .

٣٢- هذا يعني أن الصحف في الخمسينات كانت تتلقى اعانات مادية من الدولة .

٣٣- لن نعطي أمثلة ، حرصا على مشاعر أبناء أصحاب هذه الصحف .

٣٤- الاعتدال - ٧٢٧ - ١٩٤٧/٤/٣٠ .

٣٥- الاعتدال - ٦٩٧ - / ١٩٤٦/١٠ .

٣٦- الاعتدال - ٧٥٨ - ١٩٤٧/١٢/١٢ .

٣٧- الاعتدال - ٦٧٤ - ١٩٤٨/١/١٧ .

٣٨- العدد ٤١٠ - ١٩٥٤/٤/١٧ .

٣٩- البلاد - ٣٩٣ - ١٩٥٤/١٢/٧ .

٤٠- البلاد - ٤٨٥ .

٤١- البلاد - ٣٩٠ .

٤٢- البـلاد .

٤٣- ٤٤ - البلاد ٤١ - ١٩٥٢/١١/٢٧ .

٤٥- الساحل - ١ - ١٩٥٤ .

٤٦- البلاد - ١٦٥ - ١٨ أيار ١٩٥٣ .

٤٧- ٤٨ - البلاد - ١٢١ - ١٩٥٣/٢/١٧ .

٤٩- هذا قبل فصل طرطوس عن محافظة اللاذقية .

٥٠- البلاد - ٣٩٠ - ١٩٥٤/١١/٣٠ .

٥١- ٥٢ - البلاد ٣٢٠ - ١٩٥٤/٦/٨ .

٥٣- الساحل - ١ - ١٩٥٤ .

٥٤- البلاد - ٣٢٩ - ١٩٥٤/٦/٩ .

٥٥- البلاد - ٤٣٧ - ٢٠ آذار ١٩٥٥ .

٥٦- ٥٧ - نداء البلاد - ١٠١ - ٤ أيار ١٩٥٨ .

٥٨- نداء البلاد - ١١٧ -/١٩٥٨/٦ .

٥٩- ٦٠ - نداء البلاد ١٢٠ - ١٩٥٨/٦/٨ .

٦١- نداء البلاد ١٤٦ - ٢٨ تموز ١٩٥٨ .

٦٢- نداء البلاد - ١٥٦ - ١٥ آب ١٩٥٨ .

٦٣- نداء البلاد - ١٥٨ - ١٨ آب ١٩٥٨ .

٦٤- ٦٥ - النفير - ١٣ - ١٩٦٢/١١/٢٠ .

٦٦- صدى البلاد - ٦٢ - ١٩٦٤/٢/١٤ .

٦٧- حتى عام ١٩١٤ كان عدد سكان مدينة اللاذقية بحدود ثلاثين الفا ، وفي عام ١٩٦٣ بلغ عدد سكانها مائة الف .

* * *

الصحافة الأدبية في الساحل

١٩٢٣ - ١٩٥٤

هاشم عثمان

مما يؤسف له ، أن الدراسات التي ظهرت، ورصدت النهضة الأدبية والفكرية في سورية ، أغفلت دور الساحل تماماً ، ولم تشر اليه لا من قريب ولا من بعيد، فبقيت صحافة الساحل نسياً منسياً • صفحات ضائعة من تاريخ الصحافة السورية، والعربيــة •

وما نقوم به في هذه الدراسة الموجزة ، نفض لغبار النسيان الذي تراكم فوق تاريخ صحافة الساحل ، ومحاولة متواضعة لتأريخها والتعريف بهــا •

وأول ما يلاحظه الباحث المدقــق فيما يتعلق بصحافة الساحل : انهــا ، أولاً - من مواليد مرحلة ما بعد الانقلاب العثماني ، أي ما بعد عام ١٩٠٨ بينما وجدت الصحافة في دمشق وحلب ، قبل الانقلاب العثماني بمــدة طويلة في دمشــق عام ١٨٦٥ ، وفي حلب عام ١٨٦٧ •

وهي ، ثانياً ، ولدت أهلية ، بعكس صحافــة دمشق وحلب ، التي كانت في بداياتهــا الأولى ، رسمية ، نشأت بعناية الولاة وتحت رعايتهــم •

ثم انهــا ، مرت بثلاث مراحــل :

☐ **المرحلــة الأولى :**

مرحلة العهد العثماني ، أو مرحلة التكوين • وتمتد من ١٩٠٩/٥/٤ (تاريخ صدور أول صحيفة في الساحل) ، الى ١٩١٨/١١/٥ (بداية عهد الاحتلال الفرنسي للساحل) •

☐ **المرحلة الثانية :**

مرحلة الحكم الفرنسي والحكومات المستقلة، أو مرحلة النضج وتمتد من ٥/١١/٩١٨ الى ٢٠/١٢/١٩٤٢ (تاريخ انضمام حكومة اللاذقية ، نهائياً ، الى سورية) ·

☐ **المرحلة الثالثة :**

مرحلة الاستقلال وتمتد من ٢٠/١٢/١٩٤٢ وحتى اليوم ·

★ ★ ★

وليس من السهل معرفة تأثير الصحافة على الحياة الأدبية في الساحل خلال الفترة ما بين عام ١٩٠٩ ـ تاريخ صدور أول صحيفة وهي اللاذقية(١) وعام ١٩٢٣ ـ تاريخ صدور أول مجلة وهي العلوي ـ نظراً لعدم توافر المراجع التي تعين الباحث على الدراسة ، وعدم وجود مجموعات من هذه الصحف في المراكز الثقافية أو دور الكتب العامة أو الخاصة · وكل معلوماتنا عن صحافة اللاذقية خلال الفترة المذكورة لا تتعدى أسماء هذه الصحف ، وتواريخ صدورها ، وأسماء أصحابها وهذا أمر يؤسف له أشد الأسف ·

★ ★ ★

* وأول مجلة ظهرت في الساحل السوري هي العلوي (١٥ أيلول ١٩٢٣) **مجلة سياسية** أدبية اقتصادية حرة تصدر مرتين في الشهر لصاحبها برهان الدين **بك مصري** زاده ، صدرت باللغتين العربية والفرنسية وكان رئيس الكتاب بالقسم **الفرنسي برهان الدين** مصري زاده ، ورئيس الكتاب بالقسم العربي عبدالكريم الخيّر · عدد **صفحات العدد /٢٤/** صفحة منها /١٦/ صفحة باللغة العربية و/٨/ صفحات باللغة الفرنسية ·

وكانت المجلة مقسمة الى الأبواب التالية: الأدبيات ـ السياسيات ـ أخبار نصف الشهر ـ الكلمة الأولى صدر منها خمسة أعداد فقط ثم توقفت · ولم تنهض بأي دور يذكر في حياتنا الأدبية والثقافية · كما أنها لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة الى المجلات الراقية التي صدرت بعدها ، وكان لها شأن كبير في حياتنا الأدبية ·

* ولهذا يمكن القول ، ان أول مجلة ثقافية قامت بدور **هام في حياتنا الثقافية** واحتلت مكاناً بارزاً فيها ، هي مجلة النور لنصر الله طليع وجاد كومين ·

صدر العدد الأول منها في شهر حزيران ١٩٢٥ (شوال ١٨٤٣) · وكانت خطة المجلة كما أوضحها صاحبها في افتتاحية العدد الأول: « لن تحمل سوى صورة للنهضة الأدبية ، ومثالاً من الفكر الحر الطليق ، فهي مجلة المفكرين والشباب الناهض ، هي ميدان البحث الأخلاقي والأدبي تتبارى فيه أقلام الكتّاب الباحثين ، في عزلة عن السياسة ، لأنني لا أرى لأمتي فلاحاً بسوى رفع مستواها الأدبي والأخلاقي ، ونزع الفوارق من بين طوائفها وفئاتها ··· » ·

كانت النور تصدر شهرياً • وسنة المجلة عشرة أشهر • وعـدد صفحات العدد /٨٠/ صفحة • تصدرت غلافهـا الخارجي الكلمات التاليـة : صلة الأدباء • رابطـة المفكرين • مجال الأقلام الطليقة • رمز النهضة الأدبية • نصيرة الحق • عضد الضعيف • نور ونار •

أبواب المجلة هي :

١ ـ المقـال الافتتـاحي :

ومن المقالات التي نشرت في هذا الباب: العاطفة والمادة محور الحيـاة والاجتماع ـ الأمل والحذر عاملان قويان في سير الحياة ـ تطاحن الطبقات ومسؤوليتها تجاه المجتمع ـ الزعامة بين البيئة والعبقرية ـ القوة والضعف ناموسان مـن نواميس الطبيعـة ـ الارادة في الأفراد والأمم كيف تكون وكيف تطلب ـ ... الـخ ...

٢ ـ خمائـل الأفكـار :

وهو باب الشعر ومـن الشعراء الذيـن نشرت لهم: بدوي الجبل ، محمد رشاد رويحة، فتاة غسان ، الأخطل الصغير ، منح هارون ،أديب فرحات ، محمد كامـل شعيب العاملي ، محمد مجيد عجان ، جميل صدقي الزهاوي ، عندليب الوادي (عبد الكريم الخيِّر) أحمد شوقي ، حليم دموس ، وغيرهم ...

٣ ـ تطـور المجتمـع :

تحت هـذا الباب نشرت المجلة مقـالات تدور حـول مواضيع مختلفة منهـا : نهضة العمال ـ الحلقة المفقودة وعقـول القردة ـ الساعة العجيبة ـ اكتشاف أمريكا ـ الشرب والصحة ـ الفاشيست ـ الاشتراكيـة •

٤ ـ خراب وسهـام :

أوراق الخريف ، حوادث الشهر ، وهذا الباب عبارة عـن جولة في الأخبار الداخليـة والخارجيـة •

٥ ـ زهـر وشـوك :

وكان ينشر تحت هـذا الباب اهـداءات النور ، والمطبوعات الجديدة • ولمجلة النور ، الفضل في تعريفنا ببعض أدباء الساحل الذين ما كنا لنعرف عنهم شيئاً لولاها كمحمد سعيد أزهري (١٨٣٤ ـ ١٩٠٠) والياس الصالح(١٨٣٩ ـ ١٨٨٥) وغيرهما ... ومما يذكر أن المجلة اهتمت بالرواية المترجمة فنشرت على حلقات متتابعة رواية (المدالية الذهبية) رواية أدبية غرامية اجتماعية مترجمة بتصرف عـن الفرنسيـة •

أما القصة الموضوعة • فلم تكن مـدار اهتمام المجلة • وكل ما نشر منها قصة (أنـا والطائر الحزين) لأديب مهنا • وهي محاولة بدائية غير ناضجة • وقصة (الفرج بعد الضيق) للآنسة اميلي سابا وهي أرقى مـن الأولى •

وأهم ما نشر على صفحات المجلة كتاب (تاريخ فرنسا) لحكمت الشريف . والدراسة المطولة المعنونة (تطاحن الطبقات) .

وعلى صفحات النور ظهرت أولى محاولات الشعر الحر . حيث نشرت تحت عنوان « مذكرات شريد » مقطوعات من هذا اللون الأدبي بعنوان : عند قبر الجندي ـ أمام الكوخ ـ ساعة في قصر ـ ليلة في حقل ـ العاشق الفاشل ـ مع القافلة ـ القاصر والوصي .

وبعض هذه المقطوعات نشر بتوقيع مستعار : ديك الجن أو ابن المدينة .

ولاعطاء القارىء فكرة نعرض هذا المقطع :

مليكة الحقل يا بنت الجبال
شقيقة الشمس وأم الهلال
ان معرفة ما تحوينه من الجمال
لضرب من ضروب المحال

تتعهدين الحقل عند الصباح ، والنحل فوق النسرين والأقاح ، يأخذ لقاحاً ويدس سم لقاح ، فتذبل وجوه تلك الزهور ، ويشرع غيرها في الظهور ، فيعجل النحل بالبكور ...

لم تعش النور طويلاً ، توقفت بعد سنة واحدة من صدورها .

* المجلة الثالثة التي عرفها الساحل ، هي ، التجدد لأديب طيار(٢) مجلة أدب وفن واجتماع وفكاهة . صدرت في (صافيتا) في مطلع آذار ١٩٢٧ ـ رمضان ١٣٤٥ ، سنتها عشرة أشهر وعدد صفحات كل عدد /٦٤/ صفحة . والعدد مقسم الى الأبواب التالية : في رياض الشعر ، من هنا وهناك ، في عالم الكتب ، فكاهات ، رواية العدد ، سير العلم ، الفنون الجميلة ...

ومن استعراض أبواب المجلة نجد أنها اهتمت بالفنون الجميلة . وهذا سبق يسجل لها . كما يتبين أنها اهتمت بالقصة . فخصصت لها باباً مستقلاً بعنوان (رواية الشهر) وتحت هذا الباب نشرت: الأقحوانتان ، ملاك الظلمات ، الراهبة البيضاء . وهي من القصص الراقي بقلم الأديب الشاعر زاهي عرنوق ، فتكون التجدد عرفتنا برائد مجهول من رواد القصة في الساحل السوري . لم يهتم به أحد من الدارسين فمات مغبوناً .

وكالنور لم تعش التجدد طويلاً . احتجبت بعد عام من صدورها ، مخلفة وراءها فراغاً كبيراً .

* بعد التجدد ، صدرت مجلة المرشد العربي للشريف عبدالله آل علوي الحسني . مجلة علمية تاريخية أدبية شهرية . شعارها : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن » .

كانت المرشد العربي مجلة دينية « موليةوجهها نحو البحث عما يبين حقيقة الدين ويفند مزاعم المبطلين ، ويفضح دعاوى البدعيين والمحدثين متبسطة تبسطاً لائقاً بها فيما يهذب النفوس ويثقف العقول ويغذي الأفكارباحثة بدورها في الأخلاق، والعادات، والآداب، والتاريخ ، والتراجم ، والعلوم النظرية ،والاجتماعية » ٠

صدرت المجلة بتاريخ ١٠ نيسان ١٩٢٩(١ ذو القعدة ١٣٤٧) كان العدد مقسماً الى الأبواب التالية :

دينيات ـ أخلاقيات ـ حقوقيات ـ اقتصاديات ـ تاريخيات ـ أدبيات ـ في عالم المطبوعات ٠٠٠

على صفحات المرشد العربي تلاقت أسماء نخبة من خيرة كتاب الوطن العربي أمثال : الشيخ عبدالحميد السائح، عبدالرزاق الحسني، عبدالقدوس الأنصاري ، عبدالكريم الدجيلي، عبدالصاحب الدجيلي ، محسن مظفر ، عمر الرافعي ، محمد رضا المظفري ، عبد الحميد الرافعي ، محمد زاكي عثمان ٠

ومن أدباء الساحل زكي فوز ، الشيخ راغب العثماني ، ضياءالدين أديب ، محمد المجذوب ، محمد حنا المشبوت ، أحمد سعيدوالد الشاعر أدونيس ،٠٠٠ وغيرهم ٠

وكان انتشار المجلة أوسع من انتشار النور والتجدد ، اذ تخطى انتشارها مدينة اللاذقية والساحل وسورية الى لبنان وفلسطين والعراق والحجاز واليمن والهند وسيلان وجاوا نظراً لما كان يتمتع به صاحبها الشريف عبدالله من صداقات واسعة في تلك البلاد ٠

ومن أهم ما نشرته المجلة كتاب (تاريخ الأديان) لحكمت الشريف و (تاريخ العلوم العربية وأزمان وضعها ومن وضعها) لابن الجزيرة ٠ والبحث المطول المعنون (الصابئة قديماً وحديثاً) للسيد عبدالرزاق الحسني ٠

وكان باب (المطبوعات الحديثة) من أبواب المجلة المهمة ٠ وفي هذا الباب تعرفنا بعدد كبير من الكتب من ذلك : كتاب ابداء الرغاب في مسألة الحجاب ، وكتاب ارشاد الأمة للتمسك بالأئمة ، وكتاب روضة الأزهار في تاريخ آل المقيد الأخيار ، وكتاب ذخيرة المتأدب ، وكتاب عمران بغداد ، والزهرات ، وكتاب روح الايمان في نفس الانسان ، وكتاب البلاغ المبين في أصول الدين ، وكتاب شيخ الأسطح أو أبوطالب ، وكتاب البابيون في التاريخ ، وكتاب الرحلة العلمية ، وكتاب التوأمان ، وكتاب الفضيلة الملثمة ٠٠ وغيرها ٠٠٠ وغيرها ٠٠٠ من الملاحظات اللافتة للنظر أن المرشد العربي لم تول القصة أية عناية ٠ وأهملتها تماماً ٠٠ وقد توقفت المجلة عن الصدور بعد مدة قصيرة من صدورها ٠٠٠

* بعد المرشد العربي ، ظهرت مجلة الأماني التي أصدرها ابراهيم عثمان في مطلع شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٠ وكان شعارها : « ان أعمالك مرآة لك ٠ فاذا شئت أن تعرف من أنت فانظر الى أعمالك » ٠

قدمت الأماني نفسها للقارىء ، وحددت خطتها بالكلمات التالية : « لم تخلق للكسب المادي ، ولمس النفوس ، وخطتها أن لا تتقدم بالزلفى وايقاد البخور على مذابح المقامات

وأصحاب النفوذ كما أنها لم تخلق لتكون أداةللهدم والتحطيم وستستمر على الصدور بعونه تعالى ما دامت تتغذى من جهود رفاق شاركوني في مشروعها بدافع نشر الثقافة والأدب ، لا بدافع حب الظهور والتطوح الأعمى ،وستحمل على صفحاتها صرخات الشباب الصاخبة لتحطيم الأغلال ومحاربة الجمود ،وحكمة الشيوخ المتروية الهادئة ، في جو بعيد عن السياسة وأساليبها ، أما الأبحاث الأدبيةفستعالجها من كل نواحيها ببراءة وجرأة حتى اذا وجد القارىء الكريم في حديقتها الزنبقة اللامعة والعوسجة الشاحبة فلا لشذى الأولى وشكل الثانية بل لوجود كيان خاص في كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون » ٠

وعندما صدرت الأماني كتب الأستاذ أديب طيار صاحب التجدد كلمة تحمل معنى الشفقة عليها من مصيرها المحتوم جاء فيها : والأماني يا سيدي القارىء هي المجلة الأدبية الثالثة التي تصدر في هذه البقعة المنكوبة من الأرض ٠ بعد (النور) و (التجدد) وقد توارت أشعة النور عن العيون في أحشاء الظلمات وهوى نسر (التجدد) من سمائه فتكسرت جناحاه فوق الصخور والقبور والأفاعي وهشمت رأسه الأشواك الرجعية فدفنه صاحبه في ظلمات الأبد وأقسم على ضريحه اليمين ٠٠ فما عساه يكون حظ الأماني في صفحة القدر ٠٠ ايكون نصيبك أيتها المجلة العروس من الحياة كنصيب شقيقتيك (التجدد) و (النور) فتحطمين القلم وتسكبين عليه دموع اليأس والندم ٠ أم أنك ستطالبين بنصيبك من غنائم العبقرية وخمورها على موائد الأمجاد في عالم الأدب »(٤) ٠

على صفحات الأماني كانت انطلاقة نديم محمد ٠ حيث نشر بواكيره الشعرية المتمثلة بقصائده التالية : أخفقتهما وراء ثوبيها، الله في طبع الحسان ، اني أدين بما تدين به ، آمنت بالحسن ، الكنز المباح ، غفر الله لها ، وهي غير موجودة في أي من دواوينه المنشورة ٠

وعلى صفحات الأماني نشر بدوي الجبل عدداً من قصائده : المعبد المسحور ، الى عبدالوهاب ، وانجلت نفسي في النور ، أماالشباب ، أطل من حرم الرؤيا فعزاني ، العذراء الخائنة، حيرة النفس ، وغيرها وبعض هذه القصائد غير موجودة في ديوانه ٠

وعلى صفحات الأماني أيضاً ، نشر بدوي الجبل أول مقال نثري له بعنوان « الخيام بيني وبين سيدة افرنسية » ــ الأماني ــ العدد/٧/ نيسان ١٩٣١ ــ وكان أهم ما نشرته الأماني على صفحاتها المآخذ والاستدراكات التي سجلها العلامة الشيخ سليمان الأحمد على شراح ديوان البحتري وأبي تمام الطائي ودراسته الفذة الموجزة عن رسالة الغفران للمعري ٠

وفضلاً عن ذلك كانت صفحات الأماني ميداناً رحباً لكوكبة من فرسان الشعر والنثر من أدباء الساحل وأدباء العرب مثل : ادوار مرقص ، فتاة غسان ، خليل عثمان ، محمد المجذوب ، شحادة اليازجي ، نوفل الياس ،أحمد محمد حيدر ، محمد حمدان الخيّر ، عبداللطيف ابراهيم ، يوسف ابراهيم ، عيسى شعود ، منح هارون ، حكمت الشريف ، أمين نخلة ، جرجس كنعان ، رئيف خوري ، الحر ، عبدالرؤوف أمين، محمد كامل شعيب العاملي، ايليا أبو ماضي ٠٠٠ وغيرهم ٠٠٠

ومما يسجل للأماني بمداد الفخر اهتمامهـا بالنقد ، وكانت سباقة في هذا المجال ٠ اذ هي خصصت زاوية بعنوان (زاوية سهيل) لنقـد كـل ما ينشر فيها مـن مقالات وبحوث وقصائد ٠ وكان نقدها أشبه بالوخزات التي تؤلم أكثر مما تجرح ، من ذلك ما كتبه سهيل في نقد مقال بدوي الجبل « الخيام بيني وبين سيدة افرنسية » وهو(٥) : لا نغبط « الخيام » كثيراً على حضور هـذه الحفلة ولو عن طريق الذكرى لآن الكاتب لم يدعه الا لينفذ مـن خصاصه الى مشتهيات السيـد الافرنسية ٠ وأعجب مـن هذا قول الكاتب عن نفسه أنـه شاعر في الثلاثين من سنيه ، متلمساً الحساب « النسائي » في تقدير العمر لأنه نظم قصيدة سنة ١٩٢٠ جاء فيهـا :

وأرانـي سـوف أمشي للـردى ... مستظـلاً بالسـيوف البـاتـرة
ملقيـاً نفسـي في غمراتهـا ... كيفمـا دارت هنـاك الدائرة
فـاذا مت غريبـاً نائيـاً ... وأنا في التسع بعـد العاشـرة
أذكريني واحفظي عهـد الهوى ... وانـدبي شؤم الجدود العاثرة

ثم نظم قصيدة في ٩٢٨/٨/٧ قال في أحد أبياتهـا عـن نفسه :

كبـا وركـائب الأعـوام فيـه ... مـن العشرين لم تنقـل خطاها

وكل ما تقدم هذا البيت من قرائن تشير الى أن كبوته كانت في السنة التي نظم بهـا قصيدتـه ، فاذا كـان يضيف الى عمره سنة واحدة كـل ثماني سنوات كان ذلك « فـوق علم العليم »(٦) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الأماني اهتمت بالشعر المنثور وقـد سبق سهيل ــ ابراهيـم عثمان ــ غيره من أدباء الساحل في هذا الفـن الذي بلـغ على يـده ذروة الجمال والكمال والأناقة ٠ من قصيدة « اليهـا »(٧) نختـارهـذا المقطـع :

والابتسامة العذبة التي أغفلهـا العناق على شفتي ،
يوم كان الصمت العميق أبلـغ ما نتكلمه ساعـة اللقـاء ،
والقلب النابض الذي تملكتـه ارتعاشة خفيفـة ،
تقلصت على ثغـري ومـذ مرت عليهـا الذكـرى ،
تكيفت بشكل كآبة مبهمة ٠
فيهـا كـل رموز الحيـاة ٠

ومما تفردت به الأماني ، وكانت السباقة اليه أيضاً ٠ اعلانها عن مباراتين أدبيتـين الأولى للشاعر الذي ينظم أجمـل قصيـدة في موضوع الأماني ، والثانية لمن ينتخب أفضل مقال أو قصيدة تنال استحسانه من المجلة ٠

بقي آن نذكر ، أن الأماني على الرغم من اهتمامها الكبير بالموضوعات الأدبية ، لم تول القصة أي اهتمام وعلى مدار سنتين ، لم تنشر غير قصة واحدة موضوعة هي « ثمن القبلة الأولى » لبولس الياس • وملخص قصة رنيه للكاتب الفرنسي شوتوبريان ، تعريب آليس بشور •

عاشت الأماني مدة سنتين ثم توقفت بسبب العجز المادي لأن طبع العدد الواحد كان يكلف عشر ليرات ذهبية فكان نصيبها من الحياة كنصيب شقيقتيها (النور، التجدد) وباحتجابها فقد الساحل مجلة أدبية راقية كانت واسطة عقد مجلاته الأدبية ، وما زال السؤال عنها يتردد الى يومنا هذا •

وما ينبغي ذكره أن مجلة الأماني كانت موضوع أطروحة جامعية تقدمت بها الآنسة اسمهان صالح الى جامعة القديس يوسف ببيروت كرسالة ماجستير ، باشراف الدكتور أسعد علي •

* بعد سنة من احتجاب الأماني صدرت مجلة (صدى بوقا) في أوائل شهر تموز ١٩٣٣ ولم نعثر على أي عدد من أعداد هذه المجلة ، وكل معلوماتنا عنها، مأخوذة عما كتبته جريدة الارشاد(٨) • ففي العدد /١٦/ الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٣٣ قرأنا اعلاناً صغيراً جاء فيه : « اطلعنا على بيان مصور صدر عن مدرسة بوقا الزراعية بعزمها على اصدار مجلة نصف شهرية بعنوان (صدى بوقا) اشتراكها السنوي ٧٥ قرشاً سورياً و ٥٠ قرشاً للطلبة لمديرها ورئيس تحريرها حضرة الفاضل (زوزيموس) تبحث في الزراعة والفنون والكشافة والرياضة والآداب فنرحب بالرصيفة الجديدة ونتمنى لها النجاح السريع » •

وفي العدد /١٨/ الصادر بتاريخ ١٤ تموز ١٩٣٣ قرأنا الكلمة التالية : « وافانا العدد الأول من مجلة صدى بوقا فتصفحناه واذا به مملوء بالأبحاث الشيقة من زراعية وأدبية ورياضية وموسيقية فنتمنى لها سرعة الرواج والانتشار » •

* وفي عام ١٩٣٦ صدرت مجلة الصاعقة لوصفي حداد « مجلة أدبية روائية انتقادية أسبوعية مصورة » لكن بكل أسف كانت هذه المجلة دون المستوى المطلوب • ولكونها هزيلة المحتوى، لم تستفد منها الحركة الأدبية بشيء•

* في العام التالي لصدور الصاعقة ، وعلى وجه التحديد في شهر تشرين الثاني من عام ٩٣٧ ، أصدر المرحوم الدكتور وجيه محي الدين ، بطرطوس ، مجلة النهضة ، شهرية تبحث في الأدب والاجتماع• وقد حاول صاحبها أن يسد بها الفراغ الذي خلفته الأماني باحتجابها •

جاءت النهضة ، بعد أن خلت الساح من النور والتجدد والأماني وكان مبدأ المجلة ، كما عبرت عنه افتتاحية العدد الأول : « الكفاح ضد الرجعية ، ونبذ الطائفية المقوتة والسير وراء المجد والسؤدد بتضامن واخلاص، وبث روح التآلف والاخاء بين مختلف أبناء هذا الشعب ، فتكون هذه الصحيفة كمنبر يتبارى عليه كل من أعطاه الله نصيباً وافراً من حس الذوق الأدبي ، والثقافة العالية ، والتضحية في سبيل المثل العليا » •

وقد ظهرت على صفحات المجلة أسماء كثيرة منها ما كان معروفاً، وله حضوره الأدبي، ومن اصحابها من نزل الى معترك الحياة الأدبية لأول مرة ، فسار خطواته الأولى على صفحات المجلة ٠

اهتمت النهضة بالقصة القصيرة فنشرت أمام هيكل بعلبك للمجلة ، فراشة ويراعة ، يمامة وغراب ، ثعالب وقرود لابراهيم جمال الدين ، وفاء امرأة لبهجت مخائيل منصور ٠٠

كما اهتمت بالأدب الأجنبي فنشرت ليالي ألفرد دوموسيه ، ترجمة محمد علي علوش ، هيلويز الجديدة لهوغو ترجمة احمد المحمود ، نشيد السائرين الى الشمس لناظم حكمت ، اعتراف فتاة روسية الى صديقتها الفرنسية ل ز. هيبيوس ترجمة زاهي عرنوق ٠٠٠

ومما يلاحظ ان هذه المجلة استعارت من الأماني زاوية « الرسائل الممزقة » ، كما قلدتها في باب النقد ، اذ افردت بابا خاصا بعنوان « معرض الشهر » للنقد ، لكنها لم تصل الى ما وصلت اليه الاماني في هذا المجال ٠

مما يعيب هذه المجلة أن تبويبها كان سيئ ، تتفوق عليها النور والتجدد والاماني ، في هذا المجال عاشت النهضة سنة كاملة ، ثم توفي صاحبها ، فحاول شقيقه محي الدين محي الدين بالاشتراك مع المحامي زاهي عرنوق مواصلة اصدارها ، لكن المحاولة فشلت ولم يصدر منها في سنتها الثانية سوى بضعة أعداد ثم توقفت ٠

بعد احتجاب النهضة ، عاش الساحل السوري محروماً من مجلة أدبية تحتضن أقلام أدبائه وتحفظ آثارهم ، وامتد هذا الحرمان ما يقارب ثماني سنوات ، من نيسان ١٩٣٩ الى حزيران ١٩٤٦ ، حيث صدرت القيثارة التي أصدرتها جماعة الشعر الجديد في اللاذقية ، وجعلت شعارها « رسالة شعرية فنية » ، وقد حمل العدد الأول الكلمة التالية : « أقر رأينا على اصدار هذه النشرة ، ورأينا أن نخصص للناحية الأكثر وضوحاً واستقراراً في بلادنا وهي الشعر ، أرحب حقل من حقولها تمرح فيه عرائس الشعراء وخيالات القراء طليقة حرة » ٠

كانت هذه المجلة تختلف عن المجلات السابقة في حجمها واخراجها فهي أولاً أدبية صرفة لم تبحث بغير الأدب ، وكان حجمها صغيراً وعدد صفحاتها أقل مما هي عليه الحال في سابقاتها، وهي مقسمة الى الأبواب التالية : في رياض الشعر أو ألحان القيثارة ــ لآلىء منثورة ــ ألحان الريف ــ باقات من الشعر العالمي ــ شاعر معاصر ــ شاعر قديم ــ تطواف الفراش ــ الفنون الجميلة ــ آراء وخواطر ٠

من ذلك يتبين أن المجلة اهتمت اهتماماً كبيراً بالشعر العربي والعالمي، الموزون المقفى، والحر الطليق أو المنثور ، الفصيح والزجل ٠٠ ومن الشعراء الذين نشرت لهم : أحمد الصافي النجفي ، حامد حسن ، محمد المجذوب ، عزيزة هارون ، بديع حقي ، نزار قباني ، الدكتور أديب مظهر ، سعيد عقل ، ادوار مرقص ، الياس قنصل ، شفيق المعلوف ، عجاج المهتار، ابراهيم منصور ، حبيب خربك ، كمال فوزي، الدكتور يوسف سمارة ، مالك طوق ، ميشيل طراد ، رشيد نخلة ، أحمد حبيب منصور ، بشارة الخوري ، أحمد الجندي، أحمد سليمان

الأحمد ، سلامة عبيد ، عزيز أباظة ، جورج مصروعة ، علي أحمد سعيد (أدونيس) ، كريم سيف الدين ، ماجد خربك ، هنري أبو فاضل، محمد عباس ، صلاح الأسير ، وديع جعجع ، بدوي الجبل ، عمر أبو ريشة ، أنور الجندي ،علي دمر، فاتح مدرس، يوسف الخال ، محمود عيسى ، محمود علي كامل ، عبده مسوح ،عبدالقادر المحمودي، حسن علي، منير عرنوق، زين الحسن ، بولس الدويهي ، وغيرهم ...

من الشعر المترجم نشرت قصيدة مساء لالبير سامان ، والاناء الكسير لسولي بردوم ، والفن والحب لهوغو واعتراف الفنان لشارل بودلير ، وأنشودة محمد لغوته .. كما نشرت دراسات عن شارل بودلير حياته وشعره ، وعن الشاعرة الرومانية هيلانة فاكارسكو ، وعن الشاعر الألماني ماكس داوتنداي ... وأهم ما نشرته المجلة على صفحاتها ديوان الأم لنديم محمد ، ودراسة مفيد عرنوق عن أوغاريت وحضارتها وآثارها ، وبحث الرواية والمسرحية في التاريخ والفن لأديب طيار . لكن مما يؤسف له ، أن هذه المجلة لم تعمر طويلاً ، عاشت سنة واحدة فقط من حزيران ١٩٤٦ إلى حزيران ١٩٤٧ ، لكن الاثر الذي خلفته في النفوس كان كبيراً . وبتوقف القيثارة عن الصدور ، فقد الساحل أخر مجلة أدبية شهرية راقية عرفها على مدى اثنتين وعشرين عاماً من تاريخه . لأن المجلات التي صدرت فيما بعد كالمنبر ثم الغد كانت أسبوعية ، وكانت تختلف اختلافا جذريا من حيث الاخراج والمضمون والتبويب ...

* صدرت المنبر(٩) في مطلع شهر أيار عام ١٩٥٠ ، وقد رحبت بصدورها جريدة الشاطىء السوري فكتبت تقول(١٠) : « تلقينا العددين الأولين من مجلة المنبر الغراء التي تصدر في اللاذقيه لصاحبيها السيدين خالد شاكر وغازي أبو عقل فألفيناها طافحة بالمقالات الشيقة المتعددة المواضيع مما يلذ له القارىء ولا يسعه أن يتركها قبل أن يأتي على آخرها ، اننا نتمنى للزميلة الرواج الذي تستحقه ونحث المواطنين على مناصرة الأدب وتشجيع الزميلة لتثابر على خدمة الوطن في الخطة الحكيمة التي رسمتها لنفسها » .

كانت المنبر تختلف عن سابقاتها، النور، التجدد ، الأماني ، في كل شيء ، الشكل والمضمون ، وترتيب المواد ، وعدد الصفحات، وموعد الصدور ... فالمجلات السابقة كانت « محافظة » على حين المنبر كانت « شابة » قامت على أقلام شابة ، برزت في منتصف الأربعينات كمحمد حاج حسين ومحمد شيخ ديب وعباس بهلول ومصطفى سعدالدين وابراهيم الحلو وفائق محفوض وكمال سبع الليل وابراهيم قدري وأحمد الدالي ومعلى الصارم ، وانضم اليهم نفر من الأدباء الشباب الذين أظهروا موهبة وأصالة كان أنبههم اسماً وأغزرهم نتاجاً رياض نصور الذي رافق المجلة من بدايتها الى نهايتها وتردد اسمه في كل عدد من أعدادها ، ويليه الياس مشتاوي .

مما يذكر أن عدد صفحات المنبر (١٦) صفحة ، وعلى الرغم من أنها كانت « مجلة أدبية أسبوعية » الا أنها لم تكن تصدر أسبوعياً بصورة منتظمة ، مثلاً صدر العدد /٦٣/ بتاريخ ١٢ شباط ٩٥٢ والعدد /٦٤/ في ٢٢ شباط ٩٥٢ والعدد /٦٥/ في ٢ آذار ١٩٥٢ والعدد /٦٦/ في ١٢ آذار ٩٥٢ ، والعدد /٦٧/ في ٢٢ آذار ٩٥٢ .. والعدد /١٢٢/

في ٢٥ تشرين أول ٩٥٣ والعـدد /١٢٣/ في٣١ تشرين أول ٩٥٣ ، والعدد /١٢٤/ في ١٠ تشرين ثاني ٩٥٣ ، والعـدد /١٢٨/ في ٢١تشرين ثاني ٩٥٣ والعـدد /١٢٩/ في ١٠ كانون ثاني ٩٥٤ ٠٠٠ ومواد العـدد موزعةبدون ترتيب ، ولم يكن للمجلة ، بشكل عام ، فهرس يسهل الرجوع الى المادة المنشورة· لكنميزة المنبر ، آنهـا كانت « منفتحـة » فتحت صفحاتهـا للأقلام الشابة ولكل ذي موهبـة ،فتجد على صفحاتها اسم الأديب الشاب الذي يبحث لنفسه عن موطىء قـدم في دنيا الأدبكالياس مشتاوي ورفيق خوري وسليم زهدي ويسر غندور ونبيهة حداد وعزة عجان ونديمسليمان و٠٠٠ الى جانب أسماء أساتذة الأدب العربي ، وأصحاب الأقـلام الناضجة كفائـقمحفوض وعباس بهلول ، وابراهيم الحـلو ، وكمال سبع الليـل، والياس طعمة ، ومعلىالصارم ، ومحمد عباس و ٠٠٠ وكان اهتمام المجلة بالقصة كبيراً ، ففي كل عدد قصة ، وقدتألق على صفحاتها رياض نصـور والياس مشتاوي مـن الادباء الشباب الجـدد · والىجانب القصص نشرت المجلة الدراسات المطولة الراقيـة كعصاميون عباقرة لمحمد شيخ ديبوالانسانية والقوميـة على صفحات التاريخ لتيسير جيفي والغزل في زمن بني أمية لالياسطعمة وشعراؤنا في المهجر لرياض نصور وقد نشره باسم مستعار هو طريد ·

ومن جهة أخرى ، تقع العين على أسماءعدد مـن كبار أدباء العرب تردد ذكرهم على صفحات المنبر مثل: وصفي القرنفلي ، رياضمعلوف ، ايليـا أبو ماضي ، نسيب عريضة ، فوزي المعلوف ، رشيد نخلة ، أحمـد الصـافيالنجفي ، حليمدموس ، سلامةموسى ، الدكتور جبرائيل جبور ، بدوي الجبل ٠٠ و ٠٠٠ لكنما تجدر الاشارة اليه ، أن أعداد المنبر لم تكن كلهـا على مستوى واحـد · فهناك الأعدادالجيدة، وهناك الأعداد التافهة· عاشت المجلة أقل من أربع سنوات من أيار ١٩٥٠ الى ١٠كانون الثاني ١٩٥٤ ثم توقفت وكان مجموع ما صدر منها /١٢٩/ عدداً ، لكن توقفها لميطل كثيراً فسرعان ما صدرت باسم جديد هو (الغد) وقبل صدورها نشرت جريدة الشاطىءالسوري الاعلان التالي : « جاءنا من صاحب مجلة المنبر الأستاذ ابراهيم أدهم فوز آنه قدبدل اسم مجلته باسم جديد هو (الغـد) ولقد تناهى الينـا آن المجلة ستصدر بحلة قشيبةوبأقلام قوية وبتبويب رائع ونحن الذين نود لصحافة هذا البلد الرقيوالازدهار نرحب بهذهالخطوة التي خطاها الزميـل ونرجو لمجلته في عالم الصحافة الرواج والتقدير الذي تستحقهمجلة كمجلته استقطبت خيرة المفكرين والكتاب والأدباء والشعراء في هذا البلد(١١) · صدرتالغـد يوم الأحد في ٢٤ كانون الثاني ١٩٥٤ الموافق ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ وقـدحملت افتتاحية العدد الأول ، الكلمة التالية :

« هكذا ستكون الغـد عزيزي القارىء نقدملك العدد الأول من مجلتنا الجديدة (الغـد) التي استبدلناهـا بالمنبر ، متخذين من هـذهالتسمية الجديدة شعاراً للعمـل ، وآمـلا في المستقبل · وعلى هـذا الأساس وضعنا خطةجديدة نلخصها في ما يلي :

١ ــ تقلس المجلة حرية الرأي والتعبيـر ، فتفتح صدرها للأقلام الحـرة والآراء المخلصة التي تتجاوب مـع أماني الشعب وتعبر عن رغباته وحاجاته الأساسية ·

٢ ـ ليست هذه المجلة ملكاً لحزب أو هيئة أو حكومة أو جماعة ، وانما هي ملك للشعب، فلا تعمل الا لمصلحته ، ولا تحرص الا على ارضائه .

٣ ـ تؤمن المجلة الى حد ما بمبدأ الالتزام في الأدب والفن والصحافة فهي تزن الأمور بميزان اجتماعي بمقدار ما يقدمه من نفع للهيئة الاجتماعية .

٤ ـ تؤكد « الغد » أنها لن تسعى الى كسب مادي ولا الى شعبية رخيصة ولن تستمد العون والقوة والايمان الا من القراء الذين لن يجدوا فيها مديحا لحاكم أو سكوتاً على تهاون أو اغضاء على سيئة .

٥ ـ لقد أخذنا على أنفسنا عهداً أن لا نجعل من « الغد » طريقاً للدعاية لمؤسسات أجنبية وسنرفض نشر كل اعلان يصدر عن هذه المؤسسات لاعتقادنا بأنها تعمل على هدم كيان الوطن وافقاره وتضليل أبنائه .

٦ ـ ستكون « الغد » ثورة على الظالمين وحرباً على الاستعمار وصنائعه في الداخل والخارج وستسلط أنوارها الكشافة على المرتزقة والمارقين الذين يعملون في الظلام لمصلحة الطغاة وأعداء الشعب .

٧ ـ ان « الغد » مجلة ناشئة لان كتابها ناشئون ، فهم يستميحون القراء عذراً عما يمكن أن يصدر عنهم من أخطاء ، طالبين اليهم أن لا ينقطعوا عن ابداء ما يخطر لهم من ملاحظات ونقد وارشاد ويشفع لهم أنهم لا يصدرون الا عن عمق وطنية وطهارة يد وضمير .

٨ ـ وأخيراً فللغد وحده القول الفصل في ما أخذنا به أنفسنا من عهود ... » .

على الرغم من أن مجلة الغد تعتبر امتداداً لمجلة المنبر ، الا أنها تميزت عنها بما يلي :

أ ـ كانت الغد أفضل من حيث الاخراج وترتيب مواد العدد .

ب ـ كما كانت أغزر مادة ، ومواضيعها أكثر تنوعاً ، والأعداد كلها على مستوى واحد تقريباً لا تفاوت بينها .

ج ـ ازداد عدد صفحاتها ، فعلى حين أن المنبر كانت من /١٦/ صفحة ، فان عدد صفحات العدد من الغد /٣٠/ صفحة ، وأحياناً يزيد عدد الصفحات عن ال /٣٠/ ليصل الى /٣٤/ صفحة كالأعداد ٥ و ٦ وأحياناً ينزل عدد الصفحات الى /٢٨/ صفحة كالعدد /١٣/ أو الى /٢٦/ صفحة كالأعداد /٩ و ١٤/ أو /٢٢/ صفحة كالعدد /١٠/ .

وكما كان عدد صفحات العدد غير ثابت، فان صدورها غير منتظم أيضاً ، فالعدد الأول صدر في ٢٤ ك ٢/٩٥٤ ، والثاني في ٣١ ك ٢/٩٥٤ ، والثالث في ١٥ شباط ، والخامس في ١٣ آذار ، والسادس في ٣٠ آذار ، والسابع في ٨ نيسان ، والعاشر في ٢٣ أيار ، والحادي عشر في ٧ حزيران ، والثاني عشر في ٢٠ حزيران ١٩٥٤ وهكذا ... وقد ترددت على صفحات الغد نفس الأسماء التي طالعتنا على صفحات المنبر وهي : رياض نصور ، محمد

شيخ ديب ، الياس مشتاوي ، نبيهة حداد ،حسن حمام ، عباس بهلول ، تيسير جيفي ، محمد حاج حسين ، ابراهيم الحلو و ... كماطالعتنا أسماء جديدة لادباء من سائر الاقطار العربية : العراق ، تونس ، مصر ، الأردنمثل: خالد محمد خالد ، كاظم سماوي ، صفاء حيدري ، عبدالرحمن الشرقاوي ، عيسىالناعوري، عبدالله العلايلي، الشاذلي زوكار، محمد مهدي الجواهري ، عبدالوهاب البياتي... وهذا يدل على أن الغد كانت تتمتع بسمعة طيبة ورواج ، والا لما احتلت صفحاتهاهذه الأسماء الكبيرة الضخمة . لكن مما يؤسف له ، أن عمر الغد كان قصيراً جداً ، أقل بكثيرمن عمر المنبر ، ويعد احتجابها خسارة للحياة الأدبية في الساحل . وكانت هذه المجلة تستحق وقفة أطول ، وأكثر شمولية ، لكن ضيق المجال لا يسمح ، وعسانا نخصها بدراسةمستقلة .

★ ★ ★

واذا كانت الحياة الأدبية ، في الساحلالسوري ، مدينة لهذه المجلات ، فانها مدينة أيضا وبالقدر نفسه ، الى الصحف التي كانتتصدر في الفترة الزمنية ذاتها ، صحيح أن هذه الصحف لم تكن تخصص صفحة معينةللادب ، الا أنه لم يخل عدد من أعداد تلك الصحف من مادة ادبية تنشر ، وعلى العكسمما كانت عليه الحال بالنسبة الى المجلات وبخاصة النور والتجدد والاماني التي كانتوقفا على الأسماء الكبيرة المعروفة ، فان الصحف احتضنت الشباب والطلاب وأفسحتلهم صدر صفحاتها ليعبروا فيها عن خلجات أنفسهم ويظهروا ابداعاتهم ، مما أثرى الحياةالأدبية في الساحل ورفدها بدماء شابة كان لها الفضل في ظهور وتطور فن أدبي جديد لميهتم به شيوخ الادب في اللاذقية ، قبلاً ، هو فن القصة . ففن القصة مدين من نموهوتطوره للصحف وحدها التي أولت هذا الفن رعاية خاصة واهتماماً زائداً .

فمنذ عام١٩٤٦ خصصت صحف اللاذقيةكالاعتدال والجلاء والشاطىء والخبر وغيرها صفحة خاصة بعنوان (قصة العدد) وجد فيهاكثيرون من الأدباء الشباب انطلاقتهم ، ومن الأسماء التي ظهرت وكان لها دورها البارزفي ارتقاء فن القصة محمد حاج حسين ، مصطفى سعدالدين ، صديق بطرس ، ابراهيمقدري ، فرح باصوص ، حنا مينة ، مصطفى قاسم السيد ، شوقي بغدادي ، طه الكسيح ،الخ ...

وللصحف أيضاً فضلها العميم في ظهور العديد من الأقلام النسائية الشابة كعزيزة هارون .. ولا يمكن للباحث المنصف أن يغفلالدور الكبير الذي لعبته (حديقة الطلاب) في تحريك وتنشيط الحركة الأدبية في الساحل .وهيصفحة أدبية حررتها أقلامالطلاب باشراف خالد الشريقي ، وصدرت بتاريخ٢٧/١٠/١٩٥٢ عن جريدة البلاد ، وكانت تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع . وعند بدءظهور هذه الصفحة وجهت نداء الى الطلاب تطالبهم « بتجريد أقلامهم من مكامنها » وماكاد خبر هذه الصفحة ينتشر حتى تهافتت عليها أقلام الطلاب من كل حدب وصوب بحيث ضاقبريد الصفحة بنتاج الطلاب من الجنسين ، ومن الأسماء الشابة التي مرت على هذهالصفحة وآخذت طريقها الى الشهرة فيما بعد أدونيس ، كمال خير بك ،رفيق خوري ، محمدعمران ، عبدالله عبد وغيرهم ... وأهم

ما قامت به هذه الصفحة اعلانها عن مسابقة لأحسن قصة ، وذلك في شهر نيسان ١٩٥٤ وقد فاز بالجائزة الأولى المرحوم عبدالله عبد عن قصة (المتشرد) وفاز بالجائزة الثانية أنور فرح عن قصة (من أجل أمي) وفاز بالجائزة الثالثة خديجة الأرناؤوط عن قصتها (الشريدة) ...

ومن الأسماء التي تردد ذكرها على صفحات حديقة الطلاب : خالد رمضان ، أنور فرح ، سعاد بكباشي ، أحمد حسن ، ميشيل عون ، خلدون فوزي ، أمير الريف ، محمد عدنان حسين ، عبدالله عواد ، كمال سعدالدين، ابنة البحر ، يوسف علي حسن ، عبدالرزاق يوسف ، ملحم وهبي التل و ... و ... دامت هذه الصفحة سنة واحدة ثم توقفت ، ونظراً لما كانت تتمتع به من شهرة وشعبية ، حاولت جريدة الشاطىء تقليدها فاستحدثت صفحة مماثلة تحت عنوان (صدى الطلبة) يحررها : هشام شومان وعبدالله أدهم وسميح زين ، وهي نشرة طلابية أدبية خاصة تصدر كل يوم خميس عن مؤسسة جريدة الشاطىء ، كما استحدثت نشرة ثانية بعنوان (النهضة) نشرة أدبية خاصة تصدر كل يوم سبت عن مؤسسة جريدة الشاطىء ، يشرف على تحريرها : مروان حداد ، لكن هذه المحاولة لم تنجح وتوقفت الصفحة نهائياً بعد مدة قصيرة جداً .

* * *

واذا كان لنا ما نقوله في ختام هذه الكلمة ، هو أننا نتمنى على احدى مؤسساتنا الثقافية الرسمية أو الخاصة ، أن تبادر الى اعادة طباعة مجلات النور والتجدد والأماني والقيثارة ، فانها بذلك تسدي يداً بيضاء ، وتعيد الى الحياة صفحة من تاريخنا الأدبي ضائعة ، خاصة وان تلك المجلات كانت في مصاف أرقى المجلات الأدبية التي صدرت في الوطن العربي في زمانها . ونستطيع القول جازمين أنه لم يكن في سورية ، في الفترة الزمنية ذاتها ، ما يماثل هذه المجلات .

أمنية نود لو تتحقق ، وما أحلاها من أمنية .

□ الحواشي :

١ ـ صدرت يوم الثلاثاء في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ الموافق ٢١ نيسان ش ٣٢٥ و ٤ مايس غ سنة ١٩٠٩ وهي صحيفة سياسية أدبية علمية زراعية تجارية .

٢ ـ ولد في صافيتا سنة ١٩٠٥ . مارس مهنة التعليم في مدارس طرطوس واللاذقية . توفي عام ١٩٨١ ، صدر له كتاب حسنات الاضطهاد عام ١٩٣٦ كما أصدرت له وزارة الثقافة السورية كتاباً بعنوان (من نصوص اديب الطيار) صدر سنة ١٩٨٦ .

٣ ـ من افتتاحية العدد الأول ، ص /٩/ .

٤ ـ الأماني ـ العدد /٣/ ١ ك ١ ١٩٣٠ .

٥ ـ الأماني ـ العدد /٨/ أيار ١٩٣١ ، وسهيل هو صاحب المجلة ابراهيم عثمان .

٦ ـ فوق علم العليم قصيدة لبدوي الجبل .

٧ ـ العدد /١/٣ كانون أول ١٩٣٠ .

٨ ـ صدرت باللاذقية في ١٠ آذار ١٩٣٣ لصاحبها محمد أمين حكيم .

٩ ـ صاحب الامتياز الصيدلي ادهم فوز وصاحب المجلة خالد شاكر .

١٠ ـ الشاطىء السوري ـ العدد /٤٩/ تاريخ ١٢ ايار ١٩٥٠ .

١١ ـ الشاطىء السوري ـ العدد /٣٩٧/ تاريخ ١٦ كانون الثاني ١٩٥٤ .

الياس صالح اللاذقي

١٨٣٩ - ١٨٨٥

جبرائيل سعادة

هو الياس بن موسى بن سمعان بن صالح . انه دون شك من أعظم الرجال الذين أنجبتهم اللاذقية . نجد نبذة عنه في المعاجم وفي العديد من المراجع(١) وهي تشير الى المجالات الشتى التي برز فيها فتشيد بالمؤرخ والعالم ذي الثقافة الواسعة وبالشاعر والمفكر ، وتتحدث عن تضلعه بالقوانين وامكاناته في معرفة اللغات الأجنبية والترجمة كما تذكر ما كان يتحلى به من أخلاق رفيعة . يقول الدكتور سليم الجريديني انه كان « أديباً تفاخر بآدابه الأدباء ، عالماً قد جمع من رياض العلوم أطيب الاثمار وشاعراً قد جنى من حدائق الشعر أذكى الأزهار »(٢) ونقرأ في جريدة الأهرام القاهرية أنه « كان وديعاً حسن الأخلاق غزير المادة واسع الاطلاع ، كاتباً لبيباً وشاعراً متفنناً »(٣) وتقول مجلة الجنان : « كان وديعاً متواضعاً محبوباً أديباً ، كان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء فاصبح بكده وثباته كاتباً وشاعراً بليغاً ... وبالجملة كان زهرة اللاذقية ورونقها »(٤) .

واذا كان اسمه اليوم يتردد من حين الى آخر بين المهتمين بالماضي فالجيل الحاضر يكاد يجهله ، بينما هو جدير بأن نهتم به وبالتراث الذي خلفه لنا . لذلك رأينا أن نقدم في بحثنا هذا لمحة عن أسرته وأن نروي قصة حياته وأن نقوم بدراسة مؤلفاته المطبوعة وغير المطبوعة .

☐ أسرة صالح :

منشأ الأسرة مدينة غزة في فلسطين(٥) وأقدم اسم وصل الينا منها هو المعلم صالح الذي ولد سنة ١٧٣٠ . ولفظة « المعلم » تعني في اصطلاح ذلك الزمن الموظف المسيحي الكبير في الدولة . وفعلاً كان صالح موظفاً في غزة وتوفي فيها سنة ١٧٩٠ تاركاً ولدين هما خليل وسمعان(٦) .

ولد سمعان صالح حوالي سنة ١٧٦٠ في غزة وترعرع فيها ثم غادرها سنة ١٧٩٦ وسكن يافا مقر الولاة آنذاك اذ استقدمه اليها واليها محمد أبو مرق واتخذه رئيساً لكتاب ايالتها ، وقد ترمّل عن ولد اسمه سالم وعدة بنات(٧) . وحدث أن الجزار والي عكا ، غضب على محمد أبي مرق وهمّ أن يفتك به . وعلى أثر ذلك فرّ أبو مرق من يافا الى اللاذقية والتجأ الى حنا كبة الذي كان حاكمها الفعلي(٨) فانزله عنده ضيفاً مكرماً . ولما بلغ الجزار أن والي يافا أصبح في اللاذقية ،كتب الى حنا كبة يطلبه منه فرفض حاكم اللاذقية تسليمه ثم توصل بمساعيه الى استصدار قرار من الصدر الأعظم في استنبول برجوع أبي مرق الى ايالته وأمر الى الجزار ألا يتعرض اليه بسوء . خضع الجزار مرغماً لهذه الأوامر ولكنه حقد على حنا كبة وقصد الانتقام منه وحرّض الذين دبروا اغتياله سنة ١٨٠٣ .

بعد مقتل حنا كبة ، غادرت زوجته اللاذقية مع أولادها ورحلت الى يافا والتجأت الى واليها محمد أبي مرق الذي كان ما يزال يحفظ الجميل لمعروف زوجها معه . فاحسن استقبالها وصار ينفق عليها من خزينته . ثم طلب من سمعان صالح الذي كان، كما ذكرنا، موظفاً في ولاية يافا أن يقترن بابنتها واسمها ايرين ، فتزوج سمعان صالح من ابنة حنا كبة ورزق منها ذكرين هما الياس وموسى(٩) وثلاث بنات . وفي سنة ١٨٢٥ قتل سمعان صالح في دمشق على أثر حوادث يطول سردها هنا(١٠) ولما حاصر ابراهيم باشا المصري مدينة عكا سنة ١٨٣١ انتهزت أرملته الفرصة وجاءت الى اللاذقية مع والدتها وابنها موسى وبناتها .

في سنة ١٨٣٧ تزوج موسى صالح من فتاة توفيت بعد عرسها بأربعين يوماً فتزوج من فتاة أخرى اسمها منّاشة هي ابنة الياس نعمة من أهالي اللاذقية ورزق منها ثلاثة أولاد ذكور بكرهم الياس موضوع بحثنا(١١) وقد تعاطى موسى تجارة التبغ مع القطر المصري وكان له محل في الأسكلة ، ولكنه خسر أمواله في هذه التجارة فترك عائلته في سنة ١٨٤٩ وذهب نهائياً الى القدس وتوفي فيها سنة ١٨٦٧ .

☐ حياة الياس صالح :

نعتمد في رواية حياة الياس صالح على ثلاث تراجم ، الأولى هي التي نشرت سنة ١٨٨٥ في مجلة الجنان(١٢) والثانية بقلم أسعد خليل داغر نشرت في سنة ١٩١٠(١٣) والثالثة بقلم نصرالله طليع نشرت في سنة ١٩٢٥(١٤) .

ولد الياس صالح في ٢٦ كانون الثاني ١٨٣٩(١٥) . ولا نعلم شيئاً يذكر عن طفولته . ان والدته هي التي تحملت مسؤولية تربيته وتربية اخوته بعد رحيل والده الى فلسطين . يبدو أن ميله للاطلاع والعلم ظهر لديه منذ سن المراهقة فما ان أدرك شيئاً من مبادىء القراءة حتى أخذ يطالع الكتب كما اهتم بتعلم الخط والكتابة . ويروى أنه اذا أعوزه الورق كان يكتب على جدران البيت وأخشاب النوافذ والأبواب وهذا يبرز لنا صورة فتى يعيش في بلدة كان عدد سكانها لا يتجاوز ستة آلاف نسمة(١٦) ويحمل في أعماق نفسه عطشاً كبيراً للمعرفة وقد قيل ان الكتاب كان سميره والقلم رفيقه وخليله .

في سنة ١٨٦٠ فتحت أبوابها مدرسة الذكور التي أسستها الارسالية الانجيلية الأميركية في اللاذقية(١٧) • التحق الشاب بها وعلى مقاعدها تمكن من قواعد اللغة العربية التي كان متشوقاً لمعرفتها • وكان يقضي أوقات فراغه بالمطالعة ويخبرنا أسعد خليل داغر أن من بين الكتب التي قرأها ودرسها في هذه المرحلة « شرح ألفية ابن مالك » لابن عقيل وكتاب « فصل الخطاب » وكتاب « نقطة القوافي » وكلاهما للشيخ ناصيف اليازجي • كما أتقن اللغة العربية والخط العربي اتقاناً فائقاً وكذلك اللغة التركية وحصل على بعض الالمام باللغات الفرنسية والانكليزية والايطالية وبهذا كان يتفوق على أبناء جيله في اللاذقية •

عيِّن في سنة ١٨٦٦ ترجماناً لقنصلية أميركا في اللاذقية ثم تعاطى التجارة فترة ولكنه لم ينجح في هذا المجال • انما أمَّن بعض الربح باشتراكه في التزام اعشار قضائي اللاذقية وجبلة ، الأمر الذي مكنه من تحسين هيئة داره، مع العلم أن منزله كان يقع في شارع هنانو الحالي وأصبح فيما بعد ملك سليم نصري وقد تحول اليوم الى فندق رمسيس •

في سنة ١٨٦٩ كلفته الارسالية الانجيلية أن ينظم سفر المزامير شعراً بالعربية كي ينشد بهذه اللغة أثناء العبادة • وفي سنة ١٨٧٠ عين مراسلاً لكل من مجلة الجنان وجريدة الجنة اللتين كان يصدرهما في بيروت الشيخ بطرس البستاني •

في سنة ١٨٧١ عقد خطبته على فتاة يونانية مقيمة في بيروت اسمها لوكيا بتروفيتش(١٨) وذلك عن طريق نسيبها مطران اللاذقية ملاتيوس دوماني • وبعد حوالي خمسة أشهر سافر الى بيروت وأتى بها الى اللاذقية حيث تمَّ اكليله عليها • كانت الفتاة في السادسة عشرة من عمرها ، أما هو فكان في الثانية والثلاثين • وتصفه المصادر بأنه كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون •

في تشرين الثاني ١٨٧٢ عند سفر قنصل أميركا الى الخارج ، تولى مؤقتاً ادارة القنصلية • ثم شرع بتأليف تاريخ مدينة اللاذقية وبدأ بكتابته في سنة ١٨٧٣ • وفي أواخر ايلول ١٨٧٤ سافر الى مصر ليطبع ترجمته لسفر المزامير ، وبقي هناك حتى حزيران ١٨٧٥ وفي تموز من السنة نفسها استقال من وظيفته في القنصلية الأميركية لينصرف الى الخدمة في جهاز الدولة فانتدب لعضوية مجلس دعاوى القضاء ، وعند تشكيل محكمة البداية انتخب عضواً فيها وظل انتخابه يتجدد لما كان يتمتع به من كفاءة ونزاهة ووطنية صادقة ولما كان يولي الناس من نفع وخدمات • وفي هذه الفترة عين رئيساً للجمعية الخيرية الأرثوذكسية • وهكذا أصبح يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع وفي الأوساط الحكومية ونراه يلعب دوراً هاماً في المساعي التي بذلت لرفع اللاذقية من رتبة قائممقامية الى رتبة متصرفية ، وقد كلف في سنة ١٨٧٩ بوضع مذكرة بهذا الخصوص كي ترفع الى الوالي مدحت باشا • كما تتجلى مكانته الأدبية بالعلاقات الوثيقة التي كانت تربطه بعدد من الأدباء والشخصيات في المدن السورية واللبنانية وفي مصر •

لا تذكر المصادر في أي تاريخ بالضبط ابتدأ وضعه الصحي بالتأزم • هل حصل ذلك في سنة ١٨٨١ اذ نراه في تلك السنة يتوقف فجأة عن متابعة كتابة تاريخ اللاذقية ؟.. كل

ما تقوله المصادر أنه انقطع عن الخدمة ليتعالج في اللاذقية وفي بيروت، وفي الوقت نفسه تخبرنا أنه مات بعد مرض قصير المدة . كان عمره آنذاك ستاً وأربعين سنة وله صبي(١٩) وأربع بنات وكلهم أطفال صغار .

كانت وفاته في ١٥ ايلول سنة ١٨٨٥ عند الفجر . وشيعت جنازته في الساعة الأولى من بعد الظهر واشترك فيها موظفو الدولة ووكلاء القناصل وأعيان المدينة ، وصلي على جثمانه في كنيسة مار سابا ودفن في المقبرة التابعة لها، وبعد الصلاة قام بتأبينه بعض الأدباء(٢٠). وفي سنة ١٩٤٦ عندما هدمت الكنيسة المذكورة لتبنى مكانها الثانوية الوطنية نقلت المدافن التي بجوارها الى مقبرة الفاروس وتثوى الآن رفاة الياس صالح في هذه المقبرة تحت باقة من أشجار السرو وعلى ضريحه نقرأ هذه الأبيات التي نظمها أسعد خليل داغر :

كريم بهذا اللحد بات موسدا — عليه غدا طرف المكارم نائحا

عماد العلى الياس صالح مذ هوى — على كل قلب خطبه شقَّ فادحا

مضت عينه عنا وآثار فضله — يظل شذاها في الملا الدهر فائحا

أتاه من المولى الملاك مبشراً — للقاه أحضان المسرة فاتحا

وناداه اذ لله أرخته لجا — لالياس أضحى موطن الخلد صالحا

☐ المؤلفات :

أول مؤلف مطبوع هو « خطبة في حقيقة التهذيب »(٢١) انه كراس صغير يقع في أربعة وعشرين صفحة . أهميته تكمن في أنه يعبر عن الأفكار التي كانت تجول في خاطر شاب كان في السابعة والعشرين من عمره يعيش في بلدة أصبح عدد سكانها حوالي أحد عشر الف نسمة(٢٢) .

يدعو الياس صالح في بحثه هذا الى ضرورة الاهتمام باللغة العربية وينتقد الطريقة التي كانت تدرس بها في تلك الأيام فيقول : « ان تدريس اللغة العربية في المكاتب البسيطة ليس هو الا عبارة عن تعليم تهجئة الألفاظ والنطق بها سواء فهم معناها أم لم يفهم... ولا يخفى أن الألفاظ هي قوالب للمعاني فمن تعلم اللفظ دون معناه تعلم عملاً ميتاً لا منفعة فيه » . وهو يعتبر أن من واجبات الجيل الجديد تهذيب العقول بالعلوم . لذلك يدعو الى التخلي عن الكسل والتسلية في المقاهي ويحث الناس على المطالعة التي كانت في مجتمع اللاذقية آنذاك المنفذ الوحيد للمعرفة . وعن الذين يهملونها يقول : انهم « وقفوا على الحدود التي وصلوا اليها حين خروجهم من المدرسة ومع الترك والاهمال قد ينسون جزءاً كبيراً مما تعلموه . فكأنهم يعتقدون أنه لا يجوز للمتعلم أن يجاوز ما تعلمه في المدرسة أو أنه لا يقدر أن يكتسب شيئاً خارجاً عنها مع أننا نعلم أن كثيرين من التلاميذ المنسوبين الى التقصير وهم داخل المدرسة قد برعوا بعد خروجهم منها ووصلوا الى درجة معتبرة من العلوم بجهد المطالعة والاعتناء وان كثيرين من المشتهرين بالبراعة وهم داخل المدرسة قد

تقهقروا الى الوراء بعد خروجهم منها وماتت براعتهم لقلة اعتنائهم وتركهم المطالعة » .
ويقول أيضاً : « كما يعتني الانسان بتغذية جسده بالمأكول والمشروب يجب أن يعتني بنوع أخص بتغذية عقله بالعلوم والمعارف بواسطة البحث والمطالعة » .

ويطالب الشبان بعدم تقليد عادات البلاد الأجنبية ويحثم على تهذيب أنفسهم بما يسميه المحبة الوطنية فيقول : « ان من أركان التهذيب العظمى المحبة الوطنية فان بها تعقد رباطات الاتحاد على كل ما من شأنه أن يكسب الوطن زهواً ورونقاً وأبناءه تقدماً ونجاحاً ... فمن الواجب على كل وطني أن ينظر الى عموم أبناء الوطن بعين واحدة ويمد يد المساعدة على قدر وسعه لتقوية وسائط نجاحهم » . ومن جهة أخرى يؤكد على ضرورة تعليم النساء فيقول : « ان المرأة اذا اشغلت أوقاتها الفارغة بمطالعة الكتب المفيدة تكون منفعتها لنفسها ولزوجها ولأولادها ولبيتها أكثر مما اذا جلست في زاوية الجهل كالآلة الصامتة » ويختم بحثه بهذه القصيدة :

فجر العلوم على أرجائكم طلعا ... فنبهوا منكم الطرف الذي هجعا
وشاهدوا الكون في هذا الزمان تروا ... نور التهذب في أقطاره سطعا
دعوا الفتور وجاروا يا بني وطني ... في العصر مَنْ مِنْ بنيه بالهدى برعا
لا يقنط المرء اذ قد جاز سن صبا ... فالعلم يفتح أبوابا لمن قرعا
وليس للمرء من فضل يزان به ... ان لم يكن في نهاه للعلوم وعى
ذوقوا المعارف يبدو طعم لذتها ... لمن يذوق فما يدر به من سمعا
واتلوا المصاحف بالامعان واختبروا ... منها الحقائق واستهدوا لما نفعا
ليس التهذب في تقليد من نسبوا ... اليه ان لم يكن بالعلم قد شفعا
ها العصر يسرع ركضاً في تقدمه ... وليس ينجح الا من له تبعا
ومن قنى العلم يجن من فوايده ... لا بد للمرء من حصد اذا زرعا

المؤلف المطبوع الثاني هو « بهجة الضمير في نظم المزامير »(٢٣) . المعروف أنه في الكنيسة الانجيلية تنشد المزامير وفق ألحان معينة وكل بلد في العالم ينشدها طبعاً بلغته . وفي سنة ١٨٦٩ عندما نشأت في اللاذقية طائفة بروتستانتية كان في بادىء الأمر يوضع بين أيدي المصلين كتاب يحمل نص المزامير باللغة الانكليزية فطلب من الياس صالح، كما ذكرنا، أن يسبك المزامير بالعربية لترنم بهذه اللغة . وكان عملاً في غاية الصعوبة اذ كان على المترجم أن يضع نصاً يحافظ فيه على المعنى الأصلي وذلك في قالب من النظم يتفق مع اللحن الموسيقي الموضوع للنص الانكليزي .

ومن بين مخلفات الياس صالح المطبوعة يجب أن نشير الى الرسائل التي نشرها في كل من مجلة « الجنان » وجريدة « الجنة » عندما أصبح مراسلهما في اللاذقية . ففي سنة ١٨٧٠

بعث الى مجلة الجنان عدداً من الرسائل ومن ١٨٧١ حتى ١٨٧٧ بعث الى جريدة الجنة بشكل منتظم عدداً كبيراً من الرسائل(٢٤)ورسائله كلها تتناول الحوادث التي جرت خلال تلك الفترة في اللاذقية وفي قضائها ·

ونذكر أخيراً من بين المؤلفات المطبوعة قصائده المنشورة سنة ١٩١٠ في كتاب « مراثي وديوان المرحوم الياس صالح » · ان الأديب المعروف ادوار مرقص هو الذي قام بجمع القصائد وتبويبها كما أشرف على الطباعة وذلك بتكليف من رفيق صالح الذي كان وقتئذ مقيماً في السودان · ويتضمن الكتاب ترجمة الياس صالح التي كتبها أسعد خليل داغر ويليها قسم المراثي حيث نجد ما قيل فيه عند وفاته وكذلك نعيه من قبل الصحيفتين القاهريتين الأهرام والمحروسة ·

أما القصائد فوزعت على سبعة أبواب · الباب الأول خاص بالغزل والنسيب ويتضمن الباب الثاني رسائل شعرية الى بعض الأقرباء والأصدقاء والأدباء · ونجد في الباب الثالث المدائح والتهاني · وفي الباب الرابع المراثي والتعازي · أما الباب الخامس فمكرس لأغراض شتى منها تخاميس لقصائد معروفة · ويتضمن الباب السادس أناشيد في مدح مريم العذراء · أما الباب السابع والأخير فيحتوي تواريخ لولادات وأكاليل ووفيات وفيه أيضاً ابيات نقشت على أضرحة ·

هذه بعض المقتطفات في الغزل :

قسماً بناظرك الكحيل الجارح · لولاك ما علق الهوى بجوانحي
قد كنت أحسب بعدما ولّى الصبا · ان الهوى ولّى كأمس البارح
فاذا به لمّا بدوت لمقلتي · قد عاد يسري في جميع جوارحي
لله كم قاسيت فيك وكم حلا · لي في الهوى مرّ العذاب الفادح
واذا خسرت بحبّك النفس التي · عزّت أراني كنت عين الرابح

* * *

حور العيون سطت فاين المهرب · من فتكها وهي المنى والمطلب
تدمي القلوب فيستطاب جراحها · وتتيح للصبّ العذاب فيعذب
فتّاكة ملائكة قد أصبحت · نظراتها عن سحر بابل تعرب
تقسو على مفتونها مع انّها · تسبي برقّتها العقول وتنهب
ممشوقة الاعطاف قد أضحى بها · قلبي على جمر الغضا يتقلّب

* * *

حتّامَ تصبو يا فؤاد وتكلف ... وتكلّف العين البكاء فتذرف
وتميل نحو الغانيات فتنثني ... عنها وأنت من المعاطب متلف
وتجاذبتك الغيد حتى قد غدت ... بك كل خود في الهوى تتصرّف
حتى غدوت اليوم تشكو هائماً ... ألم الجراح وأنت مضنى مدنف
بك قد فتنت أيا مليحة فاعطفي ... كرماً على دنف أتى يستعطف
واذا عشقت فاستحيل صبابة ... واذا وعدت فانني لا أخلف
واذا اختبرت شمائلي تجدينني ... أني بمدرسة الغرام مثقّف

* * *

نضت النقاب فقلت بدر مشرق ... ورنت فقلت غزال سرب يرمق
وتمايلت تثني القوام فماثلت ... غصناً ولكن بالمحاسن يورق
أرخت غياهب فرعها فأماطها ... صبح بدا من فرقها يتألّق

* * *

بقيّة عشق في الفؤاد تجول ... فيضنى بها جسم لذاك نحيل
وتنشر بي الوجد القديم الذي انطوى ... فيشتدّ بي بين الضلوع غليل
تملّك قلبي حبّهنّ وحلّ بي ... هيام الى تلك الوجوه وبيل
رعى الله أياماً بها دار بيننا ... لصفو بكاسات الهناء ثمول
نعمت بها عيشاً ولم أك حاسباً ... سناها على مر الزمان يزول
سقاني صرف الدهر صرف مرارة ... يبين له القلب الكليم عليل

ومن بين الحكم التي يتضمنها الديوان هذه الأبيات :

حياة المرء تمضي كالخيال ... وما في الكون طرّاً للزوال
ومن يرجو بذي الدنيا قراراً ... كمن يرجو النهار من الهلال
رويدك عاشق الدنيا غروراً ... فأنت تهيم في وادي الضلال
فلا تطمع برغد العيش واعلم ... بان من المحال دوام حال

ونقرأ في الديوان القصيدة التي نظمها بمناسبة قدوم والي سورية مدحت باشا الى اللاذقية وكان له الفضل في رفعها الى رتبة متصرفية . وصل الوالي الى مدينتنا عن طريق

البحر في شهر آب من سنة ١٨٧٩ وأقام فيهابضعة أيام بقيت المدينة خلالها مزينة بالأعلام واقيمت على شرفـه الاحتفالات والمادب(٢٥)والمعروف أن مدحت باشا كان محبوبا من قبل السوريين بسبب رغبته في اجراء اصلاحات في البلاد • ففي هذا الجو مـن السرور والغبطه الذي عمّ أرجاء اللاذقية قدّم الياس صالح الى الوالي القصيدة التاليـه :

مقـل الورى ايـاك أمست تـرصـد ... يا كـوكبـاً فيـه المطـالـع تسـعدُ
يا مدحت العصـر الذي بـك فخره ... ونتيجـة الدهـر الذي بـك يحمـدُ
انظـرْ ترَ الدنيـا اليـك مشيرةً ... بغـزير فضلك في البريـة تشـهدُ
ونواظـر الأنـام فيـك شـواخصـاً ... اذ أنت بينهـمُ عجيـبٌ مفـردُ
وربـوع سـوريـا تتيـه فـانهـا ... أضحت عليـك مـن الممالـك تحسدُ
أشـرقت فيهـا ماحيـاً ظلـم الشـقا ... فـلأنت في فلـك السـعادة فـرقـدُ
ولك السياسـة قـد عنت وتـذللت ... وجـلا خفـاهـا فكـرك المتـوقـدُ
أحييـت آمـالاً لأهــل ولايــة ... ظـل الزمـان بهـا يعيث ويفسـدُ
فتيقنـوا الاصـلاح حتمـاً بعـدمـا ... عـلـوه أمـراً يستحيـل ويبعـدُ
شـرّفت أرض الـلاذقيـة منـةً ... فشـدا بهـا طـير السرور يغـرّدُ
واخضـرت الآكــام في أرجائهـا ... زهـوا وأهلـوهـا بوفـدك عيـّدوا
طـوّقتهـم اذ قـد أعـدت لواءهـم ... مننـاً تـدوم على المـدى وتـؤبـدُ
لا بـدع ان أحييت ميتّ قطـرنـا ... وأعـدت رونقـه لـه يتجـدّدُ
أنت الخليـق بفعـل كـل عجيبـة ... فنمـا لـك الفضـل الذي لا ينفـدُ
وبأحرف الذهب اسمك السامي غـدا ... في صحف تاريـخ الـدهـور يخلـّدُ
فاجـرر ذيـول المجـد دومـاً رافـلاً ... بالعـزّ يخـدمـك العلى والسـؤددُ

ننتقل الى المؤلفات غـير المطبوعة مـع العلم أنه لم يصل الينا الا واحدة منها • لقد عثرنا على لائحة بخط رفيق صالح تعدد كل المخطوطات ، الأمر الذي يسمح لنـا بتحديـد المؤلفات المفقودة •

تذكر اللائحة أربعة مؤلفات معربة عن التركيـة وهي :

- « قانون التجارة الهمايوني » •
- « قانون الرسوم التي تؤخـذ في المحاكم العثمانيـة » •

- « ما لم يعرب من النظامات المتعلقة بالمحاكم النظاميـة » .
- « احكام ونظامات وتعليمات الولايات في الحكومة العثمانية » .

وتذكر اللائحة كتابين مترجمين عن الفرنسية همـا :

- مذابح سورية سنة ١٨٦٠ » لفرانسوا لونورمان(٢٦) .
- « رسائل مسيو بوجولا عـن سياحته في اللاذقية والوانها سنة ١٨٣١ »(٢٧) .

وتشير اللائحـة الى « مخطوطات أدبيـة شتى » . غير أنها لا تذكر « اليوميات » وأسعد خليل داغر هو الوحيد الذي نوه عنهـا(٢٨) ، انـه يخبرنا أن اليـاس صالح ، اعتباراً مـن سنة ١٨٧٥ ، اخذ يدون « يومية حياته مبتدئاً بذكر نسبه ومنشأ أسرته بالتطويل ثم تتبـع بعدها مجرى الحوادث التي عرضت له والخطط التي سلكها والمهـن التي احترفها والوظائف التي تقلدها في حياته الى نهاية ١٨٧٨ » .

المخطوط الوحيد الذي وصل الينا هو الذي يحمل عنوان « آثار الحقب في لاذقيـة العرب » . وهو اهم ما خلفه الياس صالح كما انه اهم ما كتب حتى الآن عن تاريخ مدينتنا . انه مخطوط في ثلاثـة مجلدات يقـع في ٦١٤ صفحة وهو بخط يده . لقد بدا بتأليفه سنة ١٨٧٣ وتوقف عن متابعة كتابته سنة ١٨٨١ .

يقسم هـذا المؤلف الى قسمين . عنوان القسم الأول « في جغرافية اللاذقيـة ووضعها الحالي » وهو يشكل ربع الكتاب تقريباً . انه دراسة مفصلة ودقيقة ، موثقـة بالاحصاءات والارقام عن وضع المدينة في سنة ١٨٧٣ أي في الوقت الذي كان يكتب فيه دراسته . ويتألف هذا القسم من عدة فصول يتناول فيها موقع اللاذقيـة الجغرافي وعـدد سكانهـا ومنازلها والمباني الآثرية الموجـودة فيهـا وتجارتهـا وصناعتها ووضـع سكانهـا الاجتماعي كمـا يتناول اللواء التابـع ادارياً لمدينة اللاذقيـة فيبحث في مدنه ومبانيـه التاريخية وسكانـه وأحوالهم وأنهره وحيواناته ومحاصيله وحالة الزراعة فيه ودخل الدولة في اللواء وخرجها . أما القسم الثاني فعنوانه : « تاريخ لاذقيـة العرب » ويتألف بدوره مـن ثلاثة فصول . يروي الفصل الأول تاريخ المدينة مـن البدء حـتى الفتح العربي ويتناول الفصل الثـاني اللاذقية أثناء الفتح العربي والحروب الصليبية وعهـد المماليك . ويبحث الفصل الثـالث في المدينة تحت لواء الدولة العثمانية .

سؤال يطرح حول المراجع التي استقى منها معلوماته . فلو كان في زمنه تاريخ لمدينة اللاذقية من وضع أحد العلماء الأجانب وموثق بالمراجـع لقلنـا ان الياس صالح اكتفى بأن ينقل الى العربية ما وجده في مؤلف غريب أوعلى الأقل أنه استفاد من المراجع الموجودة فيه عوضاً مـن أن يفتش عنها بنفسه . ولكننـا نعرف أن أقدم تاريخ للاذقية وضع في الخارج هو للعـالم البلجيكي Ernest HONIGMANN ، نشر القسم الأول منـه سنة ١٩٢٤ في دائرة المعارف الألمانية . والقسم الثاني سنة ١٩٣٦ في دائرة المعارف الاسلاميـة ، أي بعـد وفاة

الياس صالح بعدة عقود • لذلك لا بد من أن نفترض أنه توصل الى المراجع التي يحتاجها بحثه بجهده الخاص وقد عبّر ابنه رفيق صالح عن هذا الجهد بالبيتين التاليين :

واللاذقية أمثنا بك تزدهي أيضاً بتاريخ عظيم الشان
جاهدت في التحقيق والتدقيق والـ تنقيب والتدوين والامعان

في سياق حديثه عن العصور القديمة والقرون الوسطى نراه يشير صراحة الى بعض المراجع الكلاسيكية والفرنجية والعربية وأحياناً الى أبحاث حديثة(٢٩) • ومن الواضح ، عندما نقرأ تاريخه ، انه كان متمكناً من معلوماته فهو يروي الحوادث التي مرت على مدينتنا ، في تسلسلها الزمني ومع الكثير من التفاصيل فلا مجال أن نتصور أنه استند على معلومات مبعثرة هنا وهناك في كتب الرحالة الأجانب • فلا شك أن الياس صالح عند وضع كتابه كان مطلعاً على عدد كبير من المراجع وليس فقط تلك التي أشار اليها صراحة • وهذا يطبق أيضاً على اللمحة التي قدمها عن المباني الأثرية في اللاذقية وفي قضائها • فالسؤال الذي يطرح هو كيف توصل الياس صالح الى هذه المراجع؟. ليس هناك مشكلة بالنسبة للمؤلفات العربية اذ كان بوسعه أن يطلع عليها في المكتبات الموجودة آنذاك في اللاذقية أمثال مكتبة الشيخ محمد سعيد الأزهري ومكتبة الشيخ عبدالفتاح المحمودي ومكتبة الحاج محمد صالح الصوفي ولا يستبعد أن يكون قد اقتنى بنفسه بعضاً منها ولكن الأمر يختلف كلياً بالنسبة للمراجع المتعلقة بالعصور القديمة وبالعهد البيزنطي وبالحروب الصليبية وكذلك بالمباني الأثرية• **وهذه المراجع نادرة جداً ولا توجد عادة ، حتى في يومنا الحاضر، الا في المكتبات العامة الكبرى.** واذا سلمنا جدلاً أنه اقتبس الكثير من مؤلفات الرحالة ، فهذه المؤلفات هي أيضاً نادرة وليس من السهل الوصول اليها • نذكر بالمناسبة أنه لا يشير في مخطوطه صراحة الا لكتاب الرحالة بوجولا • ولا شك أن هذا الكتاب كان بحوزته اذ رأينا أنه قام بترجمة قسم منه •

كيف توصل الياس صالح الى المؤلفات التي استند اليها ..؟ هل كانت متوفرة في اللاذقية ؟.. لقد فهمنا أن مكتبة الارسالية الأميركية ومكتبة دير اللاتين لم تكونا تحتويان على كتب من هذا القبيل • لذلك يجب أن نفترض أنه وجد مطلبه خارج مدينته • ولا تذكر المصادر أنه غادر مسقط رأسه سوى ثلاث مرات ، المرة الأولى سنة ١٨٧١ عندما ذهب الى بيروت ليأتي بالخطيبة ولا نتصور أنه استطاع خلال سفره السريع هذا أن يجد الفرصة لقضاء الوقت الضروري في احدى المكتبات العامة • أما رحلته الثانية فكانت الى مصر في ايلول ١٨٧٤ ، صحيح أنه كان بالامكان خلال ثمانية الأشهر التي مكثها هناك أن يتفرغ للبحث العلمي ، انما يجب ألا ننسى أنه كان عندئذ قد قطع شوطاً كبيراً في كتابة تاريخه وكان قد انتهى من العصور القديمة والقرون الوسطى • وأما بالنسبة لسفره الثالث الى بيروت من أجل التداوي فكان وقتها قد توقف نهائياً عن كتابة تاريخ اللاذقية ، بناء على ذلك يبقى السؤال الذي طرحناه دون جواب الا اذا ثبت يوماً أنه قام بسفر لم تذكره المصادر أو أنه كلف في الخارج من أمّن له المصادر التي يحتاجها •

هذا بالنسبة للفصلين الاولين من الكتاب أما بالنسبة للفصل الثالث المتعلق بالعهد العثماني فوضعه يختلف كليا بخصوص المراجع • فنراه في البدايه يعتمد على بعض الروايات المكتوبه كالتي يجدها في هوامش الكتب الكنسيه(٣٠) ثم يعتمد على روايات متوارثه شفويا من جيل الى جيل لا سيما اذا لم تكن ببعيدة عنه • نذكر على سبيل المثال زلزال ١٧٦١ وزلزال ١٨٢٢ وقصة حنا كبه فاذا كان يتحدث عنها بدقه ويكثر من التفاصيل فلانه سمع اخبارها وهو شاب من اناس كانوا لا يزالون على قيد الحياة وبعد ذلك صار يتحدث عن حوادث شاهدها بنفسه •

ياخذ الكتاب طابعا جديداً اعتباراً من سنة ١٨٧٢ اي بعد أن اتم كتابة المقدمة الخاصة بوضع المدينة انذاك وانتهى من رواية تاريخها من البدء حتى سنه ١٨٧٣ • فصار اعتباراً من تلك السنة يدون الحوادث عند حدوثها - لقد انتهى من تاريخ الماضي وابتدا يكتب « تاريخ الحاضر » اذا صح هذا التعبير ، لذلك أصبح الكتاب يشبه اليوميات• وهنا يجب ان نقول صراحة ان الياس صالح في هذا القسم من مؤلفه يفقد شيئا من موضوعيته والمعروف أن المؤرخ معرض أن يتاثر بميوله وارائه الخاصة عندما يتحدث عن حوادث يعيش في وسطها ، وبعد ذلك نرى رواية الحوادث تتوقف فجاة في سنة ١٨٨١ رغم أن الياس صالح بقي على قيد الحياة حتى سنة ١٨٨٥ •

ما قيمة هذا الكتاب العلمية بالنسبة للمعلومات التي يقدمها اليوم للباحث ؟.. لا شك أن ما ورد في الفصلين الأول والثاني عن المدينة في العصور القديمة والقرون الوسطى يمكن حاليا معرفته عن طريق مراجع أخرى • لذلك نعتقد أن أهمية مخطوط الياس صالح تكمن في الفصل الثالث الخاص بالعهد العثماني وفي المقدمة عن وضع اللاذقية عند المباشرة بالتاليف ، لأن المعلومات التي يعطينا اياها بغزارة عن هذه الحقبة من تاريخ مدينتنا لا توجد بهذا الشمول وهذه الكثرة الا في هذا المؤلف •

ما كان مصير المخطوط بعد وفاة مؤلفه؟.. كان ابنه رفيق صالح عندئذ في السادسة من عمره فليس هو من وجد المخطوط بين الوثائق التي تركها والده • اننا نعلم أن شقيقه يوسف صالح هو الذي أخذ على عاتقه تربية أولاد الياس صالح الصغار لذلك نميل الى الاعتقاد أنه هو الذي اعتنى بالحفاظ على المخطوط • على كل حال يبدو أن وجوده لم يكن مجهولا اذ ان مقال مجلة الجنان الذي نشر بعد الوفاة بخمسة عشر يوماً يذكره بين مؤلفات الياس صالح • ومن جهة أخرى نشرت مجلة النور التي كانت تصدر في اللاذقية مقاطع من المخطوط تارة بالنص الحرفي وتارة مع تلخيصه او مع تعديلات طفيفة وذلك في أعدادها ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من سنة ١٩٢٥ والعدد ٢ من سنة ١٩٢٦(٣١) وبعد ذلك اصبح شبه منسي لا يعلم بوجوده الا القليلون رغم أن بعض المراجع تأتي على ذكره •

لقد نشرنا في سنة ١٩٥٨ بعض المعلومات الواردة فيه في بحثنا عن تاريخ التبغ في اللاذقية(٣٢) كما نشرنا في سنة ١٩٦٠ بعض المعلومات المستقاة منه في دراستنا عن دير الفاروس(٣٣) وقد فهمنا مؤخراً أن حفيده السيد كمال صالح مزمع على القيام بنشره •

وفي النهاية نورد هنا ما صرحنا به في البحث الذي ألقيناه سنة ١٩٨٦ أثناء أسبوع العلم(٣٤) : « أن الأسماء التي تطلق على شوارع مدينة وعلى ساحاتها لها دور في احياء التاريخ لما فيها من اشارة الى حوادث هامة أو من تكريم شخصيات برزوا في المجال القومي والمجال الحضاري ··· نذكر أنه لا يوجد في مدينتنا شارع واحد يحمل اسم شخص من اللاذقية ··· نعتقد أنه علينا واجب تجاه أدباء اللاذقية الذين عاشوا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وكان لهم دور كبير من الناحية الثقافية وقد ساهموا في نقل اللاذقية من جو القرية الى جو المدينة ». واقترحنا أن يعطى لشارع من اللاذقية اسم بعض هؤلاء الأدباء ومن بينهم الياس صالح اللاذقي(٣٥) ·

□ الحواشي :

١ ـ مجلة الجنان ، بيروت ، الجزء السادس عشر ، اول تشرين الاول ١٨٨٥ ص ٤٨٦ ، « مراثي وديوان المرحوم الياس صالح » ، المطبعة الوطنية ، اللاذقية ١٩١٠ ص ١ ـ ٣٣ ؛ عيسى اسكندر معلوف ، مجلة النعمة ، دمشق ، السنة الثانية ، الجزء الخامس ١٩١٠ ؛ الأب لويس شيخو : « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٠ ؛ الأب لويس شيخو ، مجلة المشرق ، العدد الثاني ١٩١١ ؛ الشيخ أنطوان جميل ، مجلة الزهور المصرية (لا تذكر المصادر التي لدينا تاريخ العدد) ؛ رفيق بك التميمي ومحمد بهجت بك : « ولاية بيروت » ١٩١٨ ، المجلد الثاني ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ ؛ نصر الله طليع : « مشاهير اللاذقية ، الياس صالح اللاذقي « مجلة النور » ، اللاذقية ، الجزء الثاني ، تموز ١٩٢٥ ص ٨٤ ـ ٨٦ ؛ جبرائيل سعادة : « محافظة اللاذقية » ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦١ ص ١٨٦ ؛ نبيهة حداد : « الحياة الثقافية في الساحل العربي السوري » ، مجلة العمران ١٩٦٨ ص ١٩٤ ؛ « المنجد في الأعلام » الطبعة العاشرة ، دار المشرق ، بيروت ص ٤٢٠ ؛ خير الدين الزركلي : « الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين » دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ الجزء الثاني ص ١٠ ـ ١١ ·

٢ ـ « مراثي وديوان المرحوم الياس صالح» المذكور أعلاه ص ٨ ـ ٩ ·

٣ ـ المرجع نفسه ص ١٢ ·

٤ ـ المرجع المذكور أعلاه ·

٥ ـ بالنسبة لأسرة صالح اعتمدنا على الشجرة العائلية التي وضعها رفيق بن الياس صالح · هي وثيقة مكتوبة بخط يد عنوانها « أرومة صالح ١٧٣٠» وقد انتهى من تنظيمها بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٤٦ قبل وفاته بيومين ، وهي موجودة حالياً عند نجله السيد كمال صالح · تتضمن هذه الوثيقة ، علاوة على فروع الشجرة ، لمحة عن اهم شخصيات الأسرة · وقد رجعنا أيضاً في هذا المجال الى ماجاء في مخطوط الياس صالح : « آثار الحقب في لاذقية العرب » المجلد الأول ص ١٦٠ ـ ١٦٦ ·

٦ ـ خليل صالح لا يهم هذا البحث · يمكن الرجوع الى ما جاء عنه في « أرومة صالح ١٧٣٠ » ·

٧ ـ سالم صالح لا يهم هذا البحث · يمكن الرجوع الى ما جاء في « أرومة صالح ١٧٣٠ » ·

٨ ـ لا مجال ان نتحدث هنا عن حنا كبة (١٨٦٢ ـ ١٨٠٣) وعن الدور الذي لعبه في اللاذقية · توجد قصته مفصلة في آثار الحقب في لاذقية العرب » المجلد الأول ص ١٥١ ـ ١٦٠ ، وقد أتى على ذكره عيسى اسكندر معلوف ، المصدر نفسه ونجد لمحة عنه في « أرومة صالح ١٧٣٠ » · وأشرنا اليه في مقالنا : « من كنوز اللاذقية المجهولة ، قصة بناء أثري » مجلة التراث العربي ، تشرين الأول ١٩٨٠ ص ١١٥ ـ ١٣١ · نشير انه كان لحنا كبة ابنة اسمها ايرين وابنان هما جرجس وديمتري ·

٩ ـ توفي الياس فتى في يافا ·

١٠ـ توجد رواية هذه الحوادث في « أرومة صالح ١٧٣٠ » ·

١١ـ يقول أسعد داغر في ترجمته ان موسى صالح أنجب خمسة أولاد ذكور بينما لا نرى في « أرومة صالح ١٧٣٠ » الا أسماء ثلاثة أولاد ذكور هم الياس موضوع بحثنا وسليم (١٨٤٤ ـ ١٩١٤) ويوسف (١٨٤٧ ـ ١٩١٧) ·

١٢ـ المرجع المذكور أعلاه ·

١٣ـ في « مراثي وديوان المرحوم الياس صالح » ص ١ ـ ٧ • أما أسعد خليل داغر فهـو اديب لبناني الأصـل عاش في اللاذقية اثنتين وعشرين سنة متوالية واشتغل بالتدريس في المدرسة الانجيلية فيها • راجع بخصوصه ادوار مرقص : « ديوان » المطبعة التجارية اللاذقية ١٩٣٥ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥ ؛ خير الدين الزركلي،المصدر نفسه،الجزء الأول،ص٣٠٠ •

١٤ـ المرجع المذكور أعلاه •

١٥ـ ورد خطا مطبعي في ترجمة أسعد داغـر فجعلت سنـة الولادة ١٨٣٦ عوضاً من سنة ١٨٣٩ وقد تسرب هذا الخطا الى بعض المراجع رغم انه أشير اليه في « الاستدراك » •

١٦ـ يبدو ان عدد سكان اللاذقية نزل الى هذا الحد بعـد زلزال ١٧٩٦ الذي هدم قسماً من المدينة وزلزال ١٨٢٢ الذي ألحق بها بعض الأضرار • بعض الرحالة الذين زاروا اللاذقية خلال هذه الفترة يذكرون رقماً يتراوح بين أربعة وستة آلاف نسمة • (من بين هؤلاء : J. POUJOULAT, R. P. LAOORTY-HADJI, W. M. THOMSON)

١٧ـ راجـع : James McKinnis BALPH: « Fifty Years of Mission Work in Syria » Pittsburgh 1913 p. 26.

١٨ـ هي لوكيّا ابنة تيودوري بتروفيتش • ولدت في استنبول سنة ١٨٥٥ وتوفيت بعطبرة (السودان) في ٤ تموز ١٩٢٤ •

١٩ـ هو رفيق صالح الذي آتينا على ذكره • ولد في ٢٠ آب ١٨٧٩ وتوفي في ٢٢ كانون الأول ١٩٤٦ •

٢٠ـ ان الكلمات والقصائـد التي القيت يومـذاك او التي نشرت بمناسبة وفاته ، موجودة في « مراثي وديوان المرحـوم الياس صالح » المذكور أعلاه ص ٨ ـ ٣٣ •

٢١ـ « خطبة في حقيقة التهذيب » ، المطبعة العمومية ، بيروت ١٨٦٦ ، نشر نص هذا الكراس من جديد في مجلة البنـاء البيروتية ، العدد ٦٣٦ ، ١٨ حزيران ١٩٨٨ ص ٦٢ ـ ٦٤ •

٢٢ـ حسب الاحصاء الذي تم في سنة ١٨٦٦ •

٢٣ـ الطبعة الاولى في المطبعة الاميركيـة بالاسكندرية سنـة ١٨٧٥ ، الطبعة الثانية في بيروت سنة ١٨٨٣ وتتالف هذه الأخيرة من ٨١٤ صفحة •

٢٤ـ لقد اطلعنا على الرسائل التي تمكن الأستـاذ هاشم عثمان من العثور عليها ، منها خمس رسائل نشرت سنة ١٨٧٠ في مجلة الجنان واثنتان وأربعون رسالة نشرت في جريدة الجنـة •

٢٥ـ راجع كتابنا « المختصر في تاريخ اللاذقية » اللاذقية ١٩٨٤ ص ٤٦ ـ ٤٧ •

٢٦ـ F. LENORMANT: « Une persecution chrétienne en 1860; les derniers événements de Syrie

٢٧ـ J. MICHAUD et J. POUJOULAT: « Correspondance d'Orient, 1830-1831 » Paris 1833 - 1835

هو كتاب كبير في سبع مجلدات لم يترجم الياس صالح منه سوى القسم المتعلق باللاذقية (المجلد السابع ص١٦٥ ـ ١٧٥) •

٢٨ـ أسعد داغر ، المصدر نفسه ص ٥ ـ ٦

٢٩ـ هذه المراجع المذكورة صراحة في مخطوط الياس صالح : فيلون الجبيلي (وهو المرجع الوحيد الذي يخبرنا ان الاسم الأول للاذقية هو « راميتا ») ؛ سترابون : « جغرافية » ؛ بلين القديم ؛ لاكويان : « الشرق المسيحي » ؛ البرت الاكسي؛ مكسيموس مونرود : « تاريخ الحروب الصليبية » ؛ ابن الأثير : « الكامل في التاريخ » ؛ أبو الفداء : « المختصر في أخبار البشر » ؛ ابن الوردي : « تتمة المختصر في أخبار البشر » ؛ عماد الدين الاصبهاني : « الفتح القسي في الفتح القدسي » ؛ أبو الفرج ابن العبري : « تاريخ مختصر الدول » ؛ البطريرك اسطفانوس الدويهي : « تاريخ الأزمنة »؛ الخوري يوسف الدبس : « سفر الأخبار » •

٣٠ـ هناك عادة عند المسيحيين ان يدونوا في الفراغات التي في الكتب الكنسية ملاحظات وحوادث شاهدوها أو سمعوا بها •

٣١ـ ان المقاطع المنشورة في مجلة النور هي التالية : المجلد الأول من المخطوط : ص ٩ ـ ١١ و ٦٢ ـ ٦٨ و ١١٤ ـ ١٣٩ و ١٧٣ • المجلد الثاني من المخطوط : ص ٧ •

٣٢ـ جبرائيل سعادة : « لمحة عن تبغ اللاذقية في التاريخ » مجلة التبغ ، تموز ١٩٥٨ ص ٢٦ ـ ٢٨ •

٣٣ـ جبرائيل سعادة : « دير الفاروس » مجلـة النعمة ، دمشق ، كانون الأول ١٩٦٠ ، ص ٥٣ ـ ٥٩ •

٣٤ـ راجع بحثنا « القيم التراثية لمدينة اللاذقية » الـذي القي في جامعة تشرين بتاريخ ١٩٨٦/١١/٢ ، أثناء اسبـوع العلم السادس والعشرين ، ونشر في جريدة الوحدة (اللاذقية) العددين ٩٢٦ و ٩٢٧ تاريخ ١٧ و ١٨ آب ١٩٨٧ •

٣٥ـ تفيدنا وثيقة بخط يد رفيق صالح أنه ، في الأربعينات ، قررت لجنـة تابعـة للبلديـة تسمية أحد الشوارع باسم اليـاس صالـح •

بدايات المسرح في اللاذقية

عدنان مصطفى السيّد

اللاذقية عروس الساحل السوري ، **تلك المدينة الجميلة التي سميت لاذقية العرب عرفت منذ أقدم العصور بجمالها الطبيعي الذي أعطاها وجهاً سياحياً معروفاً لدى الرحالة والسائحين .**

شعب اللاذقية شعب مضياف يتمتع بحيوية ونشاط دائمين يحب الاختلاط ، بسيط بتفكيره غير تجاري في معاملته ، يحب الرحلات والحفلات فلا تكاد رحلة تخلو من العوّاد (الذي يعزف على آلة العود) أو قارع الطبلة وحتى المطرب ، وفي الحفلات البيتية حيث تنظم الحفلات الساهرة بموعد مع الأقارب فيكون أحدهم عازفاً أو مغنياً أو طبالاً(١) .

المقاهي التي كانت كثيرة في اللاذقية أرست ريادة الفن المسرحي وحثت الشباب على ممارسة هذا الفن الرائد ، ففي مقهى أبو سالم غضبان (حي الصليبة) وسباهية (الشيخ ضاهر) وحنونة (سوق بيت الداية) والشلا (في حي القلعة) قدم شخص اسمه الخباص (كثير من المعمرين اتفقوا على أن اسمه الخباص ولم يعرف الا به) قدم هذا الشخص قصص عنترة وأبي زيد الهلالي والضاهر ومن ثم برزحسن الحكواتي ومحمود غريب ليقدما حكاياتهما في مقهى اليغري والسوركة وسباهية الى أن جاء الفلسطيني أبو روحي الذي كان يمثل الشخصيات من خلال حوار القصة فكان يعبر عن المواقف كالممثلين في هذه الأيام(٢) .

في عام ١٩٣٠ أدخل فنان رسام اسمه خالد الكراكيزي على المقاهي المذكورة فناً جديداً اسمه الكراكوز وعيواظ فكان يرسم شخوصه على الكرتون ويزخرفها ومن ثم يقصها بأشكال انسانية تركب حصاناً أو تحمل سيفاً وخالد الكراكيزي عرف بأنه مقلد بارع لشخوصه يتكلم بعدة لهجات ويقلد الحيوانات وراء قماش ابيض مشدود يقع خلفه ضوء ساطع

يسقط على القماش ظل الشخوص التي يحركها بيديه (وهذا ما سمي بخيال الظل حديثاً) ...

وكان أيضاً أحمد الطرابلسي يقدم القصص في نفس المقاهي وبالتناوب مع زملائه الحكواتية .

في مدخل سوق العطارين (سوق بيت الداية حالياً) يقع خان البيلستان الذي كان مخزناً للتبن والبضائع حسّن هذا الخان ليصلح لمكان عرض سينمائي صامت ، فقد اشترى الحاج سليم عبدو ونصر حكيم جهازاً للسينما الصامتة فقدما بالخان أفلاماً أمريكية لأديبولو وشمشوم ولوريل وهاردي وشارلي شابلن ،وكانت هذه السينما تنقل الى حديقة بيت الياسمين صيفاً (مكان سينما أوغاريت حالياً) كان يعمل على هذا الجهاز شخص اسمه محمود حلبي .

(طرفة) في عام ١٩٣٣ أدخل الفونوغراف الى المقاهي كترغيب للزبائن وكان عمر زهر الفول قد استأجر الراديو من صاحبها الحاج توفيق جمال بمبلغ ٣ ليرات يومياً ليضعه في مقهى زهر الفول بالصليبة .

في عام ١٩٢٨ استقبل مسرح شناتا(مقهى شناتا حالياً) فرقة فاطمة رشدي وبنفس العام أيضاً قدمت فرقة أمين عطاالله استعراضها وقدم شخصية كشكش بيك في عام ١٩٢٩ ـ قدم الى اللاذقية أيضاً الفنان نجيب الريحاني مع فرقته المسرحية وكان معه الشيخ أمين حسنين وكان نجيب الريحاني معروفاً بشخصية كشكش بيك فصار الناس يقولون أن نجيب الريحاني هو الذي سرق الشخصية من أمين عطاالله (من مذكرات الريحاني) لقدوم الأخير بعده الى اللاذقية .

في عام ١٩٣٠ غنى عبدالوهاب أجمل أغانيه ، وفي ١٩ ايلول ١٩٣١ قدمت أم كلثوم باقة من أغانيها ، وبنفس العام أي ١٩٣١ جاءت فرقة عبدالله وزكي عكاشة وقدمت أوبرا كليوباترا وكان المطرب صالح عبد الحي بدور أنطونيو وعليّة فوزي بدور كليوباترا ، وبنهاية هذا العام أقبل يوسف وهبي وفرقته ليقدم مسرحيتين هما الكابورال سيمون وأولاد الذوآت .

وعلى مسرح مدرسة الأرض المقدسة(زكي الأرسوزي حالياً) قدمت صباح المطربة المعروفة أغانيها بدلع وحلاوة عام ١٩٤٣(٣).

في سينما روكسي (كان اسمها سينما فاروق ومن ثم سينما اللاذقية وحالياً لا وجود لها) قدم كارم محمود أغانيه واستعراضه مع فرقته ، وقدمت فرقة ساعة لقلبك عروضها على مسرح سينما أوبرا ومسرح دار الكتب الوطنية وأضواء المدينة في سينما أمير (الكندي حالياً) .

ومن خلال ما تقدم وبعد العروض السينمائية المصرية التي كانت تعرض في اللاذقية فقد كان للفرق الفنية الزائرة للمدينة والأفلام المعروضة دور بارز في تحبيب التمثيل الى شباب

هذا البلد فبدأ حلم الشباب والشابات يكبر مع صناعة الفن السابع في سورية عام ١٩٢٨ حيث ان أخبار الأفلام السورية تصل الى اللاذقية وتتناقل أخبارها ألسنة الشباب المتحمس لهذا الفن ، فن التمثيل(٤) .

فهذا يقلد أنور وجدي وذاك يقلد فريد شوقي وآخر يقلد عبدالوهاب أو محمود المليجي أو محسن سرحان أو شكري سرحان أو سراج منير أو حتى يوسف بك وهبي وكان التقليد حتى في الحركات والنظرات وتسريحة الشعر وكذلك الحال في المطربين والمطربات . وكما فعل الرواد المسرحيون الأوائل في سورية ومصر ولبنان في تشكيل الفرق المسرحية كالقباني والمنجوري وفرح وميرزا وصنوع وحمدان وفتحي فقد شكلت في اللاذقية أيضاً فرق مسرحية ولكن ليست بأسماء من شكلها وانما تحت اسم نادٍ أو جمعية .

ففي عام ١٩٣٦ أسس النادي الموسيقي وانتسب اليه كل من السادة: عبدالقادر عجان - حبيب الياس - وديع عوض - محمود عجان - عبدالوهاب وهبة - حنا نحال - كمال صالح - جبرائيل سعادة - أحمد عجان - عبدالقادر حورية - فؤاد داية - أحمد درويش - سليمان الزين - جورج صالح ...

اهتم هذا النادي بتنشيط الفن الموسيقي ونشره ومحاربة الأغاني المائعة ، ومن ثم انتسب الى النادي كل من السادة والسيدات : الحاج ضياء اسماعيل - محمد زريق - ماري تومات - زياد عجان - رشدي لبيب - اسماعيل بنشي - علي صيطوف - عبدالرحمن نتيفة - عبدالسلام عبارة وغيرهم ، أغلق النادي بسبب الحرب العالمية الثانية ، ومن ثم عاد النادي الى الوجود عام ١٩٤٥ ليقدم نشاطه حيث كان مقره في شارع بغداد حالياً مقابل بنك الدم تقريباً .

قدم النادي الكثير من الأعمال الفنية أذكر منها على بساط الريح - الحقني يا دكتور - أبو صطيف - الخجولان - أريد أن أقتل - أول الشهر - الماء - ابن الأخ العم(٥) .

في عام ١٩٣٤ أسس صحفي اسمه مصطفى قاسم السيد مع السادة : موسى نصير - نديم قدسي - صلاح شاهين - وحيد صباغ - سهيل كنعان نادياً اسمه النادي القومي ، قدم هذا النادي بعض المسرحيات منها : لولا المحامي - وعلي الأتراك يا فيصل . تأليف واخراج مصطفى السيد ، ومن ثم ، تم تأسيس نادي التمثيل السوري عام ١٩٤٤ برئاسة المحامي صلاح شاهين ، ومن أعضائه البارزين :وحيد صباغ - يوسف كراوي - خليل ماميش - محمد شاويش - فريد نعمان (وفريد نعمان هذا اختص بأدوار النساء) .. فقدم : الموت لليهود - يقظة ضمير - وفي سبيل التاج ...

في عام ١٩٥٢ تأسست الفرقة السورية للمسرح والسينما فقدمت هذه الفرقة مسرحية خفايا القصور ، أخرجها الفنان سهيل كنعان(نقيب الفنانين بالقطر حالياً)، وفي عام ١٩٥٥ تأسس نادي الفنون الجميلة (ومقره كان في سوق البالة بساحة أوغاريت - البازار) ومن أعضائه : فؤاد زوباري - عدنان كراوي - عوني صيداوي - جميل حمادة - محمد عالول - جهاد ديوب - عبدالله حلو - صفوان كراوي - جوزيف حنا - عبدالمنعم أبو سيف - مصطفى

قاسم السيد ـ جوزيف ليوث ـ جورج ميسي • قدم هذا النادي عام ١٩٥٦ مسرحيتين قوميتين بعنوان (أقوى من القدر ـ ولن يمروا) شاركت فيهما بدور البطولة وكانتا من اخراج والدي المرحوم مصطفى قاسم السيد • ومن ثم انتقل النادي من مقره ليصبح باسم النادي الثقافي العربي عام ١٩٥٨ ، انتسب اليه أحمد أزهري ومحمد آسعد فارس (أغلق في عهد الانفصال)(٦) •

نادي النجمة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ضم بعض الشباب المثقف والمتحمس للفن منهم : برهان هلال ـ عبد المنعم عقدة ـ هشام شومان ـ غازي دملج ـ رفيق زوزو • انتسب الى النادي الفنان المرحوم ابراهيم كردية ، والأخير قدّم مسرحية في بيوت الأغنياء عام ١٩٤٩ في سينما أمبير (سينما دنيا المغلقة) ، وكان كردية قد شكل نادي الكواكب ومعه السادة : عدنان محرز ـ يوسف فروه ـ نظام جبارة ـ أسعد فارس ـ حكمت خضور ، فقدم هؤلاء مسرحية: دم الشهيد(٧) •••

(ملاحظة : أعتقد أن جميع النوادي المشكلة كانت تشكل بنفس الوجوه تقريباً) ، ففي عام ١٩٥٢ شكل نادي نجوم الساحل السوري من السادة : جورج بولص الحاج ـ حسن زبيبي ـ باصيل اسبر ـ مصطفى بوجي ـ عثمان السيد ـ جورجيت زمار ـ قدّم هذا النادي مسرحية هادم الحنان ـ واعرباه ـ الملك المسخ ـ شعب خالد ـ افرح يا بلدي ـ الخبز الأسود ـ الشيخ الثائر ـ عمان الثائرة •

انتسب الى هذا النادي الفنان أسعد فارس الذي أحب الأفلام السينمائية وقد شارك في أكثر المسرحيات التي قدمت للنادي بالاضافة الى مسرحيتي (معجزة الايمان ـ نهر الجنون) •

نادي العمل الثقافي : عام ١٩٦٥ تأسس هذا النادي الذي قدم مسرحيات كثيرة وكانت ادارة هذا النادي نشيطة جداً ومنهم : شفيق شيبون ـ محمد كمال عضيمة ـ خالد خبازة ـ سيمون حميصي •

قدم النادي (لكل مجتهد نصيب ـ الشيطان في خطر ـ مجلس العدل ـ الانتقام ـ توباز) شارك فيها مجموعة شباب منهم : يوسف كركوتي ـ اسكندر عجان ـ الهام بدرة ـ مصطفى ملك ـ عدنان صليبي ـ جبران ميسي ـ حسن أسرب ـ أحمد دقسي ـ نبيل ريس علي ـ خليل غصن ـ أحمد مز • هذه المسرحيات أخرجها للمسرح : أسعد فارس(٨) •

في بداية الخمسينات لمع اسم كان له من الريادة ما لزملائه رغم صغر سنه هو الأستاذ شهير بنشي كان يحب الخطابة شجعه عليها الأبسالم الذي كان مديراً لمدرسة الأرض المقدسة شارك في مسرحية من تأليف الأستاذ منح يازجي على مسرح المدرسة •

شكل هذا الفنان الذي ما زال يهوى المسرح والكتابة المسرحية في « كسب » فرقة قدمت أعمالها في منزل والده شارك معه في التأليف الحاج ضياء اسماعيل ، خالد مز بالديكور وقدم أيضاً المحامي لمع في مشفى المجانين ، والصعود الى المريخ •

تأسس نادي توجيه الناشئة عام ١٩٥٩ .

استلم الأستاذ شهير أو أحمد شهير بنشي الادارة فقدم (أفراح الريف) شارك النادي في جميع المناسبات ومن ثم قدم قيس القرن العشرين التي قدمت أكثر من مرة · وقدم حكم قرقاش في حلقات مسرحية ناقدة ـ كتب مسرحية الموظف حسن أفندي ـ النفاق ، شارك فيها أعضاء النادي : مصطفى كركوتي ـ سمير داوود ـ معن سعدالدين ـ قيس محجازي ـ نواف عجان ـ أحمد ريس علي ـ وليد نيسانه ـ عبدالحميد حداد ـ توفيق العبد ـ الهام حداد ـ صبا ونغم مشتاوي ·

قدم النادي بالاشتراك مع المركز الثقافي مسرحية من تأليف الأستاذ شهير وهي روما تحرق نيرون المسكين· شارك هذا النادي وقدم على مسرح المركز الثقافي أيضاً اسكتشات غنائية عن الختمة ـ سهرة لاذقانية(٩) ·

وعودة لعام ١٩٤٨ كان هناك شاب مندفع اسمه محمود زهدي مولع بفن السينما أخذ يقوم بأدوار ارتجالية أمام زملائه وأهله وذلك ارواءً لغريزته انتسب الى الفرقة السورية للمسرح والسينما ونجح من خلال اختبار أجراه له الفنان سهيل كنعان فقدم مسرحية بعنوان دكتور آخر زمن كان يغني المنولوجات الضاحكة يقلد اسماعيل ياسين قدم مسرحية اشهدوا يا ناس للفرقة السورية ، كما شارك في مسرحية من اخراج وجيه ناصر مع رشيد علامة ـ سعاد كريم ـ ورمزي أبو الذهب · ذهب الى مصر وشارك بخمس أفلام بأدوار بسيطة لا تذكر ·

أسس نادي هواة المسرح عام ١٩٥٩ من بين أعضائه عبدو عثمان ـ قاسم قوصرة ـ خليل كدة ـ حسن دباغ ـ عثمان السيد ـ فريد اسكندر ـ فايز بشارة ـ فايز خضور ، وكان مقر النادي مقابل المحكمة القديمة في دار والد محمود زهدي ، قدم حفلاً فنياً في مصح القدموس بتكليف من السيد مدير الصحة باللاذقية ، ثم شارك في فيلم كفر قاسم والحدود(١٠) ·

جورج بولص الحاج مواليد المزيرعة ١٩٢٥ انتسب الى نادي نجوم الساحل السوري وكان من مؤسسيه ، أخرج عدة مسرحيات منها الطيار عدنان المدني ـ شعب خالد ـ الانسانية في خطر ـ ابحثوا عن ضمير لتجدوا عبير · انتسب الى نادي الفنون الجميلة وبعض النوادي ، وفرقة المركز الثقافي العربي ·

جمعية النهضة السورية تأسست عام ١٩٥٦ على يد طفل صغير كان عمره عشر سنوات اسمه عبدالحميد حداد··· هدف هذه الجمعية رعاية الموهوبين فنياً وتقديم الثقافة للمجتمع وكان معه برهان طريفي ـ أحمد صفية ـ رياض حداد ـ فايز بشارة ـ حسان بيلاني ـ محمد صافي ـ فواز فركوح ـ عيسى بشور ـ مصطفى كركوتي ـ وليد حمامي ـ نبيه نعمان ـ غسان فتاحي ـ عبدالله كحالة ـ سمير جورجي ـ نبيل قباني ـ نقولا حلبي ـ ابراهيم منصور ـ فؤاد أفتين ـ مالك مرقص · ومن الأوانس : ماري صقلي ـ أميرة صقلي ـ غادة صبري ـ رجاء بدر ـ مفيدة زينو ـ الهام شلبي · ومن ثم : هدى الزين ـ سليم بنشي ـ فريد اسكندر ـ اسماعيل حداد ·

ترأس عبدالحميد حداد أكثر من نادٍ منها : النادي الفني ـ البيت الموسيقي ـ فرقة أصدقاء المركز . قدم : النار والزيتون من اعداده واخراجه ، وفي سبيل التاج .

قدم مسرحية الملك والراعي ـ القدر ـ جنون الثأر ـ القائدان ـ سخرية القدر ـ الغرفة رقم واحد(١١) .

★ ★ ★

أقوال حرة :

ـ كانت أكثر الأعمال تقدم في دار الكتب الوطنية (المركز الثقافي) التي كان مسرحها عبارة عن قاعة كبيرة للمحاضرات ، مسرحها بطول ستة أمتار وعرض مترين ونصف ، للمسرح بابان من اليمين واليسار ... كانت ديكورات المسرحية ترسم على فونة خلفية أو يوضع ما يشير الى نافذة في البيت أو أشجار في العراء .

والكثير من المسرحيات كانت وطنية تحكي عن المستعمر الفرنسي والعثماني والاسرائيلي والأراضي المغتصبة ، أو اجتماعية تحكي عن الطلاق والفقر والخمر والقمار الخ ...

ـ تشكلت بالمركز الثقافي العربي باللاذقية فرقة مسرحية تحت اسم فرقة المسرح القومي للهواة بمسابقة رسمية نجح خلالها كل من :

نبيه نعمان ـ رياض حداد ـ جميلة غانم ـ ندى سمعان ـ أسعد فارس ـ فؤاد مرعش ـ فايز قاسم ـ زهير غانم ـ حنا قره ـ فاطمة درويش ـ هيفاء غريب ـ محمد أبو ديب . انضم اليهم عدنان السيد ـ وديع ضاهر ـ ميشيل قسطنطين .

قدمت الفرقة مسرحية :

ـ الثائرون : تأليف واخراج ابراهيم كردية .

ـ أخت الكادحين : تأليف أسعد فارس ، اخراج ابراهيم كردية .

ـ القروية المجاهدة : تأليف هند هارون ، اخراج ابراهيم كردية .

ومن ثم قدمت الفرقة مسرحية : بيت المقدس ـ عمانوئيل روبلس ـ الرصاصة الثالثة : تأليف واخراج الأستاذ المرحوم كردية ـ ١٩٦٧ .

في عام ١٩٦٩ شكلت فرقة الأصدقاء للمركز الثقافي من عدنان السيد ـ وديع ضاهر ـ رشاد طريفي ـ سميح أطوز ـ ندى سمعان ـ ماري لوزة ـ جورج بولص ـ خالد الأمير ـ ماجد زوزو . قدمت الفرقة من اخراج خالد المز مسرحية عالمية : ابن الأخ العم لشيلر .

وفي نفس الوقت وقبل تشكيل شبيبة الثورة كانت هناك فرقة للاتحاد الوطني لطلبة سورية ، قدمت أعمالاً فنية منوعة على مسرح دار الكتب ـ المركز الثقافي ـ كان بينها

تمثيليات صغيرة جسدها فنان أحب المسرحهو : رشاد طريفي • كان يقدم شخصيات كاريكاتيرية أحبها المتفرج وصار ينتظرها ،منها : فهد في الشرطة ـ صراع الأبطال • شارك معه كل من : عبدالله صاري ـ أميرصافي ـ خالد برقدار ـ فواز بشارة ـ برهان بيطار ـ محمد عجان • فقدم أيضاً مع عدنانالسيد : وديع ضاهر ـ أمير حمصي ـ حسن عيسى ـ عبدالله الخيِّر ـ سمير نعمان ـ حسنداوود مسرحية : مطرب من الغرب ـ في بيتنا فدائي ـ بلادي ـ شبيه الملك ـ ألوان ـ زواج بالقوة ـ بيت للايجار • وقد قدمت أكثر هذه الأعمال في مدينة الحفة وجبلة واللاذقية •

شكل رشاد طريفي وخالد برقدار فرقةاللاذقية ١٩٦١ .قدمت : أخي أنت خائن ـ سفاك الدماء ـ المجنون •

ـ عادت فرقة المسرح القومي للهواة بعودة الفنان كردية لمدينة اللاذقية فقدمت هذه الفرقة مسرحية أذينة ملك العرب من اخراجه،ونالت الجائزة الأولى في مهرجان المسرح الشبيبي للهواة الذي أقامته بالاشتراك مع وزارة الثقافة •

الا أن الفرقة قد تشكلت مرة أخرى على يد الفنان عبدالله حلو خريج ايطاليا قسم الديكور السينمائي والمسرحي وسميت باسم فرقة المسرح العربي فقدمت مسرحية عريس لبنت السلطان في مهرجان الهواة الثامن ١٩٧٨في حلب ، وأيضاً أعيد تشكيل الفرقة بقدوم المخرج المختص حيان الجندي الذي ندبته وزارة الثقافة وقدم الحداد لا يليق بانتيغون لرياض عصمت • وبنفس الوقت كان الفنانغسان كنعان يقدم لنفس الفرقة مسرحية بيت الجنون، هذا وتوالت أعمال الفرقة ليقدمحيان الجندي مسرحية البخيل ، شارك فيها كل من :

نبيه نعمان ـ عدنان السيد ـ حسنآسرب ـ الياس حميصي ـ نبيل مريش ـ هالة محمد ـ هدى ابراهيم ـ عفراء خليل ـ أيمنووفاء شريتح ـ خليل وسوف وحنا يوسف • قدم هذا العمل في دمشق وطرطوس واللاذقية •

ومن ثم قدم عدنان السيد من اخراجهمسرحية للأطفال ولأول مرة بعنوان الأميرة القبيحة تأليف : ك. م. فالو ، ومن ثم الأشباحلادواردو فيليبو ، وقدمت الفرقة أيضاً عملاً فنياً اسمه حديقة الحيوان ، شارك فيه : جرجس جبارة وخالد ديب ، وقام على اخراجه : سجيع قرقماز •

وكان هناك اشتراك واضح لعناصر هذه الفرقة مع شبيبة الثورة التي شكلت فيها فرقة المسرح الشبيبي الجاد والتي قدمتأعمالاً جادة وملتزمة كان أولها عام ١٩٧٠ غصن يحترق ـ حجر فوق حجر لفؤاد مرعش،شارك فيها مجموعة من الشباب المتلهف لارساء قواعد المسرح الجاد فقدم جرجس جبارة منٍاخراجه مسرحية (عطشان يا صبايا ـ غرفة الموت ـ ليلية بين عامين ـ لحنوأغنية ـ اطلاقالنار من الخلف) •••

ومحمد أبو ديب (الصليب ـ سمعان ما هون ـ حكايا ـ أيها الاسرائيلي حان وقت

الاستسلام ـ هملت يستيقظ متأخراً ـ نوبات جنون ـ غرام الدكاترة ـ المسرحية تستمر ـ مهاجر بريسبان) .

وقدم نبيل رستم (عقرب الزمن ـ الحفلة دارت بالحارة ـ عراضة الخصوم) .

وأحمد سلمان قدم أهل الكهف ٧٤ ـ وعصام سكيف ـ الفيل يا ملك الزمان ـ وجورج حداد قدم القضية والحل . وراتب الأسد قدم الغريب والسلطان ـ الرحيل الى الخوف ـ وقدم نبيه نعمان (أشوهير وسترات) (لوحة من آنصار) (هابيل يقتل من جديد) .

وقدم سهيل حداد مسرحية (الرجال لهم رؤوس) ـ (مأساة جثة على الرصيف) ـ (حفلة على الخازوق) .

وقدم عدنان علوان (سور الصين) ومن ثم (الحرية ليست كلمة) للفنان حسن أسرب . (ما هو ثمن الحديد) عبدالله شيخ خميس (صرخة العندليب) سعيد وكيل (فلسطين) محمد الزعبي .

ـ بنهاية عام ١٩٧٩ تأسست فرقة المسرح الجامعي وتلي البيان التأسيسي تحت عنوان منطلقات الفرقة المسرحية للاتحاد الوطني لطلبة سورية ، معتمداً على الجماعية في تقديم العروض المسرحية التي تؤكد التعميق الفكري للقضايا الاجتماعية والالتزام بقضايا الجماهير الكادحة . وكان من بين المؤسسين كل من : رسلان علي ـ جمال عمران ـ فؤاد بلة ـ جبرائيل كرتوش ـ فهيم أسعد ـ هيثم محمد ـ عفيف سكاف ـ هاشم أبو كف ـ يحيى عجان ـ نضال عجاج ـ عفراء خليل ـ هدى ابراهيم ـ محمد حرفوش .

فقدموا باكورة أعمالهم بحكاية من الميناء وجاء هذا العمل تاليفاً جماعياً ١ ـ ٦ أيار ١٩٨٠ . والعمل الثاني كان ترالالا (سهرة تلفزيونية) باشراف المخرج السينمائي أسامة محمد ١ ـ ٦ أيار ١٩٨١ ، شارك بالعمل : مريم فاضل ـ يحيى عجان ـ جبرائيل كرتوش ـ جمال كرتوش ـ نهاد زهرة ـ عفاف علي ـ محمد حرفوش ـ هيثم محمد ـ فهيم أسعد ـ جمال عمران ـ فؤاد بلة .

العمل الثالث من ٢٤ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨٣ هو : الحرب في مصر فقط لا غير ، اخراج المخرج ريمون بطرس .

العمل الرابع : البحث عن مسعود ، قدم في دمشق ما بين ١٥ نيسان و ٤ أيار ١٩٨٤ . وكانت فرقة الجامعة قبل عام ١٩٧٩ قد قدمت مسرحية بعنوان : الفرافير ، للدكتور يوسف ادريس ، آخرجها يوسف كرتوتي ، وشارك فيها كل من :

جرجس جبارة ـ مروان رشو ـ أنس اسماعيل ـ الياس حميصي ـ سميرة الكارة . سنة ١٩٧٦ في المركز الثقافي قدم جبرائيل كرتوش عملاً جاداً تجريبياً جديداً هو علامة استفهام وتعجب ، اعتمد فيه على الحركات التعبيرية والحوارات البسيطة بمشاهد جمالية راقصة أحياناً وتعبيرية تمثيلياً . وقدم الفنان نبيه نعمان للجامعة مسرحية الرحيل التي فاتني حضورها للأسف وكانت للكاتب التركي جواد فهمي باشكوت بهذا العام .

وبعد أن أطلت عليكم وللانصاف لعب اتحاد نقابات العمال دوراً بارزاً أيضاً في تقديم عروض مسرحية أذكر منها : زهرة مـن دم ،قدمها محمد أبو ديب ـ الاسعـاف دماء على الطريق ـ من كل روض شوك ـ الكنز ـ جحابياع حماره لمحمود القيم . وأخيراً ثمن الخوف قدمها الفنان سليمان شريبا .

□ نقـابه الفنـانـين :

في عام ١٩٨٦ صدر قرار باحـداث فرعلنقابة الفنانين باللاذقية، وشكلمجلس للنقابة من الفنانين : جورج فهد رئيساً ـ غسان كنعانآميناً للسر ـ ومحمد خـير تقي رئيس مكتب العقود ...

وقد أقيمت النقابة لشد أزر الفنان والعمل على مساعدته للنهوض بالفن عامة واعلاء شأن هذا الفنان خاصة .

فبادرت الى تشكيل تجمعات فنيـة مسرحية باسم: تجمع الساحل للفنون ـ تجمع فرقة مسرح الكاريكاتور ـ تجمـع فرقـة أوغاريتللفنون ـ قدمت هذه التجمعات عدة مسرحيات اجتماعية كان أغلبها كوميديا من نوع الفارس(اي الهزلي) ...

لاقت استحساناً مـن البعض ونقـدها البعض الآخر بأنهـا تجـارية ... وتجـدر الاشارة الى تكوين فرقـة خاصة حالياً مـنالفنانين : نبيـه نعمان ـ جرجس جبـارة ـ خالد ديب ـ وفاء شريتح ـ فواز سرور وأنا ...

آمـل أن تكون هذه الفرقة على مستوىالمسؤولية بالالتزام في المسرح الجـاد الهادف ذي الفكر النظيف ...

□ الحواشـي :

١ ـ احمد جميل السيد عمره ٨٥ عاماً متوفى حالياً .
٢ ـ علي زهر الفول متوفى ٦٥ عاماً .
٣ ـ الأستاذ محمود عجان عالم موسيقي ـ باحث .
٤ ـ السيد ابراهيم حاج قاسم ٧٥ سنة .
٥ ـ من أرشيف النادي الموسيقي ـ الأستاذ زياد عجان .
٦ ـ السيد مصطفى قاسم السيد ـ رائد مسرحي أول في اللاذقية .
٧ ـ المرحوم الفنان ابراهيم كردية ـ عضو في المسرح القومي .
٨ ـ الفنان الرائد المسرحي أسعد فارس .
٩ ـ الفنان والأديب شهير سعد الدين نبشي .
١٠ ـ الرائد المسرحي محمود زهدي .
١١ ـ الفنان نبيه نعمان ـ عضو نقابة الفنانين .

من المظاهر العمرانية في اللاذقية في العصر العثماني

ياسر صاري

في يوم قائظ من شهر جمادى الثانية سنة ٩٢٢هـ ـ آب سنة ١٥١٦م شهد مرج دابق شمال حلب معركة فاصلة في التاريخ الاسلامي . فقد تمكن السلطان العثماني (سليم بن بيازيد) من دحر جيش السلطان المملوكي (الأشرف قانصوه الغوري) . وسقط آخر ملوك الدولة الشركسية قتيلاً في ساحة المعركة ، بعد أن شهد بعينيه خيانة بعض قواده وفرار بعضهم الآخر . وأصبحت الشام مفتوحة أمام جيش ابن عثمان ، فهرع اليه الناس يستقبلونه استقبال الفاتحين ظناً منهم أن هذه الدولة الفتية أقدر على احقاق الحق من دولة المماليك . ولكنهم ما لبثوا أن علموا أن (سليماً) سلطان كباقي السلاطين أكثر منهم قوة وأشد بطشاً ، فكظموا غيظهم ولسان حالهم يقول :

دعوت على عمرو فمات فسرني فعاشرت أقواماً ندمت على عمرو

كانت اللاذقية يومها تتبع نيابة طرابلس . وقد سميت منطقة اللاذقية (لواء جبلة) حيث كان يوجد مركز اللواء، ولعل ضريح السلطان (ابراهيم بن أدهم) ومسجده أعطى لجبلة هذه الأهمية .

شهدت اللاذقية شيئاً من الانتعاش قبيل زوال دولة المماليك نظراً لموقعها قرب الحدود في منطقة التماس مع الممتلكات العثمانية . ولكنها عادت الى الانزواء بعد سيطرة السلطان سليم الأول على الشام ومصر والحجاز .

وخلال الحكم العثماني شهدت اللاذقية سلسلة من المظاهر الحضارية ـ بغض النظر

عـن تقييم هـذه المظاهر ـ استدعتها ظروف اقتصادية وسياسية محلية وعامـة . وسوف أذكر ما وقع تحت يدي من أبنية تعود الى تلك الفترة لتكون شاهـداً بـين يـدي الباحثين والمؤرخـين .

□ الـدار العلائيـة :

تقع هذه الدار في منطقة البازار السوق المركزية للبلد (ساحـة أوغاريت حاليـاً) . وكانت منطقة البازار يومها ساحـة تناثرت فيها الأعمدة والاحجار الأثرية التي تعود الى الزمن الروماني .

لم يبق مـن الدار العلائية الا الواجهـة الرئيسية المؤلفة من باب يعلوه قوس أصغر من نصف دائرة ، فوقه لوحـة رخامية ، نقش عليها البيتان التاليـان :

دار يدور بها السرور على السنين — بـدأ بانشائها الأمـير عـلاء الدين

سـعد السعود مقيـم في تأرخهـا — سـد فادخلوهـا بسـلام آمنـين

وقد أشير أسفل ذلك الى سنة البناء بالأرقام : سنة ٩٩٥ هـ ـ ١٥٨٧ م .

يحتضن الباب من جانبيه نوافذ تزينها نقوش هندسية ونباتية **تعكس الفن السلجوقي المتأخر** . وقام فـوق الطريق الملاصق للواجهة عقـود حجرية تشبه أسواق حلب المسقوفـة . بينما تذكرنا واجهـة البناء بواجهات المدارس السجلوقية في بلدة قونيه **من أعمال الأناضول**.

فلنحـاول اثارة بعض التسـاؤلات :

أ ـ ما الغاية من انشاء الدار العلائية ؟.

ان الفرض الأول الذي يتبادر الى الأذهان هو أن هذه الدار بنيت مقراً ادارياً للأمير علاء الدين وسكناً له ، وهـذا ما تبناه الأستاذ جبرائيل سعادة في كتـابه (المختصر في تاريخ اللاذقية) مع احتمال أن تكون خاناً(١) .

وثمة فرض جدير بالعناية هو : أن هذه الدار بنيت **لتكون تكية للدراويش المولوية**. والذي يجعلنا ننظر الى هـذا الفرض بشيء من الجدية الأمور التالية :

ـ ان التاريخ الشعري أعلى الواجهة يبدأ بهـذه العبارة : **(دار يدور بها السرور على السنين)** والمعروف أن مـن تقاليـد المولويـة الدوران في حلقات الذكر ، فيكون هذا المطلع نوعاً مـن أنواع المحسّنات البديعية المسمى **(حسن الاستهلال)** . ومن المفيد التذكير هنـا بأن التكية المولوية التي بنيت في اللاذقية زمن السـلطان عبدالعزيز قـرب ضـريـح والده السلطان (ابراهيم بن أدهم) والتي عرفت بين الناس باسم **(مسجد أم السلطان)** افتتح تأريخها الشعري بعبارة : **(دار تدور بها البدور!؟.)**.

ـ زخرفة البناء تذكرنا بالمساجد والمدارس السلجوقية في قونيـة البلد الذي ترعرعت فيه تقاليد المولوية وفنونهم .

ـ اعجاب العثمانيين بسلوك المولويـة وتعلقهم بها يجعلنا نفترض وجود أمراء أمثال علاءالدين ، يعملون لايجاد مراكز وتكايا لهم في البلاد التي وقعت تحت سلطانهم ·

ب ـ من الواضح أن وزن البيتين المنقوشين على لوحة التاريخ لا يستقيم والأوزان العروضية مما يجعلنا نفترض آن الناظم أديب شعبي يحاول النظم باللغة الأدبية مقلداً الشعر المدرسي المعترف به وحده أدبياً يومئذ · ولعله اديب غير عربي تأثر بطريقة النظم عند الأتراك والفرس ، حيث يتوسعون بالجوازات الشعرية مع الاحتفاظ بالاطار العام للعروض العربي ·

ولا بد من الاشارة الى أن استعمال التاريخ الشعري وتأريخ السنين بالأرقام الى جانب ذلك تقاليد انتشرت في البلاد العربية في العصر العثماني · وتمثّل هذه اللوحة أول تاريخ شعري في اللاذقية وأول ظهور للأرقام منقوشة على لوحة تاريخية ·

ج ـ لا نعرف شيئاً عن الأمير علاءالدين صاحب البناء !. واعتماداً على تاريخ هذا البناء فانه أنشىء زمن السلطان (مراد الثالث) · وقد شهدت بلاد الشام في زمن هذا السلطان اضطرابات كثيرة ، لا سيما منطقة الساحل وجبال لبنان · فلعل علاءالدين أمير أعطيت له صلاحيات خاصة للحد من تلك الاضطرابات رأى أن يجعل اللاذقية مقر قيادته !؟. ولكن اذا سلمنا آن البناء أنشىء ليكون تكية مولوية فقد يكون الأمير علاءالدين أحد أفراد الأسرة الحاكمة في استانبول أو ممن له صلة بالسراي السلطاني ·· ولعله لم يسكن اللاذقية بل تبرع بانشاء البناء تخليداً لذكراه ·

☐ مسجد أرسلان باشا المطرجي :

في مطلع القرن الثاني عشر الهجري ـ أواخر القرن السابع عشر الميلادي أسندت ولاية طرابلس الى والٍ يسمى (أرسلان باشا المطرجي) ، وأصبح أمير اللاذقية أخوه (قبلان باشا) · فرأى أرسلان باشا تحويل مركز اللواء من جبلة الى اللاذقية ، وكانت قد استحالت الى بلدة صغيرة تعيش على هامش الحياة · رافق هذا التحول انعاش البلد · فأنشأ أرسلان باشا مسجداً وحماماً في حي الأشرفية (الشحاذين) مساهمة منه في تطوير البلد، فبدأ العمل في ربيع الأول سنة ١١٠١ هـ ـ كانون الأول سنة ١٦٨٩ م · كان الحمام أشد فخامة وأعلى قبة · وقد هدم كل من الحمام والمسجد حديثاً، وأعيد بناء المسجد بينما تلاشى الحمام ·

وعندما زار الشيخ عبدالغني النابلسي اللاذقية في تلك الفترة شاهد بوادر التطور فيها ، ولاحظ وجود مركز قضاء مستقل ومركز افتاء، وأثنى على أميرها (قبلان باشا)، ولفت انتباهه جدران أبنيتها التي تبنى بعرض حجر واحد خلافاً لحواضر الشام التي تبنى بيوتها بجدار مزدوجة ، فقال(٢) : « وأغرب ما رأينا فيها ـ يقصد اللاذقية ـ أنهم يبنون الجدار في عرض حجر واحد فيستقيم البنيان بذلك » ·

ومن اللطيف أيضاً أنه أعجب بذوق اللاذقيين في صنع المأكولات والتفنن فيها ، فقال متحدثاً عن مأدبة حضرها(٣) : « ··· مدت المائدة العظيمة وبسطت السفرة الواسعة الجبين

مشتملة على أنواع المأكولات والمربيات النفسية، عرضها نحو الخمسة أذرع وطولها نحو العشرين ذراعا او أكثر ولم نجد في عمرنا مائدة مثلها ولا قدرها بحيث أنا وجماعتنا لم نقدر على ضبط ما فيها من ألوان » .

وقد شهدت هذه الفترة ظهور حركة ثقافية ، فألّف (ابن كتافة) محمد بن ابراهيم اللاذقاني المتوفى سنة ١١٠٠ هـ ــ ١٦٨٨ م كتابين لغويين هما: (تحفة الأفاضل في الترسل) و (الدر الملتقط في تبيان الغلط)(٤) .

□ ترميم الكنائس(٥) :

وما دمنا في الحديث عن البناء لا بد من ذكر حادثة ترميم الكنائس واعادة بناء بعضها في تلك الفترة .

كان في اللاذقية يومها خمس كنائس هي: مار نقولاوس، اندراوس، مار جاورجيوس، السيدة ، مار سابا . وثمة عرف شفهي يرجع وجود هذه الكنائس الى زمن الفتح العربي ، ومن ثم فهي كنائس معترف بها وداخلة ضمن حماية القانون .

ففي منتصف الليل من يوم ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٢٠ م ــ محرم سنة ١٣٣ هـ سقط الحائط الشمالي لكنيسة (مار نيقولاوس) ، ثم تداعى الحائط الغربي في اليوم التالي . على أثر ذلك طلب المسيحيون من حاكم البلد (مصطفى بك) ابن (أحمد باشا سوار) العمل للحصول على اذن رسمي لترميم الكنائس الموجودة في البلد ، لأن مصيرها سيؤول الى السقوط . جمع (مصطفى بك) رجال الدين المسلمين لاستطلاع رأيهم ، فأفادوا أن لا مانع من ذلك ، فطلب منهم أن يكتبوا الى استانبول كتابا للحصول على اذن رسمي بذلك، وسيكون كتابهم اشارة الى عدم وجود مانع يحول دون ترميم هذه الكنائس .

أرسل الكتاب الى والي طرابلس أحمد باشا ومن ثم أحيل الى العاصمة استانبول . ولم يصل الاذن من العاصمة حتى يوم السبت ٣٠ كانون الأول سنة ١٧٢١ م ــ ربيع الاول سنة ١١٣٤ هـ ، أي بعد حوالي أربعة عشر شهراً . وبعد اطلاع حكومة الولاية في طرابلس على الاذن قرر مصطفى بك عقد مؤتمر شعبي يوم الجمعة ٥ كانون الثاني، ولكنه عاد وأجّل الموعد بناء على طلب المطران (نيكيفورس القبرصي) لمصادفته عيد الغطاس ، فعقد يوم الأحد الذي يصادف ذكرى القديس يوحنا المعمدان .

ضم المجلس مائة رجل من الوجهاء والمشايخ ، منهم المفتي عبدالرحمن أفندي والقاضي خليل أفندي ، الى جانب المطران وكل من الخوارنة : الياس عرنوق وموسى الكيّس ونقولا الحبشي وموسى كريش وسليمان راعي كنيسة السيدة ، ومن الأعيان: جرجس لطف الله وبشارة موسى وسلامة الخربان وعبدالله الرشيدي المقدسي . وبعد قراءة الفرمان التفت مصطفى بك الى المشايخ لاعطائهم رأيهم النهائي فأجاب الجميع بالموافقة. عندها التفت الى المطران قائلاً : بامكانكم أن تباشروا العمل .. ولفت انتباهه الى وجوب ارسال رجل صباح اليوم التالي الى دار القضاء للحصول على اذن خطي ، ليكون وثيقة بيدهم لمنع أي معترض .

في اليوم التالي بوشر العمل ، ووجد من المصلحة هدم بعض الكنائس تماماً ثم اعادة بنائها ، فشرعوا بذلك ، وأرسلوا رجلاً الى القاضي للحصول على وثيقة خطية ، لكنه امتنع عن اعطاء الوثيقة محتجاً بأن الفرمان انما سمح بترميم الكنائس وليس بهدمها واعادة بنائها ..

روجع المفتي لأخذ رأيه فأعطى فتوى تشير الى أن الترميم يعني اعادة البناء اذا كان البناء شبه متداع . ولكن القاضي اصر على موقفه وكان تركياً لا يفهم اللغة المحكية ، بل فاته بعض عبارات الفتوى، فطلب الاجتماع بالمفتي حيث دار بينهما حوار طويل خرج القاضي منه نصف مقتنع ، الا أنه أعطى الاذن استناداً الى فتوى المفتي .

دام العمل عشرين يوماً ، وشارك فيه ستة عشر معلماً معمارياً يعاونهم مائة وستون عاملاً توزعوا الى ست عشرة مجموعة . وقد استأثرت كنيسة مار نيقولاوس ــ وكانت الكاتدرائية ــ بالقسم الأكبر فعمل فيهما في وقت واحد عشرة معلمين مع مائة عامل . لقد حاول بعض القبضايات معاكسة المشرفين على العمل لكن البخشيش كان كفيلاً باسكاتهم .

ومن الجدير بالذكر أن الكرسي الجميل الموجود في كنيسة مار نقولا يعود الى تلك الفترة ، وقد قام الأستاذ جبرائيل سعادة بدراسته وتصويره .

☐ المسجد السليماني الجديد :

بعد حادثة ترميم الكنائس بخمس سنوات وفي سنة ١١٣٩ هـ ــ ١٧٢٦ م شرع والي طرابلس سليمان باشا العظم ببناء المسجد الجديد الذي كان جديداً منذ قرنين ونصف .

يقع هذا المسجد في مركز البلد الى الشرق من الدار العلائية ، حائطه الجنوبي موازٍ للشارع الممتد من المتحف (خان الدخان) الى الثكنة الابراهيمية . ويشغل مع ملحقاته مساحة قدرها خمسة دنمات .

للمسجد ثلاثة أبواب :

الباب الجنوبي : وهو الباب الرئيسي المتصل بالشارع ، ويتألف من دهليز طوله أربعة أمتار تقوم على جانبيه مساطب حجرية، وتعلوه من الجهة الخارجية نقوش تذكرنا بنقوش خان العظم في دمشق . ينتهي الدهليز بباب المسجد الذي تعلوه لوحة رخامية نقش عليها :

بأوامر الباشا سليمان اللبيب هو الحسيب

باللاذقية مسجداً أنشاه فيها مستجيب

صلِّ فيه واجتهد أرِّخ أقم باب مسجدنا له فتح قريب

١١٣٩

وعلى يمين المدخل سبيل رخامي عليه شباك حديدي ، تعلوه زخارف تحاكي زخارف المدخل • وثمة سبيل آخر عار عن الزخرفة يقوم في الجانب الآخر من المسجد •

الباب الغربي : يتصل بالصحن مباشرة ، تكتنفه مصطبتان حجريتان صغيرتان • وقد بني بانحراف عن حائط المسجد ليكون في مستوى دائرة وسط السماء ، بحيث تستتر المصطبة الشمالية بظل المصطبة الجنوبية عندانتصاف النهار تماماً ، فيشكل مزولة تحدد وقت الظهر من كل يوم ، حاول المهندس أن يخفف من هذا الانحراف بلمسة فنية ظهرت على شكل مسند مثلث الشكل •

الباب الشمالي : يماثل الباب الغربي في شكل البناء ، الا أنه خال من الزخرفة • ولم يدرك المهندس المشرف اليوم على أعمال الطرق سبب الانحراف فيه فهدمه ليستقيم مع الجدار !.

حرم الصلاة :

يقع حرم الصلاة في الجهة الجنوبية ، تطل نوافذه على الشارع العام • يبلغ عرض حائطه أكثر من مترين • يتألف سقفه من تسع قباب ، تتوضع في ثلاثة صفوف ، تستند الى الجدران من الجهة الخارجية وعلى أربعة أعمدة تحيط بالقبة المركزية من الداخل • الأعمدة بتيجانها الرخامية أخذت من الآثار التي تمتلىء بها اللاذقية •

بني المحراب من الرخام الملون المتداخل، والمنبر من رخام أبيض ، نقش أعلى مدخله بخط الثلث البيت التالي :

ومنبر تعلو الرجال عليه   لأمر بعرف واجتناب نواهي

في الشمالي قبالة المحراب مقصورة من خشب مزخرف تستند الى دعائم حجرية ، فيها نافذة بارزة على شكل شرفة صغيرة مطلة على صحن المسجد لجلوس القراء والمؤذنين للتبليغ •

صحن المسجد ساحة مكشوفة تتوسطها بركة دائرية تعلوها قبة قائمة على ثمانية أعمدة ، في الزاوية الشمالية الغربية انتصبت مئذنة رشيقة ترتفع قرابة أربعين متراً ، نقشت على لوحتها التاريخية :

انظر لحسن منارة متأملاً   تجد البناء بها بناء ممعناً

وأجب لداع بالفلاح مؤرخاً   حباً باعلان المؤذن معلناً

١١٣٩

باني المسجد والي طرابلس (سليمان باشا العظم) ابن ابراهيم • يعد سليمان باشا من أشهر أمراء آل العظم • تحدث عنه البديري الحلاق في يومياته خلال ولايته الثانية على الشام وأثنى عليه • ذكره من المؤرخين :المرادي والقادري والجبرتي وحيدر الشهابي• تولى باشوية طرابلس سنة ١١٣٨ هـ ـ ١٧٢٥ م قبل بناء جامعه بسنة واحدة ، ثم نقل الى ولاية الشام سنة ١١٣٦هـ ـ ١٧٢٣م وأقام فيها خمس سنين ، نقل بعدها الى مصر

سنة ١١٥٢ هـ ـ ١٧٣٩ م الا أنه لم يتمكن من الاقامة فيها الا سنة واحدة فقد ساءت علاقته بالمماليك فحاول التخلص منهم لكنه لم يتمكن، وأرسل المماليك يشكونه الى السلطان، فعزل عن ولاية مصر وولّي الشام ثانية سنة ١١٥٤ هـ ـ ١٧٤١ م ، وأقام فيها ثلاث سنين • مات في (عكّا) خلال حصاره قلعة (طبريا) في صراعه مع (ظاهر العمر) ، قيل : مات مسموماً ••

يعد (سليمان باشا العظم) من خيرة الحكام في عصره ، استبشر أهل الشام بولايته عليهم خلفاً للعبدي باشا ، وأنشأ الشيخ عبدالرحمن البهلول قصيدة يؤرخ هذا الحدث بقوله(٦) :

بهذا العام فيهم قد تجلّى   مع التاريخ قيّوم حفيظ

حاول اصلاح الجند ، وطارد الأشقياء (الزرباوات) ، وعمل على حماية محمل الحج الشامي • وكان أهم ما قام به في دمشق ترميم نهر القنوات واصلاحه سنة ١١٥٦ هـ ـ ١٧٤٣م ، وتحدث الشاعر عبد الرحمن البهلول عن ذلك بقوله(٧) :

جزى المولى أمير الشام خيراً   سليمان الزمان ودام دهرا

بما قد جدّد القنوات صدقا   باخلاص زكا سرّاً وجهرا

فيا طوبى له اذ نال أجرا   على مرّ الليالي مستمرّا

له في كل مكرمة أياد   باحسان علت وهلمّ جرّا

فكم صنعت يداه وجوه برّ   بها أرّخ سبيل الخير أجرى

١١٥٦

ولكن ذلك لم يمنع من مصادرة أمواله بعد مماته والاساءة الى نسائه وأولاده ، وقد خلفه على الشام ابن أخيه (أسعد باشا العظم) الا آنه لم يتمكن بادىء ذي بدء من تحريك ساكن للحد من نكبة أسرة عمه •

بنى (سليمان العظم) الجامع الجديد في اللاذقية ، وحمّاماً يجاوره يسمى الحمّام الجديد ، وجامعاً صغيراً في حي العوينة يسمى (جامع العوينة) •

ويقول أهل اللاذقية : عندما شرع البناؤون في حفر أساس الجامع الجديد وجدوا أن أرضه تقوم على عتبة مائية ، وتخوفوا من تصدع البناء ، وأشاروا على الباشا بتغيير مكان المسجد • لكنه أصر على المكان متعهداً بتحمل النفقة مهما بلغت !؟ وتطوع أحد المعماريين بالاشراف على البناء متحملاً بدوره المسؤولية ، فجلب أوتاداً من خشب الزيتون وغرسها في الأرض الموحلة ، وأقام بينها حجارة الأساس حتى سواها بالأرض ، ثم تركه سنة للاختبار فلما تبين صلاحه شرع بانشاء البناء • ويزعمون أنه أنفق على المئذنة وحدها حمولة بغل من الريالات الفضية !..

☐ جامع الميناء(٨) :

في سنة ١١٦١ هـ ـ ١٧٤٨ م شرع الريس(حمودة بن ابراهيم التونسي) ببناء جامع في الميناء ، فاتمه ونقش على باب حرم الصلاة الابيات الآتية :

أنشا ذا الجامع المنيرا	الحاج ريس حموده شكورا
فنال أجراً به عظيماً	وحاز فضلاً غدا كبيرا
لحسنه الزاهي ما رأينا	في عام تاريخه نظيرا

سنة ١١٦١

ويمتاز هذا المسجد بمحرابه المحاط بنقوش هندسية ونباتية وتعلوه مقرنصات . للمسجد اربع قباب محمولة على عمود مركزي . وهو المسجد الأثري الوحيد في اللاذقية في الطابق العلوي حيث جعل الطابق الارضي مخازن ومستودعات . ويمتاز هذا المسجد أيضا بان مدخله أنشىء في قاعدة مئذنته .

المعروف عن الريس (حمودة) باني المسجد أنه كان قبطاناً تونسياً تمكن من جمع ثروة من عمله في البحر متنقلاً بين موانىء البحر الأبيض ، فاشترى عقارات باللاذقية وقفها على وجوه الخير . ويبدو أنه كان على صلة بالعلوم الرياضية والفلكية ، فقد عهد الى رجل فلكي اسمه (محمد بن مصطفى) بالاشراف على امر التوقيت في اللاذقية ، وتكفل بدفع راتبه من ريع الوقف ، واشترط أن يدفع راتب لمن يقوم بهذه المهمة من بعده . جاء في وقفيته(٩) :

« وشرط آثابه الله اذا انحلت هذه الوظيفة عن الشيخ محمد المرقوم لا تدفع الا الى رجل عالم عارف بعلم الربع وأن يكون خبيراً بعلم الفلك ويكون مشهوراً بالديانة والصلاح ولا تدفع ولا تسلم هذه الوظيفة الا بعد أن يختبره العلماء ويشهدوا له بالعلم » .

لعل صلة الريس (حمودة) بعلم الفلك والربع تعود الى استفادته من ذلك في الملاحة ، ولا يستبعد أن يكون على دراية بالفلك وما يمت اليه بصلة .

☐ حمّام العنّابة :

في سنة ١١٥٩ هـ ـ ١٧٤٦ م أسندت ولاية طرابلس الى (سعدالدين باشا العظم) ، وكانت ولاية الشام يومها تحت امرة أخيه (أسعد باشا) ، فعمل على تقليد عمه سليمان وأنشأ حمّاماً سنة ١١٦٢ هـ ـ ١٧٤٩ م سمي حمّام العوافي ، فقد كانت تعلو بابه لوحة رخامية نقش عليها :

يا داخلاً حمّامنا متنزهاً	في حفظ مولانا السميع العليم
أنشأه سعدالدين باشا زاده	مولاه بالعلياء والجاه العظيم
فيه العوافي والشفا أرخ لنا	بشراك عندي بالنعيم المقيم

١١٦٢

لقد تغير اسم هذا الحمام فيما بعد ، أيصبح (حمام العتابة) نسبة الى السوق المجاورة له · هدم مؤخراً ففقد البلد حماماًجميلا واثراً لطيفاً ·

وسعدالدين العظم وابن اسماعيل العظم · عهد اليه السلطان بولاية طرابلس سنة ١١٦٤ هـ ـ ١٧٥٠ م ، وأسندت اليه سردارية الجردة ليكون عونا لاخيه أسعد العظم والي الشام · ثم عهد اليه بولاية حلب مع الاحتفاظ بسردارية الجردة خلافا للعادة ، لكنه ما لبث أن أعيد الى طرابلس · فلما عزمت الدولة على تشتيت آل العظم بعد تعاظم نفوذهم نقلته الى (مرعش) سنة ١١٧٠هـ ـ ١٧٥٦م،ثم الى (جدة) سنة ١١٧٢ هـ ـ ١٧٥٨ م، وهناك عزل وصودرت أمواله وأملاكه(١٠) ·

ـ جامع البازار :

يتألف جامع البازار اليوم من تسعة عقود ترتكز على أربعة أعمدة تحيط بالعقد المركزي · فهو يشبه بهندسته الجامع الجديدالسيباني الا أنه خال من القباب، ولا زخرفة فيه · واذا استثنينا اللمسات الفنية البسيطةعلى مدخله الخارجي والمئذنة التي تعلوه فالمسجد عبارة عن قاعة كبيرة تجاور فسحةسماوية صغيرة مرصوفة بالحجارة ·

يعود تاريخ البناء الى سنة ١٢٤٠ هـ ـ ١٨٢٥ م ، وقد نقشت العبارة التالية فوق الباب الأول لحرم الصلاة :

« عليكم بالجماعة فانها لكل خير جمّاعة والعمر في قصره ساعة فاجعلوها طاعة »

١٢٤٠

وفوق الباب الثاني :

« اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي ، من سمع النداء ولم يجب فلا صلاة له الا من عذر ، من صلى الصبح حاضراً فهو في ذمة الله » ·

١٢٤٠

لكن العرف الشفوي يؤكد أن هذا البناء انما أنشىء مكان مسجد قديم يعود الى زمن الفتح العربي ، فهو مكان أول مسجد في البلدوضع أساسه عبادة بن الصامت الأنصاري···

ليس ثمة وثيقة تاريخية تثبت ذلك ·· لكن هناك بعض المظاهر تشير الى أصل العرف الشفوي منها :

ـ من أسماء هذا المسجد (جامع العشر) ، وهذه اشارة الى أن العشور كانت تجبى فيه، وهو تخصيص يشير الى عرف قديم يوم كان المسجد يمثل المركز الاداري ·

ـ يعرف هذا المسجد أيضاً باسم (الجامع الصغير) ، وذلك مقارنة بالجامع الكبير الذي بناه الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد استرجاع اللاذقية من الأفرنج · ولكن هذا المسجد اليوم أكبر مساحة من المسجدالكبير!؟. اذا فالتسمية تعكس وضعه يوم أنشأ الظاهر غازي مسجده ، ومن ثم فهو أقدم منه ···

لقد أشرت من قبل الى أن بناء المسجد بوصفه الحالي يعود الى سنة ١٢٤٠ هـ ـ ١٨٢٥ م وفق لوحتين تاريخيتين ، ولكن ليس في هاتين اللوحتين اشارة الى اسم الباني ، بل فيهما عبارات دينية تحض على الصلاة وتدعو اليها .. ربما أنشيء بجهد شعبي دون أن يتبناه حاكم أو ينفق عليه وجيه ثري ...

وعلى قاعدة المئذنة من الجهة الجنوبية مزولة رخامية ذات ظل منكوس منصوبة في مستوى دائرة أول السموت ، وهي ـ مع الأسف ـ خالية من اسم صانعها وتاريخ الصنع ...

قبالة الجامع من الجهة الغربية حمام صغير يسمى (حمام البازار) أو (حمام العشر) ، بني ـ على الأرجح ـ في العصر العثماني ، لكنني لا أعرف شيئاً عن زمن بنائه ومنشئه ؟.

□ مسجد النور (جامع المغربي) :

بني هذا المسجد سنة ١٢٥١ هـ ـ ١٨٣٥م بعد عشر سنين من تجديد جامع البازار ، وقد تحدثت في بحث سابق عن الشيخ (محمد ناصر الدين المغربي) ومسجده الجميل بما يغني عن الاعادة .

□ بيت انطنيوس مرقص :

يمثل هذا البيت التأثيرات الغربية القادمة عن طريق بيروت واستانبول ، فهو من أوائل البيوت التي صنع سقفها من القرميد ، بني سنة ١٨٦٣ م ، وأشارت لوحة التاريخ الى ذلك بأبيات جاء فيها :

أنطنيوس قد شاد برجاً مرقصاً ... أرجاؤه حيث الشعاع يموج
فشدت بساحته المكارم أرخوا ... هذا مقام للضيوف بهيج
١٨٦٣

ويماثل هذا البيت بيت (عبدالحميد عجّان) ، لهذا عندما زار (مدحت باشا) اللاذقية سنة ١٨٧٩ م لم يجد المسؤولون أفضل من بيت السيد (أنطنيوس مرقص) ليقيم فيه ، وبيت السيد (عبدالحميد عجّان) ليدعى اليه في مأدبة ليخطب فيه مبيناً سياسته .

يعود بناء دار الحكومة القديمة الى مطلع القرن العشرين ، نهض بهذا المشروع المتصرف (شكري باشا)(١١) ، وهي من الناحية المعمارية صورة مصغرة عن الأبنية الحكومية التي أنشئت في البلاد التابعة للدولة العثمانية زمن السلطان عبدالحميد الثاني كالسراي الحميدية في دمشق (وزارة الداخلية) وسراي الولاية في بيروت ، والى تلك الفترة يعود بناء المستشفى القديم قرب المركز الثقافي .

أما خان الدخان (المتحف حالياً) فهو بناءجميل متميز ، لكـن الأستاذ جبرائيل سعادة سبق ودرسه دراسـة وافيـة نشرت في مجلة التراث العربي(١٢) ٠

نشير أخيراً الى الثكنة الابراهيمية التي بناها (ابراهيم باشا) أثناء سيطرته على بلاد الشـام (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) ، فقـد هدمت ،وأنشئت على أرضها مدرسة قبـالة حديقـة أبي تمـام ٠

(ياسـر صـاري)

الحواشـي :

١ ـ الأستاذ جبرائيل سعادة ـ المختصر في تاريخ اللاذقية ـ ١٩٨٤ ـ ص (٣٧ ـ ٣٨) ٠

٢ ـ الشيخ عبد الغني النابلسي ـ الرحلة الطرابلسية ـ مخطوط ٠

٣ ـ المرجـع السابـق ٠

٤ ـ اسماعيل باشا البغدادي ـ هدية العارفين ـ استانبول سنة ١٩٥٥ ـ المجلد الثاني ـ ص (٣٠٠) ٠

٥ ـ تحدث الياس صالح بتفصيل عن حادثة ترميم الكنائس في كتابه المخطوط (آثار الحقب في لاذقية العرب) ، حـوادث سنة ١٧٢٠ م ٠

٦ ـ انظر : حوادث دمشق اليومية (يوميات البديري الحلاق) ـ تحقيق د٠ أحمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٥٩ ـ المقدمة ص (٣٤ ـ ٣٥) ٠

٧ ـ المرجع السابق ـ ص (٤١) ٠

٨ ـ قام بدراسة هذا المسجد دراسة هندسية الطلاب : حسام خدام ، زكريا قلاب ، نوار زريق ٠ باشراف الدكتور عبدالمعطي اسماعيل الخضر ـ جامعة تشرين اللاذقية ٠

٩ ـ الدراسة السابقة ـ ص (٩) ٠

١٠ ـ انظر : حوادث دمشق اليومية ـ المقدمة ـ ص (٣٦) ٠

١١ ـ رفيق التميمي ومحمد بهجت ـ ولاية بيروت ـ مطبعـة الاقبال بيروت ١٣٣٥ هـ ـ ص (٢٨٢) ٠

١٢ ـ مجلة التراث العربي ـ دمشق ـ العدد (الثالث) تشرين الاول ١٩٨٠ ص (١١٥ ـ ١٣١) ٠

★ ★ ★

موضوعات الصّورة الفنيّة للبحر ودلالاتها
صورة البحر بين الفن والواقع

احمد عبد القادر صلاحية

١) وصف البحر :

لا بـد من الاعتراف ـ أول الامر ـ أن البحر بصفته عنصراً طبيعيا لم ينل من اهتمام الشعراء قسطاً مساوياً لما نالته بعض عناصر الطبيعة الأخرى في تلك الجزيرة الخضراء، وأن وصفه ـ مفرداً ـ كان قليلاً على معرفة قسم منهم البحر معرفة حقيقية وركوبهم متنه وتجوالهم فيه ، ولقد يكون صحيحاً بالمقارنة مع الشعر المشرقي قول د. سعد شلبي عن الأنهار والبحار والزوارق والأساطيل أنها « موصوفات أعطاها الأندلسيون مزيداً من الاهتمام وأشعارهم التي أنشدوها في هذا الباب طبعت الأدب الأندلسي بطابع خاص»(١) بيد أن النظرة الشمولية في الشعر الأندلسي تبرز أن الطبيعة البرية كان لها النصيب الاوفر من اهتمام الشعراء الأندلسيين ٠

لقد وصف الشعراء الأندلسيون ركوبهم البحر وافتخروا بذلك أحياناً قليلة ، ووصفوا رحلتهم وترحلهم فيه ، ووصفوا السفن والأساطيل والمعارك البحرية الا أن البحر ذاته لم ينل مساحة واسعة من هذا الوصف ، ولم تفرد القصائد لوصف هذا البساط السحري الأزرق بل لا أكاد أجد سوى بعض المقطعات القليلة في عصر الخلافة وعصر المرابطين وعصر الموحدين ، وبذلك يناقض استقصاء البحث قول د. سعد شلبي أنه يبدو جلياً « كثرة وصف الأندلسيين للبحر في صورة مقطوعات تستقل بـه أو أبيات ترد في ثنايا ما أنشدوا من مطولات »(٢) ٠

ويقترب كلامه من الدقة اذا أبدلنا كلمة« ذكر » أو « موضوعات » بوصف البحر فثمة بون بيّن بينهما وهذا ما لا يميزه د. سعد شلبي ـ كما سيوضح البحث بعد قليل ٠ وبعد

عدة صفحات يرجع د. سعد شلبي عن رأيه ليقول حكماً شبيهاً بما أطلقته آنفاً يقول : « وعندما نستبعد وصف الأساطيل الحربية وهي كثيرة في الأدب الأندلسي ـ لا نجد الا قصائد معدودة في وصف البحر قيل أغلبها في مجال المديح وبخاصة بعد تدخل المرابطين في شؤون الأندلس »(٣) • ولعل من الأفضل التذكير بأنه ليس ثمة قصائد كاملة للبحر بل أبيات في القصائد ومقطعات •

وتعليل ذلك عندي ـ أن النظرة العامة الى البحر كانت سلبية ، فقد رأوه عنصراً مخيفاً غير مأمون العواقب ، يقول الحميري :« ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه »(٤) • وليس كما ذكرد. سعد شلبي من أن الأندلسيين « كان في اعتقادهم أن البحر للروم وأن البر للعرب »فلقد بنى هذا الحكم الخطير على بيتين لأبي العرب مصعب بن محمد الزبيري ذكرهما وهما :ـ

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسىً ... واعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين بـه ... إلا على غرر ، والبـر للعـرب

فهذان البيتان لا يمثلان واقع البحرية العربية في سائر العصور الأندلسية بل لا يمثلان الا بعض حالات التدهور التي مني بها ، وان ذهب د. سعد شلبي الى أنه يؤرخ « للشعر والشعراء لا للبحر والبحارين المسلمين ، فان الأولين ليسوا من أهل المغامرات في البحار ولا ممن يجرؤون على مغالبة الأمواج بل ان هذه هي الطبيعة البشرية بصفة عامة ، أما الآخرون فلهم في سجل البطولات البحرية تاريخ معروف »(٥) ، فاني أرى أن هذين البيتين لا يعبران الا عن لحظة شعورية معينة في موقف اقتضاها لا غير في زمن محدود لم يكن للعرب فيه سيطرة على البحر ، وأنه لا يمكن اقامة حكم خطير كهذا على بيتين فقط ، مع أن ما يدحضهما في شعر البحر الأندلسي أكثر من أن تحيط به دراسة والشعر ـ قبل هذا كله ـ تعبير فني جمالي وليس وثيقة تاريخية في أحيان كثيرة وقيمته « ليست فيما يقوله ولكن فيما يوحي به وفيما يستخدمه من فنيات جمالية ترتفع باللغة من مستواها المألوف لتعطيها قيمة جديدة »(٦) •

لذلك قد يكون أدنى الى الصواب القول: ان هذه النظرة الشزراء نحو البحر قد انعكست على الشعر فارتبطت صورة البحر عند الشعراء عامة بالرعب والخوف والفقد الا في أحوال نادرة(٧) فأدى ذلك الى قلة تصويره •

ولقد وقفت على مقطعة واحدة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس لمحمد بن أبي الحسين يصف فيها البحر يقول :

« وملتطم الأرجاء محلولك القرا ... كثير رزاياه قليل نوافله

بساط من الآفات رخو كأنه ... غلالة ليل ماتلاث مهاوله

كأن اصطفاق الموج في جنباته ... خميس تهاوت بالسيوف قنابله

كأن سنا أمواجه في التجاجه ... لجين جرى فوق الزبرجد سائله »(٨)

لقد رسم الشاعر للبحر لوحة قاتمة تثير الرعب منه وتنفر الناس عنه وتبرز نظرة الشاعر اليه المطابقة للنظرة الشائعة عنه آنذاك ، وكاد ينجح لولا تلك الألوان الزاهية البراقة في البيت الأخير ، الغريبة عن اللوحة وما توحي به ، فالبحر - في رأيه أو كما يصوره - كثير المصائب قليل العطاء ، لذلك رصدت الصورة الأولى حركة البحر وصخبه وهي ليست حركة عادية بل تلاطم وصفع ينجم عنه ضجيج مرتفع ثم جاءت الصورة الثانية لتزيد اللوحة قتامة بنشرها اللون الأسود الشديد السواد على أثباج البحر وتجمع الماء، ويحتوي البيت الثاني على صورتين رائعتين نادرتين ، فقد جعل في الأولى البحر بساطاً ومنحه صفة الرخاوة والطراوة لأن البحر مغرر بهدوئه يغري بوطئه ولكن هذه الصورة الحسية ترتفع بمعانقتها لمواد معنوية فهو ليس بساطاً من صوف أو غيره من المواد التي تصنع منها البسط بل هو بساط من الآفات وبذلك تنقلب دلالتها من الاغراء الى التحذير ، أما الصورة الثانية فهي أكبر وأعظم ، انها رؤية كونية خاصة تجعل الليل ثوباً والبحر شعاراً يلبس تحت الثوب يضم جسد الأرض ليغطيها بالمصائب ويطوقها بالأهوال • ثم يأتي تشبيه اضطراب الأمواج وما ينتج عنها من زبد بجماعات الخيالة وكتائب الجيش التي تهوي بالسيوف على الأعداء ، ومع أنها صورة معروفة متداولة الا أن فيها من الخصوصية والدقة ما يجعله جديراً بها بالاضافة الى مناسبتها التامة لجو المقطعة ، وتبقى الصورة الأخيرة - التي تشبه سنا الأمواج في اعتلاجها باللجين السائل فوق الزبرجد - كنحلة غريبة عن الخلية فهي - على جمالها - غير متسقة مع أخواتها ومع الحالة الشعورية المسيطرة على الأبيات ، فبعد أن كان البحر بساطاً من الآفات مظلماً يصبح امتداداً أخضر من الزبرجد الجوهر الكريم واعداً بالخير والثراء وتصبح أمواجه لامعة كالفضة الألقة اللينة بعد أن كانت سيوفاً يضحك فيها الموت حتى تلمع أنيابه فالشبه لا يتعدى الشكل الخارجي قد يستشف منه شغف الشاعر بالجواهر والزينة • والملم بأطراف الحديث لأقول ان هذه الصور الغزيرة الكثيفة التي تترجح بين الغرابة والألفة وبين البساطة والعمق والمبالغة - شديدة المناسبة للموضوع - خلا الصورة الأخيرة • ويبقى أن يسأل عن صلة بعضها ببعضها الآخر أو عن تسلسلها هل هي صور متنامية تفنى كل صورة في الأخرى أم هي صور جزئية مرصوفة منظومة بسلك من المشاعر الموحدة والعاطفة الدافئة أم هي صور مبعثرة من دون ترابط ؟ وفي ظني أن الجواب هو الاختيار الثاني • وأخيراً، تحمل هذه الصور دلالات نفسية - أشرت الى طرف منها - وقيماً تأملية فريدة •

ويتكرر تشبيه البحر بالجيش لدى ابن الزقاق ولكن بشكل آخر ودقة أكبر يقول :

« كان البحر اذ طلعت ذكاء ولاح بمتنه منها شعاع

جيوش في السوابغ قد تبدى لبيض الهند بينهما التماع »(٩)

أقف هنا أمام تشبيه موسع معقد مقصود لذاته يؤكد ذلك تصدر أداة التشبيه في أول المقطعة ، وتبرز في الصورة عناصر جديدة منها الشمس التي تسبب هذا اللمعان على سطح البحر بارسالها أشعتها الذهبية اليه ،وعلى صفائح السيوف الصقيلة وتستوقف الدارس كلمة « متن » التي توحي بأن البحر مخلوق له ظهر والأقرب أن يكون حيواناً لأن

ظهره مسطح ووجود هـذا اللمعان على ظهر هذا المركوب يدل على أنه أملس ناعم حرون « يزل الغلام الخف عـن صهواته » أي صعب الركوب. ومن العناصر الجديدة أيضاً الدروع فالجيوش في مجنات طوال واسعات مما يجعل لونها المعدني يقترب أكثر من لون البحر وقت الشروق لذلك كان تحديد زمن التقاط الصورة مهماً جداً لتحديد الالوان والأضواء والظلال . كما أن هذا الزمن هو ـ عادة ـ وقت خروج الجيوش للقتال وتكرار هذه الصورة يدل على وضـع العرب العسكري ويشي بالرهبـة التي يحملها العرب تجاه البحر . ويقع هذا الوصف في صورة واحدة مألوفة في خطوطها العامـة ، بيـد أن دقـة الشاعر واستقصاءه جزئياتها ومحاولة الابداع فيهـا جعلتها تمتـد لتشمل بيتين اثنين وهذا ما يسمى في نقدنا القديم : التضمين(١٠) .

وقد حظيت صورة البحر الغاضب الصاخب بمقطعتين قصيرتين عند ابن حمديس أدخل فيهما عنصراً طبيعياً آخر هو الريح ، المسبب الحقيقي لاضطراب البحـر وهيجه يقـول في الأولى : « وقال في البحر :

وأخضر حصلت نفسي بـه ونجت ... وما تفـارق منـه روعـة روعي
رغـا وأزبـد والنكبـاء تغضبـه ... كما تعبث شيطان بمصروع »(١١)

ويقول في الثانيـة : « وقال في البحـر :

ومنسـم الآني يعنـق شـطـه ... مـن نكبـة هـوجـاء حـل وثاقهـا
وكـأنمـا رأت الحقـاق فعجعجت ... فيها القروم وأزبدت أشداقها »(١٢)

تشير المقطعة الأولى الى جدلية الصراع بين الانسان والطبيعة وبـين عناصر الطبيعة بعضها ببعض ولعلها تومىء من طرف بعيد الى قصته الدامعة مع البحر ، وأذكر هنا أن اللون الأخضر يتجاوز دلالته المعهودة فلا يوحي بالأمن والسكينة بدليل أنه كاد يغرق فيه ، ثم يأخـذ الشاعر في تشخيص البحـر تشخيصاً حيوانيـاً فيتبدى كفحل من الابل يصوت ويزبد لأن الريح تزعجه وتثـير غضبه ولا يكتفي ابن حمديس بجعله حيواناً غـير عاقل لا يـدري ماذا يفعل فيجعله انساناً مصروعاً في احدى أزماته وتخبطه التي يفسرها بأنها من جراء عبث الشيطان به ويدل استمداده من المأثورات الشعبية في تعليل هذه الظاهرة الطبيعية في تلك الصورة الغريبة النـادرة على استغلاق أمر البحـر واستعصاء فهـم كنهـه وحقيقته بالاضافة الى توتـره وانفعاله وشدة خوفـه وهلعه منـه لدرجة أن فزعه لم يفارق قلبـه حتى بعـد نجاته منـه وابتعاده عنه ، يؤكد ذلك كثرة الأفعال في هذين البيتين و « الأفعال وطغيانها على النص الأدبي تدل على ارتفاع درجة الانفعال عند المنشىء وعلى العكس من الأسماء والصفات التي تدل على العقلانية ومعادلة بوزيمان تقـوم على هـذا الأساس »(١٣) .

وتبدو في المقطعة الثانية مظاهر صراع عناصر الطبيعة بعضها مع بعض ولكن لا يذكر سبب هذا الصراع بين البحر والريح ، فالريح الهوجـاء ـ وهي عنصـر سلبي ـ استطاعت

التخلص من قيودها وراحت تزعج البحر فجعلته يضرب بخفة على غير هدى ، ثم جعلته يسير سيراً مسيطراً على الشاطىء وتشير الصورة الثانية الى معرفته الحياة الصحراوية الغارقة في البداوة معرفة دقيقة وقراءته معجم أوصاف الابل قراءة ذكية ومن ثم توظيفه هذه الأوصاف في صنع هذه الصورة البسيطة الصحيحة المناسبة ، وتشير أيضاً الى دقته واستقصائه الشديدين فلم يكتف بتسجيل تصويت الفحول من الابل عندما ترى الابل الصغار بل رصد الزبد الذي يخرج من أشداقها عند غضبها أيضاً وذلك ليسجل هدير البحر « الهيقم » ويرسم زبده في آن ٠

ويقع ابن خفاجة في حيرة عميقة عمق البحر في تعليل حدوث الأمواج ، فيعلل ذلك تعليلاً ذاتياً رائعاً يقول :

« ولجة تفرق أو تعشق فما تني أحشاؤها تخفق
شارفتها وهي بما هاجها من الصبا مزبدة تقلق
فخلتني في شطها فارساً قرب من فرس أبلق »(١٤)

وقبل البدء بتحليل هذه الأبيات حقيق بي أن أقيد بالقول ظاهرة جديدة مهمة وهي أن الشاعر الأندلسي يذهب الى الشاطىء مراراً — ويزور البحر ويقف قبالته متأملاً واصفاً معللاً هذه الظاهرة الطبيعية العجيبة وخصوصاً حركة الأمواج وضجيجها وازبادها، ويجنح ابن خفاجة الى تعليله تعليلاً خاصاً فيمنح البحر صفات انسانية تجسيدية وتشخيصية — والتجسيد والتشخيص — في شعر البحر في الأندلس — عامة — وفي شعر ابن خفاجة — خاصة — قضيتان مهمتان ، وما أود قوله — هنا — هو: ان الشاعر قد علل حركة الأمواج بصفتين انسانيتين نفسيتين تحدثان هذه الحركة في جسد الانسان وهما الفرق والعشق. فالبحر يخاف ويخشى ولكن لماذا يخاف وممن أو مم يخشى وهل يخاف الريح أو غيرها من عناصر الطبيعة أم يخشى الانسان ؟ ، والبحر يعشق ولكن من أو ما يعشق ، وهل يعشق الانسان فتضطرب جوارحه فيغرقه ليضمه ويستأثر به لنفسه ، ويشي تجاور هذين الفعلين وارتباط العشق بالخوف الى وضع اجتماعي صارم يقمع الحب ويحظره ولكن البحر عاشق أزلي خالد ، لذلك لا تتوقف أحشاؤه عن الخفقان ، وبعد وصف المكان يأتي الحديث وهو مشاركة الأمواج وصف حالها التي تشخص تشخيصاً حيوانياً فيصف اضطرابها وهياجها وازبادها ولكن الغريب أن سبب هذا كله هو رياح الصبا اللطيفة الناعمة فتجعل الأمواج تقلق فتجرجر وتزبد ، أما الصورة الأخيرة المتخيلة التي ترصد حركة الأمواج الدائرية ، فهي تحمل حلماً منغوماً جميلاً متمثلاً في حياة الفروسية والنبلاء العابقة بنشوة النصر وأريجه وتحمل أمنية أكبر في السيطرة على البحر وركوبه وقياده كما يسيطر على الفرس الجموح ويركب ويقاد، أوليس الفن في بعض حالاته « فعل تعويض عن انعدام وحدة التناغم بين الانسان والوجود »(١٥) ٠ ولا بد من الاشارة الى دقته الشديدة في جعله الفرس أبلق أي أسود في أبيض ليظهر لمعان الموج أو زبده ،فالصورة اذن في المساء أو في الليل والبحر في ذلك الوقت مفضض الأديم ٠ بدقة وعمق كبيرين صنع ابن خفاجة لوحته الرائعة من

الوان معروفة وشكل بها صوراً غزيرة بسيطة في آن ، جزئية عديدة مناسبة ينظمها خيط شعوري وجداني واحد ٠

وفي لوحة أخرى مقاربة يظهر فيها ابن خفاجة ضروب التفتي والشجاعة فيقطع القفار السحيقة كما قطعها أسلافه القدماء ويزيد عليهم بقطعه البحار العميقة يقول :

وأخضر عجاج تدرجه الصبا … فتتهم فيه العين طوراً وتنجد
كأن فؤاداً بين جنبيه راجفاً … يقوم به نأي الحبيب ويقعد
سأركب منه ظهر أدهم ريض … مروع بسوط الريح يجري فيزبد
وأمضي فاما بيت نفس كريمة … يهد ، وإما بيت عز يشيد(١٦)

يقول الأستاذ بومدين كروم في التعليق على هذه الأبيات الجميلة : « وابن خفاجة وهو ابن الطبيعة الخضراء بجبالها وسهولها وحيوانها ، كثيراً ما يستولي عليه حبها فيخلع صفاتها على موصوفاته منها فهو هنا يقف أمام البحر يتأمل أمواجه وقد درجتها الصبا فارتفعت وانبسطت واضطربت فيمثل لاضطرابها برجفة قلب عاشق ولهان آقامه وأقعده بعد حبيبه عنه، وينعت البحر بالخضرة، ويصف حركة عينه وهي تتابع البحر في تموجه وانبساطه بأنها تتهم وتنجد كما يصور لنا مركوبه الذي سيخوض به عباب البحر بأنه أدهم لا يروعه غير سوط واحد يجري له ويزبد هو سوط الريح وكأني بالشاعر في هذا الوصف لم تطاوعه مخيلته في رسم هذا المشهد الماثل أمامه فظل مشدوداً ببصيرته الى أرضه بما فيها من ظواهر حية وصامتة ينظر الى البحر من خلالها ويصفه بأوصافها »(١٧) ٠

ولعلي أقرأ هذه الصور الرائعة قراءة مخالفة لما قرأها الأستاذ بومدين كروم ، فهو لم ينتبه لكون الخضرة تطلق على السواد أيضاً فيظن أن الشاعر « ينعت البحر بالخضرة » ، وهذا لا يتناسب مع البيت الثالث حيث وصفه بالدهمة أي السواد ٠ في البيت الأول رصد الشاعر لون البحر وصوته وحركته ومسبب هذا الصوت وهذه الحركة ولم يشر الدارس الى المفارقة بين هذا البحر المضطرب الأمواج المرتفع الأصوات وبين مسبب هذه الحركة وهذا الصوت وهي رياح الصبا اللطيفة الهادئة وقد تبين ـ مما تقدم ـ أن الموقف يتكرر فما المقصود بذلك ؟ في ظني أن المقصود تهويل الموقف والتخويف من البحر ، فاذا كانت الريح الرقيقة تصنع به هذا الصنيع كله فكيف يصير عندما تعصف به الزوابع والأعاصير، والشاعر من ناحية ثانية لا يصف حركة عينه ـ كما ذكر الدارس ـ وهي تتهم وتنجد أي تنخفض وترتفع فهذه الدلالة اللفظية الاولى للصورة ،أما دلالتها المرجعية فهي ارتفاع الأمواج وهبوطها ، وهي ـ بعد ذلك ـ ليست مجرد نقل صور الطبيعة الخضراء الى البحر فهي صورة مشرقية معروفة وقد استعملها الشاعر نفسه غير مرة ، وهي تحمل في أعطافها حنيناً خفياً الى تهامة ونجد وشعر المشرق ٠ والجدير بالذكر أن الشاعر في البيت الثاني لا يشبه فحرف التشبيه «كأن» تنتقل وظيفته الى التقريب ليفسح المجال للاستعارة التي تعبر عن تماثل ومطابقة وتغاير لا تشابه ، وأخيراً فان هذا « الأدهم الريض » الذي سيركب ظهره الشاعر

ليس سفينة أو مركوباً ـ كما ذكر الدارس بل البحر نفسه المرتاع من صراعه مع الريح التي ماتني تجلده فيجري كالقرم ويزبد ازباده ٠وفي اطار وصف الطبيعة والتمهيد للمديح يتفرد ابن عبدون برؤية كونية نفاذة في جعله البحر ـ في تموجه ـ دروعا وزبده فرندا للسيوف ومن ثم في الباسه الأرض هذا الدرع ليحميها يقول :

والأرض قد لبست أدراع أبحرها ... وجردت فوق أيديها ظبا الغدر
من كل درع نسيج الريح غضّنها ... وصارم بالحباب اعتاض من أثر(١٨)

ويستغل غير واحد من الشعراء ظاهرة هيج البحر وفيضان أمواجه في المديح فلا يعللونها تعليلاً علمياً بل تعليلاً خاصاً موجهاً،فيستفيدون منها في صنع صورة مدحية جديدة تبرز عظمة الممدوح الكونية وآثره في عناصرها يقول أبو جعفر بن عاصم :

« وقفت بالبحر والأمواج فائضة ... تترى على سيفه في يوم أهوال
فقلت ما ذاك هول فيه بل لجت ... في لج موجته كف ابن كمال »(١٩)

وفي صورة موسعة يبدأ عبدالله بن حيوس بمخاطبة البحر بداية توهم بأنه يريد وصفه ، بيد أنه يوجه الخطاب ويديره لصالح ممدوحه،فيقارن بين البحر الطبيعي وممدوحه البحر الذي سكن بجوار البحر الذي يطغى ويهيج لاشتراكهما ولكن هذا الاشتراك لفظي لا غير، وفي الصورة تفاصيل جزئية كثيرة تغنيها وتصب كلها في غرض المديح يقول :

« ألا أيهذا البحر جاورك البحر ... وخيم في أرجائك النفع والضر
وجاش على أمواهك العقل والحجى ... وفاض على أعطافك النهي والأمر
وسال عليك البر خيلاً ، كماتها ... اذا حاولت غزواً فقد وجب النصر
لعلك يطغيك اشتراك سمعته ... فذلك بحر لا يشاكله بحر
فأنت خديم الشمس والبدر عنوة ... وتخدمه في أمره الشمس والبدر
وقد وسع الأيام جوداً ونجدة ... وليس لما تأتي به عنده قدر
وما لك من معنى تشاركه به ... سوى خدع في النطق زخرفها الشعر
وما لك من شيء يشير الى التي ... تفوه بها الا السلاطة والهذر
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحه ... ولكنه ان وافق الخبر الخبر »(٢٠)

وقد يرد وصف البحر جزئياً عارضاً ضمن موضوعات مختلفة كالمديح والغزل فابن حمديس يمدح قومه ويذكركم له من صديق صدوق شجاع يحارب في البحر ، فيقف قليلاً ليشبه البحر وفقاقيعه بالدروع المحكمة النسج يقول :

« اذا فرت الأبطال كرَّ وسيفه	يحل بيمناه دم العلج ، محرم
يموج به بحر كأن حبابه	عليه لادص سردها منه محكم »(٢١)

وتبقى صورة معروفة مقتضبة للموج من القرآن الكريم ذكرها الأعمى التطيلي في أثناء حديثه عن طيف الخيال يقول :ـ

« بعثت به طيف الخيال ولم يكن	ليسلك بين الهضب والموج كالهضب
وهبه مضى قدماً ولم يثن عزمه	غوارب خضر تتقى بذرى شهب.. »(٢٢)

وجميع هاته المقطعات والأبيات السالفة تصور الجانب السلبي من البحر وتعبر عن نظرة العرب السالبة اليه ، وتحمل في ثناياها مشاعر الرهبة والخوف منه حتى ان ثمة مقطعتين يمهد لهما بما يوهم أنهما في وصف البحر وان هما الا في التحذير من ركوب البحر والتخويف منه ، ففي ديوان ابن حمديس :

« وقال يصف البحر :

أراك ركبت في الأهوال بحراً	عظيماً ليس يؤمن من خطوبه
تسيَّر فلكه شرقاً وغرباً	وتدفع من صباه الى جنوبه
وأصعب من ركوب البحر عندي	أمور ألجاتك الى ركوبه »(٢٣)

فالشاعر لا يركب البحر الا مضطراً مرغماً لأن ركوبه غير مأمون العواقب ولعله يلمح في صوره الأقرب الى الحرفية الى أن سبب أهوال البحر وخطوبه العظام هو عدم سيطرة الانسان عليه واكتشاف أسراره حتى ان الرياح الشديدة واللينة هي التي تقود السفن وتطرح بها كل مطرح .

وكذلك فالحكيم أبو الصلت يبدأ بوصف عام للبحر ثم لا يلبث لعجزه عن تحديده أن ينعطف عنه ليصور شدة هلعه منه، « وقال في وصف البحر :

تناهى البحر في عرض وطول	وليس له على التحقيق كنه
وأعجب كلما شاهدت فيه	سلامتنا على الأهوال منه
فحسبي أن أراه من بعيد	وأهرب فوق ظهر الأرض عنه »(٢٤)

وتكمن قيمة هذه الأبيات في البيت الأخير منها فالبيت الأول أشبه بمعلومات جغرافية منظومة ، مصاغة بألفاظ الفلاسفة والمتكلمين « التحقيق الكنه » ، والبيت الثاني ليس سوى نظم خبر تراثي عن عجائب البحر وخطورة ركوبه ـ سيذكر في قسم مصادر الصورة ، أما

البيت الثاني فهو وإن كان يطل اطلالة خفيـة على معنى ابن الرومي في مروره بالماء في الكوز مر المجانب فان له حظاً من الابداع والاختراع والتجديد ، فهو كلما رأى البحر هرب منـه وان كان عن بعـد ـ فعدا وأوغل في اليابسة وكأن البحـر يلحقـه ٠

هذه كانت أغلب المقطعات والأبيات التي وصف فيهـا البحـر مفرداً أو شبه مفرد ولا يقتصر وصفه على هذا القدر وحسب بل انه ليمتد حتى يمتزج بجميع الموضوعات البحرية ٠

☐ الحواشـي :

١ ـ البيئة الأندلسيـة : شلبي ص ١٢٨ ٠
٢ ـ البيئة الأندلسيـة : شلبي ص ١٣٠ ٠
٣ ـ البيئة الأندلسيـة : ص ١٣٣ ٠
٤ ـ صفة جزيرة الأندلس ـ الحميري ص ٢ ٠
٥ ـ البيئة الأندلسيـة : شلبي ص ١٣١ ٠
٦ ـ الخطيئة والتكفير ـ الغذامي ص ١٢٠ ٠
٧ ـ انظر البيئة الأندلسيـة : شلبي ص ١٣٥ ٠
٨ ـ التشبيهات من اشعار أهل الأندلس لمحمد بن الكتاني تح د٠ احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت د٠ت ص١٨٠ ٠
٩ ـ ديوان ابن الزقاق البلنسي ـ عفيفة محمود ديراني ٠ دار الثقافة ، بيروت د٠ت ٠ ص ١٩٨ ٠
١٠ـ انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ـ تح علي محمد البجاوي ومحمـد أبو الفضـل ابراهيم ـ عيسى البابـي الحلبي وشركـاه ـ ص ٤٢ ٠
والموشح للمرزباني،أبي عبيد الله محمد بن موسى ـ تح علي محمد البجاوي دار نهضة مصر ١٩٦٥ ٠ ص ٢٣ـ٤٩ـ٤٠٥ ٠
والتعريفات للجرجاني ـ تح ابراهيم الأبياري دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٩٨٥ ٠ ص ٨٤ والعمدة في محاسن الشعـر وآدابه ونقده٠ابن رشيق القيرواني تح محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل ط٥ ـ ١٩٨١ ج٢ ـ ٨٠ ـ ٨٨ ٠
١١ـ ديوان ابن حمديس صححه وقدم له د٠ احسان عباس دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٠ ٠ ص ٣١١ ٠
١٢ـ المصدر نفسه ٠ ص ٣٢٨ ٠
١٣ـ الخطيئة والتكفير : الغذامي ص ٢٧٥ هامش ١٠ وانظر ص ٣٠٧ أيضا ٠
١٤ـ ديوان ابن خفاجة ـ تح د٠ السيد مصطفى غازي دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ٠ ص ١٣٧ ٠
١٥ـ الصورة الشعريـة ـ عساف ص ٩ ٠
١٦ـ ديوان ابن خفاجة ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ٠
١٧ـ الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ٠ اعداد بومدين كروم ـ ماجستير ـ جامعة دمشق ـ كلية الآداب ـ اللغة العربية ٨٢ ـ ١٩٨٣ ـ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ٠
١٨ـ ديوان ابن عبدون اليابري ـ تح سليم التنير دار الكتاب العربي دمشق ـ سوريا ـ ط١ ـ ١٩٨٨ ٠ ص ١٥٨ ٠
١٩ـ زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لأبي بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي ـ دار الرائد العربي ـ بيـروت ١٩٨٠ ـ ص ٨٨ ٠
٢٠ـ المصدر نفسه ص ٤٤ ـ ٤٥ ٠
٢١ـ ديوان ابن حمديس ص ٤١٣ ٠
٢٢ـ ديوان الأعمى التطيلي ـ تح د٠ احسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦٣ ـ ص ١٣ ٠
٢٣ـ ديوان ابن حمديس ـ ص ٨ ٠
٢٤ـ ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني تح محمد المرزوقي ـ دار الكتب الشرقية ١٩٧٤ ـ ص ١٥٧ ٠

الزّوايا والخوانق الصّوفيّة والمكتبات في التراث

د. منير سعد الدين

لقد شاع التصوف في العصور الاسلامية على اختلافها ، وتعلق الناس بطرز من أهل العلم والدين، أخذوا طريق الزهد والتصوف، وأكثر الناس من بناء مؤسسات ودور للصوفية عرفت بأسماء متعددة من خانقاه ، وزاوية ، ورباط ، وتكية ، ومصطبة وغيرها ، وقد اختلى الصوفيون في هذه المراكز للعبادة ٠

ويبدو أن الخانقاه والزوية والرباط كأماكن للصوفية تشابهت في معانيها ووظيفتها عدا الفروق البسيطة من ناحية التمويل وحرية الدروس ، وغير ذلك حتى اختلط الأمر على الباحثين ولم يستطيعوا التمييز بين أسمائها ٠

وقد شهدت المؤسسات التربوية الصوفية نوعين من أعداد الصوفيين ، « نوع أصيل سار في طريق العلم سير العلماء ، واجتهد في الطلب ، وحصل العلم الغزير ، ومالت نفسه الى الزهد واحتقار الدنيا فانخلع عنها وخلص للعبادة والمجاهدة الصوفية ، كما نرى عند الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ/٨٥٧م)، وأبي نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) ، وأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) وعبدالكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م) ، وأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١م)، ومحيي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ/ ١٢٤٠ م) ٠

ونوع آخر اتجه الى العلم حتى حصل منه زاداً يسيراً ثم انصرف الى المجاهدة الصوفية (أي انفاق الوقت الطويل في التعبد والتهجد ومجاهدة النفس لكسر جماحها كما يقولون) عن اخلاص أو بدون اخلاص وسعى الى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه خوارق أو كرامات ، فالتف حولهم العوام وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً وصانعهم الحكام إما عن جهل بحقيقة الدين أو عن خبث للسيطرة على قلوب

الجماهير ... ونفر من الصوفيين الصادقين اتجهوا عملياً فكونوا من مريديهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً خلقياً قويماً وتتبع منهجاً محدداً في العبادة فيجتمع المريدون بشيخهم في أوقات معينة بعد الظهر والمساء للذكر والقيام بعبادات وأذكار يقومون بها معاً ، وسمّوا تلك العبادات التي يمارسونها والنظام الذي يحكم جماعتهم (طريقتهم الخاصة) وشيئاً فشيئاً تحولت الطريقة الى شيء أشبه بجمعية دينية اجتماعية »(١) تعليمية .

ولقد اختلفت الناحية العلمية في الخوانق عنها داخل الربط والزوايا ، « اذ كانت الدراسة بالخوانق تأخذ شكلاً منظماً يتبع نظم وشروط الواقف ، بخلاف الزاوية أو الرباط حيث كان الأمر مفوضا لشيخ كل منهما ، لذلك كثرت فيهما الدروس في فروع مختلفة من العلوم »(٢) .

وقد بدأت الخانقاه تأخذ صورة المعهد العلمي الذي يقوم فيه الصوفية بجانب قيامهم بوظيفتهم الأساسية وهي التصوف وما يتبعها من أمور متعلقة بها من الأذكار وغير ذلك الى العمل على طلب العلم وحضور الدروس التي يعينها لهم الواقف على الخانقاه وقد بدأ هذا التغيير طفيفا أول الأمر .

وكانت المراكز الصوفية دوراً يسكنها المتصوفة للعبادة والتزهد والدراسة والطعام واللباس ، وسكنها الفقهاء والغرباء وأحيانا كبار العلماء ، وكانت بعض الأحيان مركزاً لاجتماعات العلماء ومناقشاتهم العلمية ، أومقبرة لأصحابها والمريدين ، وصارت مأوى للعاجزين من أصحاب العاهات ، وكبار السن العميان ، وللنساء المطلقات والمهجورات ، واليتامى والفقراء .

وهكذا أصبحت المراكز الصوفية تؤدي خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والاقراء والتحديث والافتاء ، ومنح الاجازات العلمية ، وتصنيف الكتب .

لقد لعبت الربط دوراً تربوياً حيث برزت كمؤسسات للتربية العسكرية والدينية ، فالناحية العسكرية ظهرت بسبب تواجد دول على حدود الدول المتربصة بالدول الاسلامية ، وتوافد غزاة المسلمين اليها من أنحاء الدولة الاسلامية يرابطون فيها فيتدربون عسكرياً ويحرسون ويشاركون في القتال . أما الناحية التربوية فظهرت بما يقوم به المريدون من التعبد ، ولما يتلقونه من ارشاد وتوجيه من شيوخهم ، ولعل هذه الربط تذكرنا في تاريخنا المعاصر بما تقوم به اسرائيل من اقامة مستعمرات في فلسطين على الحدود العربية مع الفارق بين الدولة الاسلامية المدافعة ، والدولة الاسرائيلية الغاصبة .

لم تخل المؤسسات التربوية الصوفية من مؤلفات بعض الفلاسفة والعلماء والادباء والفقهاء واللغويين والنحاة وغيرهم مثل : « كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ/١٠٥٨ م) وكتاب الفنون لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي (ت ٥١٣ هـ/١١١٩ م) ، وكتاب الأصول لابن السراج ، وكتاب التاريخ المجاهدي (نسبة الى مجاهد بهروز) لمؤلفه وجيه الدين أبي جعفر السهروردي (ت ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م) ، فكان

شيخ الصوفية برباط الأمير سعادة ، وكتاب عوارف المعارف الذي ألفه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م) ، والناسخ والمنسوخ الذي ألفه الحازمي(٣) في كتاب البديع مع كتابين في الأنساب »(٤) .

وكان للصوفية رأي في الكتاب كوسيلة تعليمية رغم تأليفهم له « فهم لا يتعلمون بواسطة هذه الكتب على الطريقة المدرسية ، بل ان ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم كحافز مقو للتأمل ، والانسان لا يصير بمجرد قرءاته متصوفاً ، بل ان ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه الا من كان أهلاً لفهمه »(٥) .

وقد ضمت الكثير من المؤسسات الصوفية خزائن الكتب ووقفوا عليها الكتب ، وعينوا لها القوام والخزان ومن يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها ، وهذا ما ساعد على نشاط حركة التأليف فيها والمطالعة .

لم تقتصر المؤسسات الصوفية على العبادة والزهد وتأليف الكتب والاقراء والتحديث والافتاء والمحاضرات بل « تنوعت واختلفت بتنوع الرجال واختلاف العصور بحيث صارت عالما ثقافياً له خصائصه الواضحة المتميزة في الحضارة الاسلامية ، فقد نشأت في الربط ألحان خاصة من الموسيقى والغناء ، تلك الألحان التي تتناسق وتتجاوب مع نفوسهم في ورعهم وخشوعهم وذكرهم ، وقد بقي الى اليوم لحن السماعي وهو لحن من ألحان الصوفية في أثناء اقامة السماع في ربطهم »(٦) .

وقد ألفت الكتب الموسيقية فيها « كما فعل الشيخ شمس الدين الذي ألّف كتاباً في فن الموسيقى سماه (غاية المطلوب في علم الأنغام والضروب) وكان يقول ظهر خطأ جماعة من المتقدمين في هذا الفن مثل الفارابي وغيره ، وبرهن على ذلك »(٧) .

أما المعلم الشيخ فقد اعتقد المتصوفة أنه شرط جوهري من شروط التصوف « فالتأثير الروحي أو بتعبير الصوفيين (البركة) لا تأتي الا بواسطة (شيخ) ، ومن هنا كانت السلسلة ، وهل السلسلة الا بركات تنتقل من شيخ الى مريد يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره في مريد أو مريدين »(٨) .

ولذلك رأى القشيري ضرورة الشيخ فقال : « يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فان لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً ، وهذا أبو يزيد(٩) يقول : الشجرة اذا نبتت بنفسها من غير غارس فانها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المريد اذا لم يكن له أستاذ يأخذ من طريقته ، نفساً فنفساً ، فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً »(١٠) .

ويشرف الشيخ على المؤسسة التربوية الصوفية « ويعين بأوامر من السلطان وينبغي ان يكون من العلماء المشهورين بالتصوف وأن يسير في عمله سيرة حسنة ، وأن يكون قدوة طيبة لمن هم تحته من المتصوفة ، متصفاً بالديانة قادراً على القاء الدروس على الطلبة من الكتب الدينية المشهورة(١١) » . وربما يسمى كبير الجماعة الصوفية بشيخ الشيوخ أو شيخ العارفين ، ويبدو أن شيخ الشيوخ كان يتولى تعيين الشيوخ في الربط العائدة له والاشراف عليهم ، وكان يوصي بتعيين من يخلفه بعد وفاته .

وقد وضعت شروط خاصة لعمل المعلمين في المؤسسات الصوفية « فمن خلال وثيقة وقف السلطان الغوري نرى أنــه رصـد ستة آلاف درهم تصرف لرجلين مـن اكابر العلماء أهل الدين والورع والفقه ، يقررهما الناظر في وظيفتي مشيخة التصوف بالخانقاه المذكورة بالسوية ، خارجاً عن السكن المعيّن لشيخ نوبه العصر ، والمبلغ المعيّن لشيخ نوبة الصبح في نظـير السكن ، واشترط بعض الواقفـين ان يكون مدرس الحنفية هو نفسه شيخاً للصوفية، ويشترط أن يكون له قدم عال في سلوك طريق الصوفية، ويكون حسن الهيئة، حسن الاعتقاد، حافظاً لنقول الفقهاء، وتاويل العلماء واختلاف المذاهب ، ونصوص الامام أبي حنيفة (رضي الله عنه) ومن بعـده مـن أصحابه (رضي الله عنهـم) »(١٢) ·

ولقد وجدت فئة من المعلمين المتصوفين الذين جلسوا في الخوانق والزوايا والربط ، يحفّظون التلاميـذ القرآن ، ويدرّسونهـم مبـادىء الدين ، ويعوّدونهم على ممارسـة شعائر الطريقـة ، ولم تكـن مهمتهم معرفـة تلاميذهم تربوياً ، بقدر معرفتهم بربهم دينياً، (ولهذا لم يكن تعليمهم الا تعاليم دينية) ، ولم يكن عملهم الا عبادة ، فلم يسعوا وراء الاجر، واكتفوا بما يقدم اليهم مـن أموال الواقفـين والمحسنين ·

وقد اشتهر مـن رجال الصوفية المعلمين « يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨ هـ/ ٨٧١ م) وكان أول من ألقى دروساً عامة في التصوف »(١٣) ، وكانت أهميـة أبو القاسم الجنيـد (ت ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م) « لا ترجـع في تاريخ التصوف الى مذهبـه فحسب وانما هي ترجع أيضاً الى أنـه كان يذيـع تعاليم الصوفيـه ويعلمها ، ولكن في دائرة محدودة ، وبين بيئة خاصة من أصحابه ومريديه »(١٤) ·

اختلف عدد الصوفية في المراكز التربوية حسب الاتساع، وريع الوقف، « وقد تراوح هذا العدد في الخانقاه بين مائة صوفي وعشرة نفر من الصوفية »(١٥) ·

واشترط في نزلاء الخانقاه من الصوفية باجماع معظم الوثائق أن يكونوا من العارفين بطرائق الصوفيـة وآدابها بغض النظر عـن جنسهم وأعمارهم ·

أما مواعيد حضور الصوفية فقد حرص بعض الواقفـين « على تقسيم الصوفيـة الى قسمين يحضر أحد القسمين وظيفة التصوف في الصباح ، والقسم الثاني يحضر في العصـر ، ولكل من القسمين شيخ خاص »(١٦) · وهناك واقفون آخرون زادوا « في وظيفـة التصوف بجعل الحضور خمس مرات في كـل يوم وليلة عقب كل صلاة »(١٧) · وكذلك من الواقفين « من زاد في معلوم بعض الصوفية مقابل اسناد أعمال اضافية لهم مما يتعلق بالصوفية »(١٨) ·

وحرص الواقفون على تحديـد كل ما يتعلق بوظيفة التصوف بدقـة تامة ، بما في ذلك طريقة جلوس المتصوفة حـول شيخهم ،وكيف يضعون القرآن الكريم مرفـوعـاً على كرسي ، وكيف يقرأونه ويختمونه ·

وهكذا يتضح لنـا غلبة الطابع الصوفي على المراكز الصوفية الثلاثة من ربط وزوايا وخانقاه ، وأنه كان لها دورها في حياة الناس الثقافية والاجتماعية والدينية في العصر الذي ندرس ، فقد كانت ملتقى للعلماء والمفكرين الدارسـين والباحثـين والمناظرين ، وحـوت

مكتباتها نفائس الآثار وروائع المصنفات ،وقصد هذه المكتبات عشاق الكتب والمعرفة ، وأقام فيها الطلبة الغرباء والفقهاء والعلماءالمغتربون أيضاً ، وبعض العلماء ممن كان في طريقه الى أداء فريضة الحج أو حين عودته منها ، ومن الطبيعي حين يجتمع أو يلتقي العلماء فيها أن تسود مجالسهم أجواء المناقشة والدراسة، وأن تصدر عن هذه المراكز المؤلفات في مختلف العلوم ، وكان لمصادر تراجم الصوفية أهميتها ، ذلك أن مشاهير علمائهم كانت لهم احاطة واسعة بالعلوم ، وقد خلف بعضهم اثاراً قيمة ومهمة في الزهد والتصوف وأحوال المتصوفة وأخلاقياتهم .

وصفوة القول بالنسبة للمتصوفة وناحية دورهم التربوي واسهاماتهم الطيبة في هذا الميدان ، لا يسعنا أيضاً الا أن نقول من النواحي الأخرى ان المتصوفة تركوا أبوابهم مشرعة لأفكار وعادات واتجاهات دخيلة على المجتمع الاسلامي ، واستغلتهم قوى غريبة فشجعت فيهم الصور المنحرفة عن الاسلام والتي عن طريقها رسخت هذه العناصر جذورها وقوت قواعدها .

المكتبات وبيوت الحكمة ودور العلم

المكتبات الاسلامية وليدة الحاجات المحلية للمجتمع الاسلامي ، التي أحس بها المسلمون بعد أن استوطنوا البلاد المحررة وبعد أن انتشر العلم والتعلم والتعليم في طول البلاد الاسلامية وعرضها ، والواقع أن النهضة العلمية التي بدأها الاسلام وتبناها المسلمون كانت سبباً من الأسباب الهامة التي دفعت المسلمين للاهتمام بالكتاب والمكتبة ، فالكتب كانت مثار اهتمام المسلمين واحترامهم لأنها أوعية للمعرفة ، ومصدر الاهتمام بها نابع من حض الاسلام على العلم والتعلم .

فالمكتبة عند المسلمين انطلقت من أجل غاية دينية هي تعليم الناس أمور دينهم وتفقيههم وتثقيفهم بالثقافة الدينية ، ولذا رأينا المكتبات تنشأ في المساجد والجوامع ، وهذا أمر طبيعي ومنطقي ما دام العلم والتعليم في الاسلام هما أمر ديني وواجب ، ولذلك كانت الصبغة الدينية الاسلامية بارزة في تكوين وطبيعة هذه المكتبات .

ولذلك كثرت المكتبات في العصور الاسلامية لدرجة أننا قلّ أن نجد مدرسة أو مسجداً أو جامعاً أو خانقاه أو زاوية أو قبة أو تربة أو غيرها « دون أن تزود بخزانة كتب نافعة تعين المدرسين على التأليف والطلاب على المذاكرة ، ولا شك أن هذا العدد الكبير من المكتبات له القيمة العلمية في عصور كان اعتماد التدوين فيها على الكتابة الخطية ونسخ المخطوطات يدوياً ، ولا ريب أيضاً أن وجود دار الكتب العامة والخاصة له أثره المحمود في النهوض العلمي ونشاط حركة النسخ والتأليف . وترجع أهمية المكتبات الى أن الكتب لم تكن منتشرة ولم يكن باستطاعة الكثيرين شراؤها نظراً لارتفاع أثمانها وقلة عدد الموجود فيها لأن جميع الكتب كانت مخطوطات مرتفعة الثمن باهظة التكاليف لارتفاع أثمان مواد الكتابة من الأوراق والأقلام والمواد بالاضافة الى ارتفاع أجرة اليد العاملة في النسخ وندرة هذه الطائفة ، ولهذا اشتهر كل من كان خطه جميلاً في عملية النسخ حتى اشترك فيها بعض القضاة »(١٩) .

وأفادت المكتبة الطلاب « بابعادهم عن جشع التجار ومغالاتهم في أثمان الكتب ، فان بعض الطلاب اذا احتاج كتاباً معيناً وطلبه من بعض التجار أحضره اليه بعد أن يوهمه أنه أحضره من شخص آخر لم يعطه له الا بعد أن دفع له أجرة يومية قد تصل الى ثمن هذا الكتاب ، ولم يكن في مقدور الطلبة أمام جشع بعض التجار دفع ثمن الكتاب وأجرة عاريته ، مما جعل للمكتبة المدرسية أهمية قصوى في حياة الباحثين الدراسية ، فبدونها لم يتمكنوا من الاطلاع أو مراجعة ما يمليه عليه أساتذتهم من آراء الفقهاء وغيرهم · كما أتاحت لهم فرصة ذهبية وهي حرية البحث والاطلاع في العلوم المختلفة بصرف النظر عما اذا كانت تدرس لهم من عدمه ، كما أعانتهم على سرعة الفهم ومتابعة الأساتذة والتجاوب معهم باطلاعهم على الدروس التي ستلقى عليهم في اليوم التالي شرحاً واملاءً »(٢٠) ·

والمكتبات العامة ما هي « الا المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والأمم وان كثرتها وتوزعها وسهولة انتشارها دليل على ثقافة الشعب وتعلمه وحبه للعلم ، ذلك أن المكتبات الخلافية تعكس اهتمام الحكام أنفسهم بالثقافة وهي للاستعمال الشخصي في الأعم الأغلب ، واذا فتحت أبوابها فلفئة معينة من الناس ، ولكن المكتبات في الاسلام كانت ذائعة كل الذيوع منتشرة في أرجاء العالم الاسلامي »(٢١) ·

وبما أن المكتبة هي أحد مقاييس الرقي للشعوب لذا رأينا المسلمين يهتمون بالكتاب اهتماماً كبيراً لدرجة أن الحكام مثلاً حافظوا على الكتب كثروة ذات قيمة كبيرة لا يجوز التفريط بها ، « فقد أتى رجل من العراق الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها ، وأنه اجتمع مع أفرائيم بن الزفان (ت ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م) ، واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد ، وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل بن أمير الجيوش فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في البلاد المصرية ، ولا تنقل الى موضع آخر فبعث لأفرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق تثمينه ابن أفرائيم والعراقي ، ونقلت الكتب الى خزانة الأفضل وكتب عليها القابه »(٢٢) ·

ولقد دخل الكتاب ميادين متعددة وأثار الاهتمام حتى عند الشعراء ، فرأينا من الفنون الشعرية في العصر العباسي الفخر الذي لا يقوم على التفاخر بالانساب والقبائل وغير ذلك مما نراه في شعر القدماء ، وانما نجد الشعراء يفخرون بالعلم واعارة كتبهم للآخرين ، ويرجع السبب في ذلك الى نشاط الحياة العلمية آنذاك ·

ولقد كانت المكتبات منظمة ان لجهة البناء ، أو لجهة العمل فيها ، أو لجهة ترتيب الكتب ، فتعددت العناصر البشرية العاملة بها سواء كانوا من الخزان والمترجمين والنساخ والمناولين ، ونظمت طرائق اعارة الكتب وفهرستها ، وحددت موارد الحصول على الكتب سواء كان ذلك بطريق المصادرة أو الشراء أو الوقف أو النسخ أو الهبات أو الهدايا ·

وقد خصص البناء المستقل للمكتبات كما كان الحال بالنسبة لدار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) ، وبلغ عدد غرف مكتبة الخلفاء الفاطميين أربعين غرفة في القصور الداخلية مما يوحي باتساع هذه المكتبة التي تشبه الكثير من المكتبات المعاصرة وتنافسها ، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن مكتبة دار العلم التي أسسها

سابور بن أردشير في بغداد سنة (٣٨٢ هـ/٩٩٢ م) في العصر البويهي ، حيث بنى داراً بالكرخ « ووقفها على العلماء ونقل اليها كتباً كثيرة »(٢٣) ٠

وكان بناء المكتبات مزوداً بحجرات متعددة ، يربط بينها أروقة فسيحة « وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، مستقلية الواحدة فوق الأخرى ، بحيث توضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير كيلا يكثر تساقطها »(٢٤) ٠ ويكتب اسم الكتاب عليه في « جانب آخر الصفحات من أسفل ويجعل رؤوس حروف هذه الترجمة الى الغاشية ٠٠٠ وفائدة هذه الترجمة معرفة الكتاب وتيسير اخراجه من بين الكتب »(٢٥) ، وخصصت بعض الأروقة للمطالعة والاطلاع وبعضها للنسخ أو للمناظرة والبحث والمحاضرات ، والاجتماعات ، « حتى وجدت مكتبات حوت غرفاً من أجل العزف الموسيقي »(٢٦) ٠

وزودت المكتبات بالأثاث والفرش فهذه مكتبة دار الحكمة لم تفتح أبوابها الا بعد « أن فرشت هذه الدار ، وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها »(٢٧) ٠

وليس المهم في المكتبة وجودها فقط ولا وفرة الكتب فيها ولا أهميتها ولا غير ذلك من الأشياء ، بقدر كيفية تنظيم المواد في المكتبة ، وحسن ادارتها وتحقيقها لأهدافها ، وهذا ما سعت اليه المكتبات الاسلامية التي نظمت تنظيماً رائعاً جيداً نغبطها عليه نحن أبناء القرن العشرين اليوم ، وخاصة حين نقيّمها وننظر اليها بمنظار عصرها ٠

ولم تكن المكتبة الاسلامية مكاناً مهملاً يعلوه الغبار ولا يقصده الا بعض الشيوخ الذين لا عمل لهم سوى قطع الوقت بارتياد المكتبات وغيرها ، « بل كانت منتدى اجتماعياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان يجتمع فيه أهل البلدة أو الحي ويمارسون فيه حياة اجتماعية راقية كما كانت عليه الحال في مكتبة البصرة التي يصفها الحريري في مقاماته في القرن السادس الهجري والتي يقول عنها بأنها منتدى المتأدبين ، ومجمع الغائبين والقادمين ، ومما لا شك فيه أن تلك المكتبة لم تكن الوحيدة من نوعها في بلاد الاسلام وانما كانت هناك كثير وكثير جداً من أمثالها في العالم الاسلامي »(٢٨) ٠

ولوحظ أن بعض المكتبات في العصر العباسي قد سيست ، فاستخدمت بعض دور العلم أو بيوت الحكمة كمراكز دعائية استغلها واستفاد منها أصحاب مذهب أو عقيدة أو فكرة معينة ، اضافة الى وظائفها الأخرى ، كما هو الحال في دار الحكمة الفاطمية بالقاهرة ، ودار الحكمة بطرابلس الشام التي أقامها آل عمار ٠

أما بيت الحكمة في بغداد فكانت أول بيت حكمة عرفه المسلمون ، وكان لها شأنها الكبير في عصرها لما حوته من نفائس الكتب في شتى العلوم وبمختلف اللغات ، وكانت مركزاً للنقل والترجمة والنقلة ، وميداناً للابداع والابتكار ، ففي ناحية الابتكار « أوجد الخوارزمي (محمد بن موسى (ت ٢٣٢ هـ/٨٤٦ م) في بيت الحكمة هذه علم الجبر والمقابلة ، وكذلك قاس أبناء موسى بن شاكر(٢٩) للمأمون محيط الأرض وذلك عن طريق قياس دائرة نصف النهار في صحراء سنجار وكان تقديرهم لها قريباً من الطول الحقيقي لها »(٣٠) ٠

وعرف المسلمون دور علم عبارة عن مكتبات عامة أنشئت خارج المدارس والجامعات « لتسهيل المطالعة والانتساخ وتيسيرهما للراغبين في العلم وخاصة لغير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها في تلك العصور ، ولذلك سارع الأغنياء والعلماء والأمراء والوزراء الى تأسيس دور عامة للكتب أطلق عليها (دور العلم) فكانت معاهد عامة للدرس والانتساخ والترجمة والتأليف تختلف عن الخزائن الخاصة »(٣١) وهي تزيد على دور الكتب « بالتعليم أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها »(٣٢) . ويدل مجرد اسم دور العلم على « الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة كتب ليس غير، وهي خزانة كتب ليس غير ، أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها »(٣٣) .

وقد اشتهر عدد من دور العلم في العصر العباسي منها : دار علم جعفر بن محمد الموصلي (ت ٣٢٢ هـ/٩٣٣ م) بالموصل ، ودار علم سابور بن أردشير التي أسست في بغداد سنة (٣٨٢ هـ/٩٩٢ م) ، ودار علم الشريف الرضي في بغداد (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) ودار علم ابن المارستانية ببغداد (ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م) .

أما وقد فرغنا من الحديث عن المكتبات وبيوت الحكمة ودور العلم عند المسلمين والتي تملأ الانسان فخراً واعجاباً بها حين يقيمها من خلال مقاييس عصرها نرى هذه المكتبات تصطبغ بالصبغة الدينية وهي أساس بالنسبة لها ، وتتصف بصفة تعليمية تربوية حيث تشارك المؤسسات التربوية التعليمية في مهامها كالكتاتيب والمدارس والمساجد ، فالحقت خزائن الكتب بمؤسسات التعليم على اختلافها وبخاصة في المساجد والمدارس .

كذلك لم تكن المكتبة الاسلامية لتحتوي على الكتب المتعلقة بالعلوم الدينية فقط ، بل ضمت كتب العلوم على اختلافها ، ولم تقتصر على هذا أيضاً بل تعدته لأن تصبح هذه المكتبة مركزاً من مراكز البحث والدرس والمناظرة ، وقدم لروادها كل ما يحتاجون اليه من أدوات الكتابة والورق وحتى من يخدم الباحثين ، مما يعطي المكتبة الاسلامية وبالتالي التربية الاسلامية مكانها اللائق من خلال احترامها وتقديرها للكتاب وللعلم وحملته .

وعليه فالمكتبة الاسلامية انضمت الى الأماكن التعليمية الاسلامية الأخرى من المساجد، ومنازل العلماء ، وحوانيت الوراقين، ومجالس الوعظ ، والربط والزوايا والخوانق، وغيرها من مراكز نشأت وظلت تنبض بروح الاسلام وتهتدي بتعاليمه وأهدافه ، وكانت متصلة في نموها وتطورها بالحياة الاسلامية العامة تنعكس فيها أهم أغراض واتجاهات تلك الحياة، ومع تعدد هذه الوسائط والأماكن التربوية فقد نشطت من خلالها التربية الاسلامية ، وازدهرت الثقافة الاسلامية ، وازداد العقل الاسلامي ثراء وسعة أفق ، وتأكدت حقيقة هامة وهي « أن التربية كلما تعددت وسائطها وتناسق العمل بينها وحسنت كأوعية تربوية ، كلما ساهم ذلك في ازدهار الثقافة وفي الحضارة وارساء الحجر الأساسي لمجتمع عظيم »(٣٤) . ألا وهو المجتمع الاسلامي الذي احتضن هذه المؤسسات التربوية ورعاها وأمَّن لها المناخ التربوي النقي النظيف الصالح لتعيش فيه .

الحواشـي :

١ – حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .
٢ – مجاهد توفيق الجندي : دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٣٩ .
٣ – محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م) ، كان يسكن رباط البديع الزنجاني شرقي بغداد ، (الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ، ص ١٥٤) .
٤ – ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، ص ٤٦٥ .
٥ – عبد الحليم محمود : قضية التصوف المنقذ من الضلال ، ص ١١٧ .
٦ – سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية ، ص ٦٠٣ .
٧ – عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٤٤ .
٨ – عبد الحليم محمود : قضية التصوف المنقذ من الضلال ، ص ١١٦ .
٩–١٠ – أبو يزيد البسطامي طيفور بن عيسى بن سروشان ،ت ٢٦١هـ/٨٧٤ م (السلمي : طبقات الصوفية ، ص ٦٧) .
١١ – مجاهد توفيق الجندي : دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٢٨ .
١٢ – محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٠٨ .
١٣ – مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الاسلام ، ص ١٠٧ .
١٤ – المرجع نفسه : ص ١٠٩ .
١٥ – محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٠٩ .
١٦ – المرجع نفسه : ص ٢١٣ .
١٧ – المرجع نفسه : ص ٢١٢ .
١٨ – نفس المكـان .
١٩ – ماجد توفيق الجندي : دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٥٠ .
٢٠ – المرجع نفسه : ص ١٥١ .
٢١ – محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ، ص ١٢٧ .
٢٢ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٦٨ .
٢٣ – ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .
٢٤ – ابن جماعة : تذكرة السامع في آداب العالم والمتعلم ،ص ٤٣٩ .
٢٥ – المرجع نفسه : ص ١٧١ – ١٧٢ .
٢٦ – محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ، ص ١٤٨ .
٢٧ – المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٤٥٨ .
٢٨ – محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .
٢٩ – ظهر موسى بن شاكر في عصر المأمون ، وولع في ميدان العلم ولا سيما في الهندسة ، وانبثق منه ثلاثة نجوم : (محمد) و (أحمد) و (حسن) نبغوا في الرياضيات وعلم الهيئة والفلسفة ، وكان لهم في ذلك مؤلفات نادرة نفيسة . (راجع : قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ١٨٧ ، وابن النديم : الفهرست ص ٣٧٨ – ٣٧٩) .
٣٠ – سعيد الديوهجي : بيت الحكمة ، ص ٣٨ .
٣١ – ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، ص ٤٥٦ .
٣٢ – آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .
٣٣ – المرجع نفسه : ص ٢٩٤ .
٣٤ – سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الاسلامية ، ص٦١٧ .

فردوس المعرّي

رائعة أدبية لمعروف الأرناؤوط

عبداللطيف أرناؤوط

لو سألت أحد أبناء جيل العشرينات من الشبان عما اذا كان قد قرأ رائعة معروف الأرناؤوط « سيد قريش » فمن المرجح انه سيقلب شفتيه بحيرة ، كأنك تسأله عن احدى الأوابد التي عفّى عليها الزمن ، وقد يحالفك التوفيق ان قال لك أحدهم : نعم ، سمعت بهذا الأثر غير أنني لم أقرأه ٠

ولو عدت الى جيل الخمسينات لتبين لك أن جل أبناء هذا الجيل قد تتلمذ على هذا الكاتب العملاق الذي كان يزحم بمنكبيه أمراء البيان من أمثال الرافعي والمنفلوطي ٠ فقد كانت روايته معروفة متداولة ، تسحر قراءها ببيانها الرائع، وبلاغتها الآسرة ، يوم كان نهر الثقافة العربية صافياً لا تكدره الأساليب الهجينة أو الترجمات الرديئة ٠ ويوم كان شبابنا يتلمسون سحر الكلمة ، وتهزهم حلاوة التعبير ٠

وليس لك أن تعلل ذلك العزوف عن روائع آثارنا الأدبية ، وعن رواية «سيد قريش» نفسها بمسايرة أبنائها للتطور، وانصرافهم الى الأدب الحديث بسبب التغيير الذي طرأ على الصياغة الأدبية أو بحجة أن القارىء العربي لا يستسيغ قراءة النصوص الأدبية التي كانت في عصر سابق ، ولا يتحمل ما في كتابة الأرناؤوط من ترادف وتوازن ، وعناية بأشكال التعبير وأناقة في الصور ، وهو يعيش اليوم في عصر السرعة ، ويلتمس الوصول الى الفكرة بأيسر السبل من رومانسية

حالمة ، وعواطف مرهفة ، وهي حجج مغلوطة، ففي أدب كل عصر من القيم الانسانية الخالدة والأساليب الممتعة ما يحفز الانسان الى قراءته ، والتمتع بجماله ، والا لكانت الانسانية تهجر اليوم قراءة هوميروس أو شكسبير لأن في أدبهما الكثير مما تجاوزه عصرنا ونأت عنه أذواقنا، وخالفه تفكيرنا .

واذا كان جيل الشباب اليوم لا يعرف الكثير عن رواية سيد قريش وكاتبه ، فمن الأولى أن تكون معرفته أقل برائعة معروف الأرناؤوط « فردوس المعري » . ففي عام ١٩١٤ م التقى معروف الأرناؤوط الأديبة الفرنسية (جان لوسي داربو) في زيارة لها لسورية ، وزارا معاً مدينة تدمر ثم عرجا على معرة النعمان، وتألمت الأديبة حين رأت قبر المعري المتواضع ، فسألت الأديب وقد استبد بها الاستغراب: أعلى هذه الصورة تكرمون شاعركم ؟ وكنت أتخيل قبره أعظم من مقبرة « البانثيون » في باريس التي تحوي رفات العظماء من أبناء أمتنا !.

ظلت هذه الواقعة تحز في نفس معروف الأرناؤوط فراح يكتب المقالات المطولة في الصحف ويحث أبناء الأمة العربية على ترميم القبر فلم يكن لصوته صدى[1] فلما يئس انصرف الى تأليف رائعته «فردوس المعري» مظهراً فيها مشاعر الوفاء نحو فيلسوف المعرة الكبير ، فكتب هذه الرحلة الخيالية التي بعث فيها المعري من مرقده ، وجعل روحه تطوف في بلدان كرّمت العظماء ، وقدرت العباقرة ، فأقامت لهم التماثيل والنصب وشيدت لذكراهم المتحفات والأضرحة ، وحين رأى عظماؤها الخالدون أن المعري لم ينل حقه من التكريم الذي يليق به من أبناء أمته ، استدعوه الى زيارة بلدانهم لتكريمه ، فأقيمت له الحفلات ، وألقيت الخطب مشيدة بعبقريته ورفعته آلهة الفن والجمال الى مكانة أسمى من مكانة عباقرة أبناء هذه الأمم .

تنقسم هذه الرحلة الخيالية الى مدخل يصور بعث المعري من ضريحه ، واجتماعه بالأطفال الصغار من أبناء أمته ثم رحلته الى بلاد اليونان التي تبدأ من الفصل الثالث من الرحلة ، وتنتهي بنهاية الفصل السابع ، حيث يغادر أبو العلاء بلاد اليونان الى روما ، ومنها يعبر الى فرنسا في الفصل الثامن من الرحلة حيث

---

١ ـ تم ترميم قبر المعري فيما بعد كما تمنى الأرناؤوط ، وبنيت قربه مكتبة حوت آثاره ، واقيم له تمثال في المعرة .

يزور باريس وتنتهي رحلته ، فيقفل راجعاً من مرسيليا الى المعرة ويعود الى ضريحه بعد أن نال من التكريم ما يستحقه ، ويليق بعظمته ، يعود الى قبره مطمئناً لأن الانسانية كلها كرمت نبوغه بعد أن قصّر قومه بحقه ٠

يتحدث كاتب الرحلة بلسان المعري، فيجعله يسرد للأطفال العرب وقائع أسفاره الثلاثة بتصوير رائع ، وتحليل مبدع أقدمه للقارىء بايجاز وفق ترتيب مراحل الرحلة :

١ ـ البعث :

كان اليوم صافياً فاتراً سكنت رياحه ، وهدأ موجه ، والجبال غارقة في بحر من الشفق البنفسجي ، واذ بالسماء قد انشقت ، وهبط منها ملاكان يلبسان ملابس بيضاء كالزنبق يقتربان من قبر المعري ويهتفان بصوت كجلجلة الرعود :

ـ أيها الميت الذي مرت عليه القرون وهو في ثنايا الأرض ، لقد آن لك أن تبعث من قبرك ٠٠ وتمثلت روح المعري بشراً يمشي بعكازيه ، لكنه يبصر ما حوله ببصيرته ٠

٢ ـ حديث الروح :

يعيش المعري بعد بعثه أعواماً قلقاً مضطرباً حتى يحس بالسأم ويتمنى لو يعود الى مرقده ، فيسمع صوتاً داوياً يقول :

ـ يا منير الحلك بسواطع النجوم ، انك ان لم تمنح معونتك للأعمى التائه فالموت أقرب اليه من حبل الوريد ٠

ويظهر حول الشاعر الأعمى ثلاثة أطفال يقدمون له الطعام ويواسونه ويسألونه عن سبب حزنه ووحدته فيخاطبهم قائلاً :

(ـ أيها الأطفال الذين شابهت أصواتهم أهازيج القماري ، لا طغى عليكم السفاحون ، ولا حلّق فوق رؤوسكم طائر الشؤم،إن السأم قد سطا عليّ فنزعت الى الوحدة هائماً ، وتوسدت من الكلأ فراشاً ناعماً ٠٠ حتى مرّ بي فريق من البشر فلما أن شهدوني متخذاً من الخضرة فراشاً وثيراً قالوا هازئين : هذا أعمى اعتسف

السبيل فهلموا نبتعد عنه بلا اغراق في التظني من الذين كفروا ٠٠ وقالوا أرأيت ما صنع الله بك ؟٠٠ ولو سمع هؤلاء أشعاري ، ووقفوا على أسفاري وكتبي وفلسفتي ورجعوا الى ضمائرهم لوجدوا أنهم في ضلال مبين ٠٠) ويؤكد المعري للأطفال أنه وجد نفسه في رؤيا طاف بهافيجزيرة تحولت بها الأشجار والأزهار الى قرون سوداء ثم سمع أصواتاً تناديه قائلة :

(ــ أيها الانسان المعذب،إن السماء قد غفرت لك بعض ذنوبك . فهي تمنحك النور بضع ليال ، وتأذن لك بالسياحة الى أقاليم ومرابع لا تعرف لها صورة أو اسماً ، وسنحملك نحن ملائكة الغفران الى تخوم غريبة وجزر حسناء لتشاهد عظمة القرون الماضية ٠٠٠) ٠

٣ ــ في جزر سيروس اليونانية :

وتحمل الملائكة النورانية المعري الى جزيرة سيروس في زورق سحري ، فيقطع البحر المتوسط على ضوء خافت ، يحفه الزبد الأبيض كأنه قطع النور ٠٠ فيعود ويخترق حجب الجلد ليشكر الله على نعمة البصر ، ويسمع صوت أحد الملائكة وقد تدانى الشاطىء ٠ يقول :

لقد وصلنا أول اقليم من بلاد الله ٠ أتدري اسم هذا الاقليم ؟ هذه بلدة التماثيل البيضاء ، انها جزر سيروس من بلاد اليونان ، فيصيح المعري : أفهذه هي الجزيرة الساحرة التي ذكرها الشعراء الأثينيون في أغانيهم ؟ وتقبل عذارى اليونان وفي مقدمتهن ايزيس آلهة الشفق وسيدة الجزيرة التي لا يدخلها الا العذارى ، وكان جوبيتر قد أنبأها بزيارة المعري قائلاً :

(ــ يا الهة الشفق : توّجي أرض سيروس بالزنابق والزهر ، واغمري الأكواخ بالنور واللمعان ، فان ضيفك لعظيم ، وانشري في الجزيرة روح الهدوء لأن ضيف الجزيرة يستعذب الاخلاد للصمت ٠٠)٠

ويُحمل المعري على عربة مزدانة بالذهب والفضة بين أسراب العذارى وصوت سيلاس إله الغناء يترنم له بأروع الألحان ، وتقام له في الجزيرة المهرجانات ويمتدح نبوغه ، ويطوف بتماثيل عظماء اليونان الرخامية التي تشع في الليل كالشموع ،

ويقف أمام تمثال هوميروس وفي يده الياذتـه الشهـيرة ، ويتأمل تمثالي أرسطـو وأفلاطون اللذين كان يعرف آثارهما التي نقلها التراجمة الى العربية قديماً ·

٤ ـ في جزيرة زيوس :

ويزور المعري ديانا إلهة القمر فيقف فوق جبال الأولمب مقر آلهة اليونان الأبدي، فيرى حجارته من العقيق ومرتفعاته مـن الذهب وسفوحه مـن اللجين فيسحـره المشهد ، ولا يسترد وعيه الا أمام موكب ديانا ومن حولها العذارى الحسان يتوشحن بالملابس البيضاء ، ويضفرن أكاليل الياسمين والزنبق ، فيكاد يجثو بين قدميهـا لكنها تثنيه عن ذلك وتقول له :

ـ اياك أن تفعل ذلك أيها الوحي السامي ، وبعد قَلِمَ سجودك أمامي وأنت مثلنا خالد ، فادخل الى الأولمب المقدس ·· وقادته ديانا الى الهيكل ، وقبـل أن يلجه، آثر أن يصلي فضم يديه المرتعشتين وقال :

ان قومي لم يكرموني ، ولم يقدروا نبوغي ، وازدروا شأني ، واتهمني نفر منهم بالالحاد ، في حين أن الغرباء يقدسون أعمالي ، فقالت له ديانا :

ـ سترى ما تقرّ به عيناك ، وقادته الى نافذة الهيكل ليشهـد منظراً رائعاً لعذارى مجنحات يحمن فوق المحيط بملابسهن الناصعة البياض ·

وفي صباح اليوم التالي يجيء (أبولون) إله الشمس وبصحبته (أرياس) إلـه الشعر عند اليونان ، الذي صعد منبراً وتلا قصيدة مجّد فيهـا الشـرق وشعراءه ونوه بعظمة المعري الذي جعل الحب شعلة نار تنير العالم والسماء ، وخلعت ديانا على فيلسوف المعرة ثوباً أرجوانياً يرمز الى الحب ، وغنى أبولون ··· ثم يودّع المعري الجزيرة متحولاً الى البندقية ·

٥ ـ في البندقيـة :

يقف المعري بعد طوافه في المدينة أمام تمثال روفائيل وتمثـال دانتي ، لكنـه سرعان ما يسأم المدينة ويحنّ الى أرض المعرة مسقط رأسه ·

٦ ـ في مرسيليا :

ويتابع رحلتــه حتى يبلغ مرفـأ مرسيليا ، ويشير الكاتب الى أن المعري لم يكن يعرف خبر أهلها من الفرنسيين ، مع أن صلات العرب بفرنسا كانت منذ عصر شارلمان والرشيد ، ويتحول منها الى باريس عاصمة الفن والحضارة في العصــر الحديث ٠

٧ ـ في باريس :

وفي باريس يذهل المعري اذ يرى حدائق المدينة وهياكلهـا وقببها الشمــاء ، ويخصص له حاكم المدينة مقراً يرتاح فيه ، ثم يطوف لزيـارة المعابد والهياكـل والتماثيل ، ومقابر العظماء ويخصص الحاكم لمرافقته ابنته الجميلة لتكون دليلة، فتشرح للفيلسوف الشرقي معالم المدينة الحضارية ، ويقف المعري أمام نهر السين فيبهره منظر الغروب ، والسفن تمخر عبابه ، ثم تقوده الفتاة الى مقبرة العظماء ومتحف اللوفر وتعرّفه بأدباء فرنسا من أمثال كورني وراسين وشينييه ، وهــو يتأمل تماثيلهم ، ويستمع الى بعض شعر الفريد دهموسيه ، ولامارتين ، ويتوقف أمام فيكتور هوجو أعظم شعراء فرنسا فيحادثه وينشده بعض شعره ، ويعترف هوجو بنبوغ المعري ويطمئنه الى أن أمته ستكرمه في المستقبل ٠

٨ ـ الختـــام :

وتنتهي الرحلة ٠٠ فيعود المعري قافلاً الى مرسيليا ، ويركب البحر عائــداً الى مسكنه بعد أن يودع الخليج ٠٠ ويروي قصة رحلته للأطفال بعد عودته الى المعرة ، وما زالت أصوات مكرميه من أبناء شـعوب الأرض ترن في أذنيــه قائلة : « المجـد لأبي العــلاء » ٠

هذه خلاصة موجزة عن فردوس المعري ، ونحن نتساءل : أكان غرض معروف الأرناؤوط من كتابة هذه الرحلة لفت نظر العرب لتكريم شاعر المعرة فحسب ؟ أم أنه أراد أن يحاكي فيلسوف المعرة في رحلته الخيالية التي كتبها بعنوان : رسالة الغفران؟ إن بعض النقاد يجعلون فردوس المعري أقرب الى جحيم دانتي ، والواقع أنها أقرب الى رسالة الغفران ، مـع ملاحظة ما بين الكتابين مـن فروق أملتهـا طبيعة عصر كل من الأديبين ولعل من أبرز هذه الفروق :

١ ــ أن المعري استغل رسالة الغفران إطاراً للنقد الاجتماعي والأدبي ، وأبرز من خلالها علمه الواسع المشعب ، ومعروف الأرناؤوط قصّر تقصيراً واضحاً في هذا الباب فلم يبرز ثقافته ولا ثقافة المعري ، ولم يوازن بين شعر المعري والشعر اليوناني أو الفرنسي بل اكتفى بالمرور العابر السريع فلم يشرك القارىء في متعة اقامة دراسات مقارنة بين الأدبين ، ولم يعن بمقارنة بين الحضارات ، الا فيما يتعلق بمسألة اهتمام اليونان والفرنجة بتكريم رجال الفكر وقد فوّت على نفسه فرصة ثمينة كان يمكن أن تمنح الرحلة عمقاً وحياة ٠

٢ ــ رسم المعري عالمين متقابلين هما الجنة والنار ، واقتصر صاحب الفردوس على عالم واحد متماثل له وجهان : واقعي يستمد ملامحه من مظاهر الحضارتين اليونانية والفرنسية وخيالي يرتد الى عالم الخلود ، وقد وفر التضاد الذي صوره المعري بين الجنة والجحيم طرافة وتشويقاً في حين تشابهت المواقف والفصول في (فردوس المعري) للأرناؤوط ، وتماثلت المشاهد ، فالحضارة الفرنسية وريثة الحضارة اليونانية ٠

٣ ــ أودع المعري بعض جوانب رحلته أسلوب التهكم والمفارقات الممتعة ، في حين عرض الأرناؤوط المشاهد بأسلوب رصين جدّي قوامه الوصف والسرد ، والحوار البعيد عن العمق ، فبدت المشاهد رصينة جامدة ٠

٤ ــ اعتمد المعري أسلوباً واقعياً في عرض المشاهد ، واعتمد معروف الأرناؤوط في وصفه أسلوباً إبداعياً حافلاً بالترادف والتوازن والتزيينات البلاغية ، لكنه لا يخلو من قوة تصوير وروعة خيال تجعل القارىء يعيش في جو ناعم مترف من السحر والجمال ، ويطيب نفساً برهافة حسّ الأديب وروعة بيانه ويبدو أن كاتب (فردوس المعري) استهوته فكرة تكريم فيلسوف المعرة ولم يطمح الى أبعد من هذا التكريم ، ولو استفاد من عبقرية المعري في (رسالة الغفران) وما فيها من أبعاد فلسفية لكان قد أضاف الى جمال التعبير عمق الفكرة ولكان للرحلة شأن أعظم في تراثنا الأدبي ٠

وقد تأثر بعض الأدباء المعاصرين بفكرة صاحب فردوس المعري فبعثوا بعض الشعراء العرب من مراقدهم ليعيشوا في عصرنا ، ويطلعوا على ما استجد من حضارة وفكر ، وما حل بالأمة العربية بعدهم من نكبات فرضها الاستعمار ٠

القمر
في عجائب المخلوقات للقزويني

محمد الحامدي

العلامة زكريا بن محمد بن محمود القزويني (١٢٠٣ – ١٢٨٣) في كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » تناول قضايا علمية هامة ، مضى عليها أكثر من سبعة قرون ، واننا نجد في الكتاب حقائق علمية أكدتها معطيات العلم الحديث ، ولا يخلو كتابه من تفسيرات غير صحيحة (لبعض الظواهر الفلكية بشكل خاص) لعدم توافر الأدلة العلمية في ذلك العصر • وما تضمنه كتابه يدل على سعة اطلاعه وأفقه العلمي •

وسوف أتناول نظرة القزويني الى القمر ، مع التعليق العلمي المناسب من وجهة النظر العلمية الحديثة ، ليتأكد لنا ما قدمه العرب من خدمة جليلة لنشر المعارف العلمية وحقائق العلوم في العصور الوسطى •

☐ الافلاك :

قبل الحديث عن القمر ، ننوه بمصطلح الافلاك الذي اورده القزويني ، وكان شائعاً في عصره • يقول : « ذهب الحكماء الى أن الفلك جسم بسيط كروي ، مشتمل على الوسط ، متحرك عنيه • ليس بخفيف ولاثقيل ، ولا بارد ولا حار ، ولا رطب ولا يابس ، ولا قابل للخرق ولا للالتئام • ولهم على ذلك أدلة مذكورة في الكتب الحكمية ، وكتابنا هذا ليس بصددها • والأفلاك كرات محيطة بعضها ببعض حتى حصلت من جملتها كرة واحدة يقال لها العالم ، أدناها الى العناصر فلك القمر ، ثم فلك عطارد ثم فلك الزهرة ، ثم فلك الشمس ، ثم فلك المريخ ، ثم فلك المشتري ، ثم فلك زحل ، ثم فلك الثوابت ، ثم فلك الأفلاك •

واعلم أن لكل فلك مكاناً لا ينتقل عنه ، لكنه متحرك فيه بأجرامه ، لا يقف طرفة عين ٠ وسرعة حركاتها أسرع من كل شيء شاهده الانسان ، حتى صح في الهندسة أن الفرس في حالة الركض الشديد من الوقت الذي يرفع يديه الى آن يضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف فرسخ ٠

ثم ان الأفلاك منها ما يتحرك من المشرق الى المغرب كالفلك الأعظم ، ومنها ما يتحرك من المغرب الى المشرق كفلك الثوابت وأفلاك السيارات ، ومنها ما يتحرك بالنسبة الينا دولابية ومنها ما يتحرك حمائلية(١) ، ومنها رحوية » ٠

كان الاعتقاد السائد في عصر القزويني حول العالم هو الاعتقاد المبني على نظرة بطليموس للكون ، أي ان الأرض مركز للعالم وهي تضم العناصر الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) تحيط بها الافلاك كما وصفها القزويني ، والأجرام مثبتة بأفلاكها وتتحرك بحركتها ٠ وأقرب الأفلاك الى الأرض (العناصر) هو فلك القمر ، لأن القمر هو أقرب الأجرام الكونية للأرض ، وهذا ثابت علمياً ٠ يليه فلك عطارد ، ثم فلك الزهرة(٢) ٠٠٠ الخ ٠

ومن اختلاف مواقع السيارات (الكواكب) والنجوم ، وسرعاتها ومظاهر حركتها ، قال القدماء بتعدد الأفلاك ، واختلاف اتجاهات حركتها ، وقد برزت بمرور الأيام ظواهر لم يستطع الفلكيون تعليلها على أساس نظام بطليموس ـ Ptolmey فادخلت حركات اضافية على الأفلاك الأساسية ، وتم افتراض وجود أفلاك صغيرة هي (أفلاك التدوير) أي لكل كوكب فلك أساسي يدور فيه حول الأرض ، وله فلك تدوير خاص ضمن فلكه الأساسي ٠ وبرزت معضلات أخرى ، وفي عام ١٥٤٣ ميلادي نشر نيقولا كوبرنيكوس ـ (Kopperniqk Nicolaus) تصوراً جديداً عن نظام الكون اعتبر أن الشمس هي مركز العالم وتدور حولها الكواكب بما فيها الأرض ، باستثناء القمر الذي يدور حول الأرض ٠

وجاءت دراسات كبلر وغاليلو ونيوتن لتؤكد تصور كوبرنيكوس وتعلل ظواهر فلكية عديدة ، ولا مجال للخوض فيها ٠

وبتقدم علم الفلك تغيرت نظرتنا الى الكون ، وحتى تصور كوبرنيكوس لم يكن صحيحاً عن العالم ، فالشمس هي نجم متوسط الحجم من مليارات النجوم التي تشكل مجرة درب التبانة ، واكتشفت مليارات المجرات في الكون وفي جميع الاتجاهات وهي تتباعد بسرعات مختلفة ، فالكون المنظور يتسع باستمرار ، والأبعاد بين النجوم والمجرات خيالية ٠

ولذلك استخدم الفلكيون وحدات جديدة للقياس وهي السنة الضوئية ، والبارسك والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة بسرعة (٣٠٠ ٠٠٠) كم في الثانية ، والبارسك مسافة ٣,٢٦ سنة ضوئية ٠ ولتصور مدى الأبعاد السحيقة في

لنكون يمكن المقارنة بين بعد القمر وبعد الشمس عن الأرض، وبعد أقرب النجوم وأقرب المجرات الى الأرض • يصل الضوء من القمر الى الأرض في ثانية وربع الثانيه، ومن الشمس الى الأرض في ثمانية دقائق، ومن اقرب نجم في مجرة درب التبانة ب ٤،٤ سنة • وأقرب مجرة للأرض هي مجرة آندروميدا (المراة المسلسلة) يصل ضوءها الينا بعد (٢،٢) مليون سنة فكم هو واسع هذا الكون ؟

أردت من هذا التعليق توضيح أن مفهوم الأفلاك الذي كان شائعاً سابقاً، نُسف من أساسه، ولكن يمكن قبول التسمية بشيء من التحفظ، فحالياً يطلق اسم (المدار) على مسار الكواكب أو القمر، وهو اهليليجي، وغير محدد في مستو ثابت ولكن يبقى في نطاق من المسافة يمكن اعتباره فلكاً، فالقمر له مدارات لا تحصى حول الأرض ولكن كلها في فلك واحد • ولعل هذا ما أشارت اليه الآية الكريمة « وكلّ في فلك يسبحون » ومفهوم الفلك في القرآن، هو الفضاء (المكان المحدد)، والفلك لا يتحرك، بينما في تفسير بطليموس والقزويني كافة الأفلاك متحركة، وننوه أن في تاريخ العالم وتاريخنا نظرات جريئة انتقدت نظام بطليموس ولكن لم تجد لها أنصاراً على صعيد الجمهور الواسع في ذلك الوقت •

□ فلك القمر :

يقول القزويني في فلك القمر « يحده سطحان كرويان متوازيان، مركزهما مركز العالم، السطح الأعلى منهما لمقعر فلك عطارد، والأدنى لمحدب كرة النار(٣)»، ويتم دورته في كل ثمانية وعشرين يوماً، بحركته التي تختص به من المغرب الى المشرق، وفلك تدويره يدور في الفلك الحاوي في كل أربعة عشر يوماً مرة • ففي الدورة الأولى يكون القمر بوجهه الممتلىء الى مركز الأرض، ثم ان فلكه الكلي ينقسم الى أربعة أفلاك، ثلاثة منها شاملة للأرض، وواحد صغير غير شامل • أما الشاملة فالأول منها يسمى فلك (الجوزهر) وهو الذي يماس السطح الأعلى منه السطح الأدنى من فلك عطارد، والثاني منها يماس السطح الأعلى منه مقعر فلك (الجوزهر) • والثالث منها الفلك خارج المركز في الفلك يماس مقعر سطحية السطح الأعلى من الفلك الكلي على نقطة مشتركة بينهما ويسمى (الأوج)، ويماس مقعر سطحية السطح الأدنى من الفلك الكلي على نقطة مشتركة بينهما ويسمى (الحضيض)، فيحصل سطحان مختلفا الثخن، أحدهما حاو للفلك الخارج المركز، والآخر محوى فيه، ورقة الحاوي مما يلي الأوج، وغلظه مما يلي الحضيض، ورقة المحوى وغلظه وبالعكس، يقال لكل منهما المتم، وأما الفلك الصغير فهو في ثخن الفلك الخارج المركز يقال له فلك التدوير، والقمر مركوز فيه يتحرك بحركته، وحركة هذا الفلك حركة مختصة به مغايرة لحركة الفلك الكلي » •

ليس صعباً على من يلم بمبادىء الهندسة الفراغية أن يتصور الأفلاك الأربعة للقمر كما وصفها القزويني، ولكن ما الذي دفع القدماء لافتراض وجود أربعة أفلاك للقمر ؟ لقد لاحظ القدماء اختلاف مطالع القمر، واختلاف حجمه، فعندما يكون كبيراً يدل على قربه من

الأرض وعندما يكون صغيراً يدل على بعده ، وتبدل شكله من هلال الى بدر ثم هلال ، كل هذه المظاهر حاول القدماء تفسيرها بالأفلاك الأربعة .

والحقيقة العلمية أن القمر يدور حول الأرض في مدار شبه دائري ، أي بيضوي تبلغ المسافة بين بؤرتيه (٢٦٠٠) ميل وطول المحور الأكبر للمدار (٤٧٥٠٠٠ ميل) والأرض تقع في احدى بؤرتي المدار ، فتكون قريبة من احدى الذروتين وهي نقطة الحضيض ، وبعيدة عن الذروة الأخرى وهي نقطة الأوج . فعندما يصدف وجود القمر في نقطة الحضيض يكون على بعد ٢١٦٤٣٣ ميل فيبدو كبيراً وعندما يكون في الأوج على بعد ٢٥٢٧١٠ ميل يظهر صغيراً ، وتتفاوت أبعاده بين النقطتين فيظهر بأحجام مختلفة . بالاضافة الى عامل آخر هو انكسار أشعته بفعل طبقات الهواء أثناء الشروق والغروب فيظهر كبيراً بلون أحمر ويصغر كلما ارتفع ظاهرياً . وحجم شروقه في الحضيض مثلاً أكبر من حجم شروقه في الأوج .

□ حركة القمر :

يتحرك القمر حول الأرض من الغرب الى الشرق (وفي نظر القزويني يدور الفلك بكامله مع القمر) .

تقدر سرعة القمر وسطياً بـ ٠,٦٣ ميلاً في الثانية ، ونقول وسطياً لأن سرعته في الحضيض أكبر من سرعته في الأوج . والسبب العلمي لذلك هو ازدياد جاذبية الأرض له أو نقصانها ، فعندما يتجه القمر نحو نقطة الحضيض يقترب من الأرض وتزداد جاذبية الأرض له فيتحرك بسرعة وزيادة السرعة تزيد من القوة النابذة التي تبعده ولذلك لا يسقط على الأرض فهو مستقر في مداره بفضل التوازن الديناميكي بين قوة جذب الأرض له ، والقوة النابذة المتولدة من حركته ، وعندما يتجه نحو نقطة الأوج يبتعد وتتباطأ سرعته وتقل القوة النابذة وتكون المحصلة لصالح جاذبية الأرض فيقفل راجعاً وهكذا يستمر في دورانه .

ان مدة دوران القمر حول الأرض بحسابات دقيقة هي (٢٧) يوماً و (٧) ساعات و (٤٣) دقيقة و (١١,٥) ثانية ، وذكر القزويني (٢٨) يوماً .

يميل مدار القمر على مستوى الدائرة الاستوائية للأرض بزاوية قدرها (٢٣) درجة . ويدور القمر مع الأرض حول الشمس ، ولذلك لا يبقى مداره ثابتاً حول الأرض . فنقطة الحضيض قد تكون فوق آسيا أو أوربا أو أمريكا ، ولهذا لا يظهر في كل شهر بنفس الحجم ، وميل محور الأرض على مستوى دائرة الكسوف يخلق وضعاً معقداً لا يمكن استيعابه بسهولة الا من قبل المختصين بعلم الفلك والفيزياء الفلكية .

وهذا ما دفع القدماء لافتراض وجود أفلاك أربعة للقمر لتعليل مظاهره وحركته .

□ حجـم القمـر :

يقول القزويني « وزعموا أن جرم القمر جزء من تسعة وثلاثين جزءاً وربع جزء مـن جرم الأرض » .

لفظة جرم هنا تعني الحجم وليس الكتلة، ان ما ذكره القزويني قريب مـن التقـدير العلمي الحالي ، فحجم القمر يعادل جزءاً من تسعة وأربعين جزءاً مـن حجم الأرض . أما كتلته فتعادل جزءاً من احـدى وثمانين جزءاً من كتلة الأرض .

ورغـم أن القزويني اعتبر الرقم المعبر عن جرم القمر زعماً من أصحاب الهيئة ، فان الرقم يوحي أن تقدير جرمه استند الى أسس منطقية ، ربما من تقدير انحناء ظل الأرض على القمر أثناء الخسوف الجزئي ، ومقارنة جرم القمر بجرم الأرض يوحي ضمناً الاقرار بكروية الأرض لتصح المقارنة .

□ أوضاع القمر (مظاهره) :

يقول القزويني « القمر جرم كثيف مظلم قابل للضياء الا القليل منـه على ما يرى في ظاهره ، فالوجه الذي يواجه الشمس مضيء أبد فاذا كان قريباً مـن الشمس كان الوجه المظلم مواجهاً للأرض ، واذا بعد عن الشمس الى المشرق ومال النصف المظلم مـن الجانب الذي يلي المغرب الى الأرض تظهر من النصف المضيء قطعة هي الهلال ، ثم يتزايد الانحراف وتزداد بتزايده القطعة من النصف المضيء ،حتى اذا كان في مقابلة الشمس ينقص الضياء مـن الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول ، حتى اذا صـار في مقابلة الشمس كان النصف المواجه لنا فنراه بدراً ، ثم يقرب من الشمس فينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول ، حتى اذا صار في مقابلة الشمس ينمحق نوره ويعود الى الوضع الأول . ينزل كل ليلة منزلاً من المنازل الثمانية والعشرين ثم يستتر ليلة ، فاذا كـان الشهر تسعة وعشرين استتر ليلة ثمانية وعشرين ،وان كان ثلاثين استتر ليلة تسعة وعشرين . ويقطع في استتاره منزلاً ثم يتجـاوز الشمس فيرى هلالاً ، وذلـك قولـه تعالى : [والقمر قدرناه منازل حتى عـاد كالعرجون القديم] يريد أنه ينزل كل ليلة منزلاً منها حتى يصير كأصل العذق اذا قدم ورق واستقوس » .

على ضوء فرضية الأفلاك فسر القزويني حركة القمر ، ومعظم ما ورد في تفسيره صحيح من الناحية العلمية . فالقمر في المحاق يقـع بين الشمس والأرض ، ويواجه الشمس فيكون الجانب المظلم بجهـة الأرض فلا نراه ، فاذا تحرك باتجاه الشرق ظهر جزء مضيء منه على شـكل هـلال ، وفي نفس الوقت يدور القمر حول محوره قليلاً ، وبتعبير القزويني (يميل)، وفي كل يوم يرتفع منزلة ، فيميـل أكثر حـتى يصبح بدراً، أي يقابل الأرض بوجهه المضيء.

ونحن لا نرى من القمر الا وجهاً واحداً، وهـذا مفسر علمياً ، فدوران القمر حـول محوره يستغرق مـدة دورته حـول الأرض ،وذلك لشدة جاذبيـة الأرض له ، وبتشبيـه بسيط يمكن ادراك هذه الحقيقة ، اذا أمسكنابيدي طفل وأدرناه حول جسمنا بحيث يبقى مواجهاً لنـا فان الطفـل يكون قـد دار حول نفسه دورة كاملة بدورته حول جسمنا ، فمرة وجهه للشرق ثم للجنوب ثم للغرب ثم للشمال ثم للشرق حيث بـدأ ، فالطفل يمثل القمر ، والذي يديره يمثل الأرض ٠ والحقيقة نحـن نرى من سطح القمر ٥٩٪ أي أكثر من نصف مساحة سطحه بسبب حركـة الأرض أيضـاً ٠

ونلفت انتباه القارىء ان مـدة الشهر القمري (٢٩) يوماً أو (٣٠) يوماً كما أشار القزويني ولكن مر معنا أن القمر يدور حول الأرض في مـدة تقترب من (٢٨) يوماً فلماذا هذه الزيادة ؟ التعليل العلمي يتعلق بدوران الأرض حول محورها من الغرب الى الشرق ، فلو كانت الأرض ثابتة ، لكان الشهر القمري(٢٨) يوما أو أقـل من ذلك ، ولكـن دوران الأرض يجعل الحركة الظاهرية للقمر باتجاه الغرب أي كأنه يخرج من الشرق ويتحرك نحو الغرب ويتخلف عـن موعـد مغيبه في اليـوم السابق بمقدار (٤٨) دقيقة وهي مدة ارتفاعه منزلة لأنه فعلياً يتحرك من الغرب الى الشرق ٠ فاذا حسبنا هـذا التخلف الزمني على مـدى (٢٨) يوماً : ٢٨ × ٤٨ = ١٣٤٤ دقيقة ٠ أي ٢٢ ساعة تقريباً ٠ فان الشهر القمري يصبح (٢٩) يوماً ، وظروف الرؤية تزيد المدة قليلاً فيصبح ثلاثين يوماً ٠

□ **خسوف القمر :**

يقول القزويني : « وسببه في خسوفه توسط الأرض بينه وبين الشمس ، فاذا كان القمر في احدى نقطتي **الرأس والذنب**(٤) أوقريباً منه عند الاستقبال توسط الأرض بينه وبين الشمس ٠ فيقع في ظل الأرض ٠ ويبقى على سواده الأصلي فيرى منخسفاً ، والشمس أعظم من الأرض فيكون ظل الشمس مخروطاً قاعـدته دائرة صفحة الأرض ، لأن الخطوط الشعاعية التي تخرج مـن الشمس الـى جرم الأرض لا تكون متوازية ، فاذا اتصلت بمحيط الأرض ونفذت في الجهـة الأخرى تلاقيا عنـد نقطة فيصل ظل الأرض على شكل المخروط ، فاذا لم يكن للقمر عرض عن **فلك البروج**(٥) عنـد الاستقبال وقع كلـه في جرم المخروط فيخسف كلـه حينئذ ، وان كـان له عَرَض يخسف بعضـه ، وربمـا يمـاس جرم القمر مخروط الظل ولا يقع فيه شيء وذلك اذا كان عرض القمر مساوياً لنصف مجموع القطرين، أعني قطر القمر وقطر الظل واذا كان أقـل من نصف القطرين يخسف بعضه » ٠

اننـا أمام عبارات لا تختلف كثيراً عـن عبارات عالم فلكي يشرح ظاهرة الخسوف في القرن العشرين ، فليس لي تعليق علمي على هـذا الكلام ، لكن سأقف عند نقاط هامة في تفسير القزويني للخسوف ٠

أولاً : سبب الخسوف توسط الارض بين القمر والشمس وهذا مؤكد علميـاً ٠

ثانياً : الشمس أعظم من الأرض ولذلك يتشكل للأرض ظـل مخروطي الشكل وهذا يوحي بالشكل الكروي للأرض ٠

ثالثاً : هناك خسوف كلي وخسوف جزئي وهـذا ثابت علميـاً ٠

رابعاً : كيف تتوسط الأرض بين الشمس والقمر اذا لم تكن معلقة في الفضاء ؟

اننا لا نتذكر الأفلاك التي ذكرها القزويني عند حديثه عن الخسوف فالقمر له أربعة أفلاك وفلك الشمس يلي فلك عطارد والزهرةفكيف تفسر حركة هذه الأفلاك ليحدث التوافق من أجل حدوث الخسوف ؟ لقد تجاهل القزويني الأفلاك في تفسير الخسوف !

☐ المد والجـزر :

يقول القزويني عن خواص القمر « فان القمر اذا صار في أفق من آفاق البحر ، أخذ ماؤه في **المد** مقبلاً مع القمر ولا يزال كذلك الى أن يصـير القمر في وسط سمـاء ذلـك الموضع ، فاذا صار هنالك انتهى (بلغ) المدمنتهاه ، فاذا انحط القمر من وسط سمائه **جزر** الماء ولا يزال كذلك راجعاً الى أن يبلغ القمر مغربه ، فعند ذلك ينتهي الجزر منتهاه ٠ فاذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتدأ **المد** مرة ثانية الا أنه أضعف من الأولى ثم لا يزال كذلك الى أن يصير القمر في **وتـد**(٦)**الأرض** (الجهة المقابلة لوسط السماء) فحينئذ ينتهي المـد منتهاه في المرة الثانيـة في ذلـك الموضع ، ثم يبتدأ بالجزر والرجوع ولا يزال كذلك حتى يبلغ القمر أفق مشرق ذلك الموضع فيعود المـد الى ما كان عليه أولاً ، فيكون في كـل يوم وليلة بمقدار مسيرة القمر منهما في ذلك البحر **مدان وجزران** » والتعليل العلمي للمـد والجزر هو :

يجـذب القمر ماء البحر كما يجذب اليابسة أيضاً والهواء ولكن المُدْرَك بالبصر هو تحرك المـاء فيرتفع ويحدث المـد ، ودوران الأرض حول محورها يولد قـوة نابذة تبعـد الأجسام الحرة عن سطحها وتساهم هذه القوة أيضاً في رفع المـاء ، فماء البحر يخضع لثلاثة قوى أو أكثر وهي : قوة جذب الأرض وتشده الى القاع ، وقوة جـذب القمر وترفعه الـى الأعلى ، والقوة النابذة وترفعه للأعلى أيضاً ومن محصلة هذه القوى يرتفع المـاء فيحصل المد في البحر في الموضع المعرض لهذه القوى في وضع معـين وتساهم جاذبية الشمس أيضاً في زيادة المـد أو نقصانه حسب وضعها بالنسبة للقمر ٠ واذا كان المد بوجود القمر في قبة السماء فـوق البحر يعلـل بجاذبيته والقـوة النابذة فما سبب المـد في الطرف الآخر مـن الأرض ؟

ان القمر يجذب الأرض حتى النواة (نواة الأرض) فيحدث انخفاض ان صح التعبير لقعر البحر وفي نفس الوقت ترفـع القـوة النابذة الماء ، فيحدث مد ولكنه أقل ارتفاعاً من المد في البحر المقابل للقمر ٠ « البحر نفسه يكون مقابلاً للقمر وفي الجهة الأخرى بسبب دوران الأرض حول نفسها لذلك يحدث مدان وجزران في البحر يومياً » ٠

تشترك عوامل أخرى في اظهار المد بشكل واضح منها موقع البحر ، وشكل حوضه ودرجة تأثر الأجزاء الصلبة من الأرض بالجاذبية القمرية ، وجاذبية الشمس .

وبشكل عام تفسير القزويني للمد والجزر تفسير علمي دقيق . ولعل القزويني كان يدرك مدى سعة اطلاعه على أوضاع القمر وتأثيراته لذلك قال في مقدمة كتابه: « وعجائب السماوات لا نستطيع احصاء عشر عشرها لكن القدر الذي جرى في جرم القمر ذكرناه تبصرة لكل عبد منيب » .

تأثيرات القمر على أحياء الأرض :

أورد القزويني مجموعة تأثيرات للقمر على أحياء الأرض ومن المفيد دراستها علمياً للتأكد من صحتها ، ولا شك أن القمر له تأثير في الحياة ، فالحياة تطورت وتكيفت مع البيئة بكل ظواهرها ، وتأثير القمر الفيزياني في الأرض يتحدد بشكل مبدئي في عاملين ـ جاذبية القمر ، والاشعاع المنعكس عن سطحه الى سطح الأرض . وقد وجدنا تأثير جاذبية القمر في احداث المد والجزر وهذه الظاهرة لها تأثيرات كبيرة على الأحياء ، ولكن ما أورده القزويني تأثيرات تستحق البحث منها :

- زعموا أن الذين يمرضون في أول الشهر أبدانهم وقواهم على دفع المرض أقوى والذين يمرضون في آخر الشهر بالضد .

- شعور الحيوانات يسرع نباتها ما دام القمر زائد النور ويغلظ ويكبر ، واذا كان ناقص النور أبطأ نباته ولم يغلظ .

- ان الحيوانات تكثر ألبانها في ابتداء زيادة نور القمر الى الامتلاء ، وتزداد أدمغتها وبياض البيض المنعقد في أول الشهر أكثر ، واذا نقص نور القمر نقصت غزارة الألبان وزيادة الأدمغة وكثرة بياض البيض .

- ان الانسان اذا أكثر التمود أو النوم في ضوء القمر ، تولد في بدنه الكسل والاسترخاء ويهيج عليه الزكام والصداع .

- ومنها أن السمك يوجد في البحار والأنهار في أول الشهر الى الامتلاء أكثر مما يوجد من الامتلاء الى آخر الشهر ، ويكون في النصف الأول من الشهر أسمن منه في النصف الأخير .

- ومنها أن حشرات الأرض خروجها من جحرتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها منه في النصف الأخير ، وكل حيوان يلسع أو يعض فانه في النصف الأول من الشهر أقوى فعلاً منه في النصف الأخير ، وسمّه أشد تأثيراً .

وهناك تأثيرات في النباتات فنموها ونضجها يتمان في بداية الشهر بشكل أسرع من أواخره • في بداية الشهر القمري يكون القمر والشمس بجهة واحدة بالنسبة للأرض وتزداد قوة جذبهما للأرض ، ويزداد نور القمر ليلاً يومياً حتى منتصف الشهر ثم يتناقص ولعل هذه العوامل لها تأثيرات ايجابية على الحياة •

كان القزويني عالماً كبيراً عمّر ثمانين سنة (١٢٠٣ـ١٢٨٣)، تعرف على ابن العربي في دمشق وتولى القضاء في واسط ، ولشهرته العلمية لقبه البعض بهيرودوتس القرون الوسطى وبلينوس العرب •

محمد الحامدي ـ عامودا

☐ الحواشي :

١ ـ تم نقل عبارات القزويني دون أي تعديل في صيغتها وتبدو العبارات أحيانا ركيكة ومتداخلة المعاني • وحمائلية هنا تعني (حركة مائلة) •

٢ ـ فلك الزهرة اقرب الى الارض من فلك عطارد ، ولكن بطليموس قدم فلك عطارد على فلك الزهرة ، ربما لظهور عطارد اكبر في راي العين من الزهرة •

٣ ـ اعتقد القدماء أن الطبيعة مكونة من اربعة عناصر هي التراب والماء والهواء والنار ، فالتراب يشكل الأرض ، والماء يشكل البحار والهواء يحيط بالارض وكرة النار تحيط بالهواء وتتداخل العناصر مع بعضها لتكون الموجودات والظواهر على الأرض •

٤ ـ العبارة غير دقيقة علمياً ولكن احتمال كبير يقصده القزويني وهو رأس مخروط ظل الأرض والذنب هو الظل •

٥ ـ رأس مخروط ظل الأرض يرسم دائرة البروج (فلك البروج) وعندما يحدث الخسوف فان القمر يكون في مستوى دائرة البروج ، لذلك يؤكد القزويني أن القمر اذا لم يحد عن دائرة البروج سوف يخسف ولفظة (عرض) تعني حيدان •

٦ ـ وتد الأرض هو الجهة المقابلة للسماء ، ويبدو ان القزويني لم يعتقد بكروية الأرض تماماً • رغم أن تعليلاته للخسوف وظواهر اخرى لا تستقيم الا بتصور الأرض كرة في الفضاء •

★ ★ ★

العاملون في ميدان الاقتصاد والخدمة في المشرق العربي من الأندلسيين والمغاربة

منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري

إعداد: د. علي أحمد

لم تكن العلاقات بين المشرق العربي والمغرب والأندلس مستقرة على حال واحدة ، فقد كانت علاقات طبيعية خلال العصر الأموي • لأن المغرب والأندلس ، كانتا تتبعان في كثير من الأحيان ولاية مصر ، التي تبعت العاصمة دمشق • وقد تغيرت الأحوال عندما تسلم العباسيون شؤون حكم الدولة العربية الاسلامية ، فانفصلت الأندلس عن المشرق العربي ، وأصبحت مستقلة حتى عن المغرب العربي •

لكن على الرغم من هذه الحال ، بقيت العلاقات قائمة بين البلدين في جميع الميادين انما ليس على نطاق رسمي حكومي أو معترف به من قبل رجال السلطة والحكم •

ففي الميدان السياسي ، يمكن القول ، ان القطيعة كانت شبه كاملة ، اذا ما استثنيت فترة قصيرة ، سيطر خلالها الفاطميون على المغرب العربي • وعلى الرغم من واقع القطيعة هذه والحالة العدائية ، التي كانت تخيم على الأجواء السياسية ، فان اتصالات سرية تمت بين بعض قوى البلدين ، كان وراءها طموح بعض حكام الأندلس للسيطرة على المشرق العربي ليصار الى ضمه الى المغرب والأندلس ، بالصورة التي كان عليها الأمر قبل مجيء العباسيين الى السلطة • وكان يساعد على ذلك ، أن جزءاً كبيراً من المغاربة والأندلسيين ، كان من أصل مشرقي ، ولاسيما من مصر والشام واليمن ، لأن هؤلاء شاركوا في فتوح المغرب والأندلس كما هو معروف • وهنا يجب أن يفرق بين المغرب والأندلس ، لأن المغرب بأقطاره الحالية ، كان مسرحاً لتغيرات سياسية متتالية •

فقامت على أرضه دول متعددة ، كانت تختلف في ولائها للمركز في المشرق العربي ومن هذه الدول ما كان مؤيداً ، ومنها ما كان معادياً • ففي المغرب قامت دولة الفاطميين

التي سيطرت عليه لفترة دامت أكثر من نصف قرن من الزمن ، امتدت من أواخر القرن الثالث الهجري حتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ٠ وكانت العلاقة بين المشرق العربي والمغرب خلال هذه الفترة علاقة غير متبلورة٠ فقد كان الفاطميون يتطلعون باهتمام بالغ الى المشرق ، حتى ترجموا تطلعاتهم الى حقيقة واقعة سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م باحتلال مصر(١) وبقيت هذه العلاقة طبيعية بعد أن انتقل الفاطميون الى المشرق حتى كانت سنة ٤٤١ هـ/١٠٤٦م عندما قام المعز بن باديس الصنهاجي بالغاء الولاء والطاعة للفاطميين وصار يدعو لبني العباس ٠ ومنذ ذلك الحين بدأت الهجرة العربية الجديدة من مصر الى المغرب لاعادة الأمور الى طبيعتها(٢) ولكن النتيجة لم تكن في صالح الفاطميين هذه المرة ، فعادت العلاقة الى التوتر بين البلدين ، وظلت هكذا حتى ما بعد سقوط دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م(٣) ٠

لقد حدث هذا على مستوى الحكام والسلطات السياسية في البلدين ٠ أما على مستوى الشعب فان حركة الاتصال لم تتوقف لحظة واحدة ٠ أما على الطرف الآخر من جناح دولة العرب والاسلام (الأندلس) فان الأمر لم يخل من بعض الاتصالات ، التي تمت سراً مع بعض بلدان المشرق العربي مثل بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها ٠

ولعل خير مثال على ذلك ، ما قام به الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر لدين الله ، الذي كان يرسل الى مصر في كل سنة ما مقداره عشرة آلاف دينار للمالكيين ٠ وكان قصده من هذا ، تحقيق هدف سياسي يتجلى بالأمل والتطلع نحو السيطرة على المشرق العربي ٠

وحدث أن ظهر خلال هذه الفترة في بلاد الشام ، بعض الكتب التي تدعو للأمويين والتي كان حكام الأندلس على صلة بها ، وربما هم الذين شجعوها(٤) أما على الصعيد الفكري والثقافي ، فان العلاقة بين البلدين ،كانت تمتاز بالحيوية والنشاط في الوقت الذي كانت فيه الأندلس والمغرب ، تعتمدان على المشرق العربي مصدراً رئيسياً للثقافة وأمور الفكر ، لا سيما خلال فترة ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ٠

وهناك أمثلة كثيرة جسدت حقيقة ذلك٠ فالى مصر وصل محمد بن عبدون العدوي سنة ٣٤٩ هـ/٩٦١ م ، فدرس علوم الطب والصيدلة وعاد الى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧١ م(٥) ٠ والى بلاد الشام وصل على سبيل المثال سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٤ م عمر بن حفص القرطبي وفيها درس وأخذ العلم عن علمائها(٦) والى العراق وصل محمد بن عبدالسلام الخشني في مستهل القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، وبقي فيها فترة اقتربت من أن تصل الى ربع قرن من الزمن، أمضاها متجولا في طلب العلم(٧) ودرس بمدينة مكة المكرمة زكريا بن خطاب الكلبي في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي درس علم الحديث وبعض كتب النسب ، وعاد الى الأندلس فاشتهر أمره هناك(٨) وبالمقابل أسهم المشارقة بالرحلة الى الأندلس والمغرب ،بقصد التدريس والفائدة ، مثل أحمد بن أبي عبدالرحمن الزهري ، الذي قدم على الناصر لدين الله بقرطبة سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٢م فقوبل بالترحاب والسرور ، وصار يدرس بقرطبة حتى وفاته(٩) وغيره كثيرون لا طائل من ذكرهم ٠

وقد اتخذت العلاقة الفكرية بين البلدين شكلاً آخر ، تجلى بنقل المؤلفات الموجودة في المشرق الى الأندلس والمغرب(١٠) والحقيقة لم يبخل المشارقة بشيء من علم أو معرفة على الرواد المغاربة والأندلسيين ، فبرهنوا بذلك على ان العداء السياسي ، يبقى دائماً منفصلاً دون أن يؤثر على آية ناحية من نواحي الفكر والثقافة ، ولا سيما أن روابط مشتركة ، هي روابط اللغة والأصل والانتماء تجمع بين العرب في آية بقعة من أرض وطنهم الكبير ، وهي التي جعلت هذه العلاقة تبدو طبيعية ٠ أما في الميدان الاقتصادي ، فان الأمور ظلت هي الأخرى طبيعية جداً ، فبقي التعاون قائماً في ميادين الاقتصاد المتعددة ٠ ففي ميدان الزراعة، اعتمدت المغرب والأندلس على المشرق، وذلك بنقل عدد من طرق وأساليب الزراعات المصرية والشامية وغيرها ٠ مثل طريقة زراعة قصب السكر وشجرة القطن وكثير من أصناف الخضراوات مثل الباذنجان والطرخون والخرشوف والسبانخ وبعض الفواكه مثل الرمان والبرتقال والتوت الشامي وغيرها وبعض أصناف الحبوب مثل الذرة والأرز والسمسم(١١) أما في ميدان الصناعة ، فان الأمر يختلف عن الزراعة، ويأتي هذا الاختلاف من واقع المعلومات المتوفرة حول ذلك ، والذي لا يتعدى أكثر من اشارات بسيطة جداً ، لكنها تساعد على الاستنتاج ، بأن التعاون بين المشرق العربي والأندلس والمغرب ، كان قد قام خلال هذه الفترة في حقل الصناعة مثال ذلك صناعة السكر ٠ فالعرب الفاتحون للمغرب والأندلس ، هم الذين نقلوا هذه الصناعة اليهما(١٢) ٠

وأما في حقل التجارة ، فان الأمر كان طبيعياً الى درجة كبيرة جداً ، فلم يتوقف تجار البلدين عن الحركة ونقل البضائع بينهما ٠ فقد كانت البضائع تأتي الى الأندلس والمغرب عن طريق المرافىء الشامية والمصرية، لا سيما المرافىء الواقعة على المتوسط ٠ وكان المشرق العربي بالمقابل يستقبل البضائع من المغرب والأندلس الى غير ذلك من عمليات المبادلة التجارية(١٣) وهكذا فان العلاقات بين المشرق العربي والمغرب والأندلس ، قدر لها أن تكون طيبة وطبيعية خلال فترة ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ٠ فقد استقبل المغاربة والأندلسيون في المشرق العربي حجاجاً وطلبة علم وتجاراً وزائرين ، خلال هذه الفترة ثم تختلف الصورة خلال الفترة التالية فتصبح بلدان المشرق العربي مستقراً دائماً لكثير من الأندلسيين والمغاربة ، دون معارضة أو قيود ٠ فما الذي حدث على الساحة الأندلسية المغربية، حتى لجأت فئة من سكانهما الى المشرق العربي، وما هي العوامل التي شغلت دوراً ايجابياً مشجعاً في ذلك ؟٠

للاجابة عن هذا السؤال ، يمكن القول ، ان ما حدث وبخاصة في الأندلس كان أمراً كبيراً من حيث تأثيره وفعاليته ، وبالتالي النتيجة السلبية ، التي انتهى اليها ، وهي ضياع أرض وتشتت شعب ومقتل حضارة ٠ وان الذي أدى الى هذه النتيجة هو الاضطرابات الداخلية ، التي تجسدت بالانقسامات الحادة، وتبدل الدول وفي النهاية نجاح الاسبان في السيطرة على معظم مناطق الأندلس ٠ كل ذلك أجبر جماعة كبيرة من الأندلسيين والمغاربة على الهجرة الى بلدان المشرق العربي ٠ والأمثلة كثيرة ومتعددة في هذا المجال ، فمنها ما كان من جراء تبدل الدول ، الذي بدأ بمجيء المرابطين وانحسار

دول الطوائف سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م • فقدهاجر نتيجة ذلك قسم كبير من سكان الأندلس الى المشرق العربي(١٤) والشيء نفسه حدثعندما زال حكم المرابطين فهاجر الكثيرون من الأندلس والمغرب الى المشرق خوفاً منهم ،مثل الوهراني صاحب كتاب المنامات المعروف، الذي غادر الأندلس والمغرب ونزل مصر ،وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحدين ، وعكسه في كتابه المذكور المنامات(١٥) •

لكن الذي حدث بتأثير حرب الاسترداد الاسبانية ، كان أوسع وأشمل وأشد فعالية• فلم تأت سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م حتى سقطتمعظم مدن الأندلس في أيدي الاسبان• وترافق ذلك باجراءات قاسية وسلبية ، أجبرت معظمسكان المدن المحتلة على الهجرة عنها الى غير رجعة(١٦) وهذا ما يظهر بوضوح من خلالتتبع هجرة الأندلسيين باتجاه المغرب والمشرق•

وبمقابل هذه العوامل السلبية المحزنة ، وجدت عوامل ايجابية في المشرق العربي حيث استقر قسم كبير من المغاربة والأندلسيين •ويأتي في مقدمة الايجابيات التي تميز بها المشرق العربي آنذاك ، الامكانات الاقتصادية التي اعتبرت في المقدمة بدون منازع ، وخاصة بالنسبة للأندلسيين والمغاربة، الذين لايملكونشيئاً • فالمشرق العربي منطقة زراعية وصناعية وتجارية ، تتوفر فيه كل متطلبات الناس واحتياجاتهم • وهذا ما أكده الرحالة المعروفابن بطوطة ،الذيزارمصروالشاموالحجاز والعراق ، وأثنىعلىهذه البلدانمن الناحية الاقتصادية(١٧) يضاف الى هذا أنالغرباء ، ومنهم المغاربة ، كانوا يخصون بمساعدات كبيرة جداً ، من قبل الحكومات والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم بلدان المشرق العربي خلال العصور الاسلامية • فكانت الغلال توزععليهم بنسب معينة واختصت السلطات المشرقية المغاربة من بين كل الغرباء الذين عرفتهممدن وحواضر المشرق العربي اختصتهم بأن اقتطعت باسمهم بعض الأوقاف وجعلت ريعهاللصرف عليهم(١٨) •

وقد وجدت الىجانب العوامل الاقتصاديةعوامل أخرى ، كان لها تأثيرها الفعال على حركة المغاربة والأندلسيين باتجاه المشرقالعربي • ومن هذه العوامل الاهتمامات العلمية ، ذلك أن قسماً كبيراً من المغاربةوالأندلسيين ، كانت لهم اهتماماتهم العلمية البارزة • وتجسدت حقيقة هذه العوامل بوجود المدارس ودور العلم بصورة كبيرة فلم يقترب القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي من نهايته ، حتى كان في المشرق العربي وخاصة في مصر والشام ، ما يقربمنمائة دار للحديث وأضعاف أضعاف هذا العدد من المدارس والخانقاهات والزوايا ، التيما انقطع التسابق الى بنائها والصرف عليها لحظة واحدة ، منذ فترة حكم صلاحالدينالأيوبي في القرن السادس الهجري الثانيعشر الميلادي ، حتى نهاية فترة هذا البحث(١٩)وفوق كل هذا ، فان مناهج التعليم وأساليبه ، التي كانت معروفة آنذاك ، توافقت مع المبادىء التي كان يعتنقها ويسعى لأجلها المغاربة والأندلسيون •

وكان للعوامل الدينية دورها الفعال فيهذا الميدان ، حيث ساعدت في زيادة نشاط حركة الاستقطاب باتجاه المشرق العربي •فكل بلد من بلدان المشرق العربي ، يحتوي على مقدسات دينية ، تستهوي قلوب جميع المسلمين ، هذا بالاضافة الى أشياء أخرى

ذكرت في القرآن والأحاديث النبوية الشريفة عن هذه البلدان . فهناك بيت المقدس ، وفيه المسجد الأقصى الشريف والحجاز ولا سيما مكة المكرمة والمدينة المنورة وما فيهما من مقدسات لا بد لكل مسلم من زيارتها ، ففيها قبر الرسول العربي الكريم ومسجده الى غير ذلك . فكان المغاربة والأندلسيون يحرصون على زيارة هذه المناطق ويجاورون فيها الى غير ذلك(٢٠) .

وكان لطبيعة المشرق العربي تأثيرها الواضح والمؤثر على حركة المغاربة والأندلسيين ففيه العديد من المدن والنواحي ، التي يوجد ما يشبهها في الأندلس والمغرب مثل دمشق وحمص والاسكندرية وبعض مناطق الدلتا . وتأتي أهمية هذا الأمر من سرعة الانسجام وسهولته والتأقلم مع البيئة الجديدة . وهذا ما أخذ بعين الاعتبار عند الفتح العربي للأندلس ، حيث توزع الجند المشرقي بحسب المناطق التي تناسبه(٢١) .

وأما العوامل الأخيرة التي ساعدت على استقطاب الأندلسيين والمغاربة الى المشرق العربي ، فهي العوامل السياسية ، التي كانت في معظمها لصالحهم ، حيث لاقوا في المشرق العربي كل العناية والترحيب من السلطات الحكومية والرسمية ، منذ فترة حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي . فشيدت مدارس باسم المغاربة وأيضاً زوايا وخانقاهات صوفية ومساجد في كل أنحاء المشرق العربي ، وبصورة خاصة بمدينة القاهرة ودمشق والاسكندرية وبيت المقدس وحلب ، حيث كان الوجود الأندلسي والمغربي كثيفاً ومميزاً(٢٢) . بعد هذه المقدمة المقتضبة ، من الممكن دراسة العاملين في المجالات الاقتصادية والخدمة في المشرق العربي على أساس البلدان ، أي في مصر والشام والحجاز وغيرها .

ولا بد من القول ان الجماعة التي عملت في هذا الميدان من المغاربة والأندلسيين في المشرق العربي ، كانت كبيرة جداً من حيث عددها ، على الرغم من عدم ذكر المصادر لأفرادها بصورة مستقلة . فلم تذكر المصادر من رجال هذه الفئة الا الذين كانت لهم عناية بأمور علمية معينة مثل الفقه والحديث والعربية الى غير ذلك .

وقد توزع هؤلاء عدة أقسام ، فمنهم من عمل بالصناعة ومنهم من عمل بالتجارة ومنهم من عمل بالزراعة ، وآخرون في ميادين الخدمة المتنوعة .

ففي مصر وعلى صعيد الصناعة ، كان نشاطهم بارزاً ، ولا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار صناعات ذلك العصر ومدى تقدمها . فقد اشتغلوا بصناعة الحرير من نوع (السقلاطون) ، الذي لم يكن معروفاً على ما يبدو في مصر بشكل واسع ، فجاءوا ووسعوا هذه الصناعة ونشروها في كل أنحاء مصر . فقد اشتغل في هذه الصناعة لفترة طويلة بمدينة القاهرة ، أبو العباس أحمد الحرار التجيبي من رجال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وكانت هذه الصناعة مصدر رزقه الرئيسي . ويبدو أن هذه الصناعة ، انتشرت بسرعة في مصر ولا سيما في مدينة القاهرة يظهر ذلك من خلال قول نقل عن هذا الأندلسي هو : « وكنت أكب زناراً حريراً بدرهم وأجعله عند الزيات ، فآخذ منه في عشية كل يوم رغيفاً أقتات به ، فاذا فرغ الدرهم ، أكب زناراً غيره وهكذا ..

فلم أزل على حالتي أكب الحرير حتى قيل لي ان لم تتركه أعميناك »(٢٣) فلو لم تكن هناك جماعة من العاملين بهذه الصناعة في مدينة القاهرة ، لما كان هذا الأندلسي تلقى التهديد الذي ذكره ، والذي لا يستبعد آن يكون سببه هو القضاء على منافسته في ميدان هذه الصناعة ، لكن الذي لا يمكن تحديده ، أن التهديد هذا ، لا يعرف ، اذا كان من جماعة من المشارقة أو من المغاربة وان كان الاحتمال الاكبر آن هذا التهديد صدر عن جماعة من المغاربة العاملين بهذه الصناعة ٠

وفي صناعة النسيج العادية ، اشتغلت احدى المغربيات، التي لا يذكر اسمها ابن حجر العسقلاني ، لأنه كان في صدد الحديث عن أخيها عبدالله المغربي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م اشتغلت بغزل الثياب ، فكان آخوها المذكور لا يلبس الا من انتاجها(٢٤) وتوصل بعض المغاربة بمدينة القاهرة الى أن أنشأ معملاً ، أو ما يشابه ذلك لصناعة الغزل والنسيج ٠ فقد ذكر المقريزي في صدد حديثه عن منطقة الميدان الصالحي: « ٠٠٠ ان الميدان الصالحي ظل باقياً الى سنة ٧٤٠ هـ ، فأدخله صلاح الدين المغربي في قيسارية الغزل التي آنشأها هناك » ومن هذا القول يستنتج أن هذه المنشاة كانت كبيرة وواسعة ، ولا بد أنها كانت غزيرة الانتاج(٢٥) ٠

وظهرت براعة المغاربة في مجال آخر من مجالات الصناعة ، التي اعتبرت جديدة في ذلك العصر على مجتمع القاهرة ٠ فقد قام عبدالله بن محمد السوسي المتوفى سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م بصناعة نوع من الورق ، كان يستخدم لكتابة بعض الآيات القرآنية وما الى ذلك ٠ ذكره السخاوي بقوله : « ٠٠٠ كان أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة ، حتى كان يصنع بيده ورقا يكتب فيه بخطه الدقيق سورة الاخلاص وآية الكرسي ٠٠٠ »(٢٦) ٠

واشتهر آمر بعض المغاربة والأندلسيين في بلاد الشام على صعيد الصناعة أيضاً ، فقد اشتغل محمد السبتي المتوفى بدمشق سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م في مجال النجارة ويظهر ذلك من خلال رواية لأبي شامة في الذيل على الروضتين عنه ، أن حرفته هذه ، لاقت قبولاً عظيماً ، مما جعله يجمع ثروة كبيرة ، ساعدته على تقديم المعونات للكثيرين من الغرباء بمدينة دمشق(٢٧) واشتغلوا في مجالات آخرى من فروع الصناعة فاعتبرت بعض أعمالهم جديدة ومبتكرة ، مما دعم بعض الصناعات ،وأضفى عليها صفة الاشتهار أكثر ٠٠ وقد تمثل ذلك بعمل عيسى بن علي بن عيسى الأندلسي ، الذي حل بمدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي والذي عرف عنه تضلعه ومهارته في صباغة الحرير وتلوينه ، مما جعله مصدر التعليم هذه الحرفة الصناعية وانتشارها(٢٨) ويبدو أمر نقل هذه الحرفة الى الشام من الأمور العادية جداً ، على اعتبار أن الأندلس عرفت بها ولا سيما في مدن اشبيلية وسرقسطة والمرية(٢٩) ومن المحتمل أن تكون بعض الصناعات الأخرى ، قد نقلت الى الشام عن طريق الأندلسيين الذين سكنوها بشكل دائم وان كانت المصادر تضن بالمعلومات حول ذلك ، فانه حتى يومنا هذا ، ما زالت بعض المصنوعات الخزفية التي تستخدم آواني للطعام ، ما زالت تعرف باسمها الأندلسي في

شتى مدن الشام وبلدانه ، من هذه الأواني الصحون المتنوعة التي تدعى (المالقي) نسبة الى مالقة في جنوب الأندلس ، وقد عرفت الشام هذه الصناعة عن طريق ابنائها ، الدين حلوا فيها خلال فترة هذا البحث ·

وعرفت الحجاز عدداً من الصناعيين المغاربة والاندلسيين ، مثل محمد بن محمد الغرناطي أبي عبدالله من أهل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، الذي اشتغل في صناعه التروس بالمدينة المنورة(٣٠) ومحمد بن احمد الاندلسي المتوفى سنة ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٤ م ، الذي اشتغل بصناعة الدهان ،الضروري لطلاء جدران المنازل في المدينة المنورة · وقد جلبت له هذه الصناعة ثروة طائلة من المال ، فقام خلال حياته بشراء كثير من الأرقاء والعبيد وأعتقهم(٣١) · أمافي ميدان الزراعة في مصر ، فان الأمر لم يكن من الوضوح ، بالصورة التي كان عليها بالنسبة للصناعة · لكن الذي يمكن قوله ، أن الأمثلة القليلة ، التي وجدت في ثنايا المصادر ، تدل دلالة أكيدة على أن المغاربة والأندلسيين اشتغلوا في الزراعة بصورة كبيرة· وهذا يظهر من خلال تتبع حياة كبار علماء المغاربة في مصر وغيرها من أقطار المشرق العربي حيث اشتغل عدد منهم في الزراعة ، ولا سيما في الأيام العصيبة ·

ويمكن تقسيم العاملين في ميدان الزراعة الى قسمين : أولهما ، الذين عملوا في حراسة الحقول والكروم والحدائق ، وهو أمر اشتهر به المغاربة خلال وجودهم في المشرق العربي · مثل المتصوف المغربي أبي موسى الدكالي ،الذي عمل في حراسة الكروم وحفظها بمدينة الاسكندرية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي(٣٢) ·

أما القسم الثاني ، فهم الذين امتلكوا الأراضي واستزرعوها ، أو الذين عملوا عند مالكين مصريين وغيرهم · فقد ذكر المقريزي في كتابه الخطط ، طبيباً باسم (ابن المغربي) كان يمتلك بستاناً بمدينة القاهرة « اشتراه منه القاضي كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقي بنحو مائة ألف درهم فضة ، عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهباً »(٣٣) وتدل هذه الاشارة التي جاء بها المقريزي على أن المغاربة، كانت لهم رغبة فائقة بالعمل الزراعي، والا لماذا لم يقف هذا الطبيب عند حدود علمه واختصاصه ودخله منه ؟

وكانت الزراعة على ما يبدو الملجأ الأمين ، أو بمعنى آخر الاحتياطي ، الذي يغني من يعمل به ويساعده على العيش محفوظ الكرامة اذا ما أحدقت به الصعاب ، فعلى الرغم من علم ابن خلدون ومكانته الرفيعة قاضياً للمالكية بالقاهرة ، كان يلجأ الى العمل بالزراعة ، عندما كانت الأمور تسير في غير صالحه في الميدان العلمي والاداري ، يذكر عن نفسه أنه في سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م توفي القاضي المالكي أحمد بن محمد التنسي ، فبعث اليه ليخلفه في القضاء يقول « وكنت مقيماً بالفيوم لضم زرعي هنالك »(٣٤) ومثل ابن خلدون كان القاضي المالكي حسام الدين محمد المعروف بابن حريز المغربي المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م الذي توسع في أمور الزراعة والري بمصر ، فشملت نشاطاته عدة وجوه وكانت له اهتمامات مختلفة ، الأمر الذي جعله يصنف في المنتجين الزراعيين المرموقين في عصره ، فقد اعتنى بفن السقاية والري ،فاستجر المياه الى حيث الاراضي المراد

ارواؤها . ومـن ناحية أخرى اعتنى بتربية النحل وصناعة السكر والقنود الى غير ذلك ، يقول ابن تغري بردي : « .. وحبب اليـه الزراعات ودولبـة السواقي وعمـل القنـود والسكر والاعسال ، واتسع أمره في ذلك حتى صار في امر كبير من المتحصل في السنة ، يكون ذلك آلافـاً مؤلفـة ... »(٣٥) وقـد كـان محمد بن محمد المالقي أبو عبيـدالله المتوفى سـنة ٨٧٨ هـ/١٤٧٤ م يمتلـك في مدينـة الاسكندرية غيطين مـن الاراضي ، يشـرف بنفسه على زراعتهما . ويبدو أن انتاجهما كان كبيراً ، حيث انه ترك ثروة هائلة ، انتفع بهـا وارثوه(٣٦) أما في الحجاز فقـد اشتهر المغاربة والأندلسيون على صعيد الزراعة الى حـد ما ، ولا سيما في حقل العمل في الحدائق والبساتين ومزارع النخل . فقد قام أحمد بن صالح الزواوي المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م ، بحراسة بساتين النخل بالمدينة المنورة . وكان قبـل ذلك بالقاهرة بالجامع الأزهر ، وغادره الى المدينة حيث جاور هناك حتى وفاته(٣٧) ويبـدو أن عددهم كان كبيراً جـداً بالمدينة المنورة ، حيث يذكر السخاوي في كتابه التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، في سياق ترجمة عبدالله بن عمر المغراوي ، أنه كان له أصحاب مغاربة مثل يوسف وحسن الخولانيين ومحمد المكناسي : « اذا جاءوا من عملهـم في الحدائق حملوا معهم شيئاً من رمام البقول ، التي لا تصلح الا للـدواب ، كالسلق وبقـايا اللفتـة ، وما أشبهها ، فيأخـذه خادمهـم ، فيسلقه ، فيضمـه الى أن يفرغوا مـن صلاة العشاء فيقدمه لهم وهم صائمون .. واستمروا على ذلـك سنين لا يعملـون غـيره الا في النـادر »(٣٨) .

أما القسم الثاني فقد عمل أصحابه في ميدان زراعة الأشجار المثمرة ، وكانت لهـم أيادٍ بيض في تطوير هذه الزراعات ، وخاصة بمدينة الطائف . يقول ابن جبـير عـن ذلك ضمن حديثه عن فواكه مكة المكرمة : « وقد جلب الله اليها مـن المغـاربة ذوي البصـارة بالفلاحة والزراعة ، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الأسباب في خصب هـذه الجهات ، وذلك بفضل الله عزّ وجلّ وكرم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين »(٣٩) .

أما في بلاد الشام ، فان الأمر لا يختلف عـن الذي كان في مصـر والحجاز . فالعمل بالفلاحة والزراعة ، كان متوفراً فيها بسهولة أكثر من غيره ، على اعتبار أن هذه الحرفة ، كانت تشكل عماد الاقتصاد في هذه البلاد . لذلك ليس مـن الغريب في شيء ، أن يكون قسم من المغاربة والأندلسيين عمل بالزراعة ، ولا سيما الذين لا يمتلكون المؤهلات العلمية والادارية أو غيرها .

وقـد اشتهر عـن الأندلسيين والمغاربة عملهم في حراثة البساتين والعمل فيها ، مثل أبي الوليد الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك)(٤٠) وقد يكون الأندلسيون والمغاربة ، هم الذين عملوا في زراعة واستثمار البساتين والأراضي ، التي خصصها لهم نورالدين زنكي في مدينـة دمشق ، وخاصة أن المسؤول الأول عـن ادارتها ، كان منهـم ، وهو أبو الحسن علي بن سردال المعروف بالمرادي(٤١) .

أما القسم الذي عمل أفراده في الحقول الزراعية الأخرى غير حراثة البساتـين ، فان المصادر لا تحفل بالكثـير مـن الأمثلة ، التي يمكن الاستشهاد بها . لكن وعلى الرغم مـن

ذلك ، فان هناك بعض الاشارات ، التي تمكن من البرهان على أنهم اشتغلوا بالزراعة ٠ فقد وجد كثير منهم استطاعوا بطريقة ما أن يمتلكوا الأراضي الزراعية الواسعة ، مثل الشيخ رجب الدين الرجيجي التونسي المتوفى بدمشق سنة ٧٠٦ هـ/١٣٠٧ م ، الذي كان يمتلك قرية كاملة من قرى غوطة دمشق ، لم يسمها صاحب الدرر الكامنة(٤٢) ٠

أما في الحقل التجاري ، فان الأمر يختلف عما كان بالنسبة للزراعة والصناعة ، من حيث توفر الأمثلة الواضحة ٠ فلم يجد التجار المغاربة والأندلسيون ، أي مانع من الانتقال وشحن البضائع الى حيث يريدون ،من بلدان المشرق العربي وغيرها ٠

ففي العراق كان أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل البلنسي نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٧ م ، يسافر في تجارته الى الصين ، يأخذ البضائع من العراق ، ويعود ببضائع من الصين ٠ وربما هو الوحيد أو الثاني من بين أفراد هذه الفئة ، الذين وصلوا الى الصين أو غيرها من البلاد النائية(٤٣) وفي بغداد أيضاً عمل اثنان من المغاربة تاجرين لصالح دار الخلافة هناك أي انهما عينا لشراء حاجيات الخليفة واستكمال جميع نواقصه المختلفة ، وهما ولدا عبدالمنعم بن علي الصقلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م الذي قدم بغداد واستوطنها ، وعمل فيها واعظاً ، وسمع أبو شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين بعض دروسه ، وفي ذكره يقول : «٠٠٠ خلّف ولدين ، النجيب عبدالله والعز عبدالعز ، صارا تاجرين لديوان الخلافة »(٤٤) ٠

وفي مصر كان التاجر الأندلسي عبدالله بن عبدالجبار الشاطبي المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٨ م يتنقل بين الاسكندرية والصعيد واليمن ، ينقل الكارم والنسيج وغير ذلك من البضائع ، وكان أحد أهم تجار الاسكندرية من المغاربة والأندلسيين(٤٥) ٠

لكن الأهم منه على صعيد حجم الثروة والمال ، كان شعيب بن يحيى القيرواني المتوفى سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٨ م نزيل الاسكندرية ،الذي تصدق بالكثير من ماله على الفقراء من خلال الأوقاف التي جعلها للصرف عليهم(٤٦) وفي القاهرة عمل ابراهيم بن عبدالملك المغربي المتوفى سنة ٨٨٠ هـ/١٤٧٦ م ، تاجراً عند السلطان فجمع مالاً كثيراً ، حاول ارساله الى المغرب ، حتى لا تصادره الدولة ، لكنه لم يفلح وصودرت أمواله(٤٧) ٠

وبالقاهرة أيضاً اشتهر عمر بن غازي المغربي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي على أنه أحد أبرز تجارها ،وكثرت أمواله ، وانتهى الى المصير نفسه ، الذي لاقاه سابقه ، حيث تمت مصادرة أمواله واهانته(٤٨) وذكر السخاوي أن محمد بن عبدالرحمن التونسي ، كان يتكسب بالتجارة بمدينة دمياط ٠ لكنه على ما يبدو لم يفلح في هذا الميدان ، بدليل أنه تحول الى عمل آخر كان أقل شأناً ، وظل هكذا حتى وفاته سنة ٨٧٠ هـ/١٤٦٦ م(٤٩) ٠

وعاصره التاجر المغربي مساعد بن حامد المصراتي ، الذي أمضى الجزء الأكبر من حياته تاجراً متجولاً بين الحجاز ومصر والهند ، مع أن معظم اقامته كانت بمصر ، حيث رآه السخاوي فيها ، مات بالهند بعد سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦ م(٥٠) ٠

وتنقل محمد بن محمد المالقي المتوفى سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٤م ، بين مدينة الاسكندرية واليمن فترة قصيرة ، ينقل البضائع بينهما ・ويبدو انه جمع ثروة مكنته من شراء بعض الاراضي الزراعية ، فترك التجارة وعمل فيها(٥١) ・

وكان آخر التجار المغاربة ، الذين ذكرتهم مصادر هذه الفترة سعيد بن ابراهيم الأندلسي ، الذي قام بالتجارة بين الاسكندرية والقاهرة ・ وظل هكذا حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م واستطاع أن يورث ابنه ابراهيم سعيد المغربي مالاً كثيراً(٥٢) ・

واشتغل المغاربة والاندلسيون المقيمون بالحجاز بالتجارة أيضاً ・ فقد وصل اليها التاجر أبو عبدالله محمد بن علي التجيبي بقصد الحج سنة ٦٠٦ هـ/١٢١٠ م ・ ومنذ ذلك الوقت بقي متجولاً بين مكة والشام والقاهرة والاسكندرية ، حتى وفاته بمدينة قوص سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦م(٥٣) واشتغل تاجراً بمكة المكرمة محمد بن علي الأندلسي المتوفى سنة ٧١٥ هـ/١٣١٦ م ، فحصل أموالاً كثيرة(٥٤) ・

ومثله كان محمد بن يحيى الصنهاجي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٩ م ، الذي أمضى الجزء الأكبر من حياته ، متنقلاً بين مكة واليمن بقصد التجارة(٥٥) ・

أما أحمد بن يونس القسنطيني ، فانه يختلف عن كل الذين ذكروا حتى الآن ، بأنه لم يكن متفرغاً لأمور التجارة بشكل كلي ،انما كان من العلماء الكبار في عصره ، نزل المدينة المنورة بعد تجوال طويل بين حواضر المشرق العربي والمغرب ، وكان يقرىء فيها الحساب والعربية والمنطق ، لكنه من ناحية أخرى ، كان يخالط الباعة والسوقة من أجل التكسب ، ولم يزل هكذا حتى وفاته سنة ٨٧٨ هـ/١٤٧٤ م(٥٦) واشتهر بمكة أيضاً التاجر حسن بن أحمد التونسي المعروف بالمغربي فكان من تجارها المعروفين بمحلة دار الامارة بمكة آنذاك ، حيث بقي فيها حتى مات سنة ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م(٥٧) وعاصره بمدينة مكة المكرمة التاجر علي بن أحمد المعروف بالمغربي ، الذي اشتغل بنقل البضائع والتجارات الى الهند ・ وفي الفترة الأخيرة ، ندبه أحد زعماء مكة آنذاك لتحصيل بعض الأموال المستحقة له في مكة ・ مات في مكة سنة ٨٧٨ هـ/١٤٧٤ م وقد أورث مالاً كثيراً(٥٨) وعرفت مكة أيضاً تاجراً من هذا الطراز هو حامد المغربي المعروف بالتاجر السفار لكثرة ما كان يسافر بالتجارة الى بلدان متفرقة ،حتى وفاته سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ・ ومثله التاجر يحيى بن علي المغربي ، الذي انحصر نشاطه التجاري بين مكة والقاهرة ودمشق(٥٩) أما في بلاد الشام ، فقد وجد أندلسيون ومغاربة ، امتهنوا حرفة التجارة منذ الوهلة الأولى من وصولهم اليها ・ فمنهم من تجاوز بتجارته هذه البلاد ، فوصل الى فارس وغيرها من البلدان الأجنبية ، ومنهم من اقتصر في تجارته على مدينة شامية واحدة ・ فقد كان آهمهم يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي الطبيب ، الذي اشتغل بالتجارة في الفترة الأولى من وصوله الى الشام أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي・ فوصل بتجارته الى العراق وفارس والهند وحصل ثروة كبيرة ، صرف قسماً منها على شراء أرض بمدينة حلب ابتنى عليها داراً لتدريس الطب ومداواة الناس(٦٠) وأما النوع

الثاني من هؤلاء التجار ، فقد تركز عمل أفراده داخل المدن الشامية ، بعد أن امتلكوا الحوانيت والمحلات التجارية ، مثل علي الفحام المغربي المتوفى بدمشق سنة ٦٨٦ هـ/ ١٤٨١ م ، الذي امتلك دكاناً في محلة باب الفراديس تجاه جامع الرأس بمدينة دمشق أعده لبيع الحطب والفحم ، اللذين كانا أدوات التدفئة الرئيسية وأعمال الطبخ والاغتسال وما شاكل ذلك في تلك الفترة من الزمن(٦١) .

وهناك فئة أخرى من الأندلسيين والمغاربة أكثر عدداً وأوسع انتشاراً ، عمل رجالها في مجالات اقتصادية هامة ومتنوعة ـ ، منها ما هو صناعي ومنها ما هو زراعي وآخر تجاري . وأفراد هذه الفئة لا يقلون أهمية عن العاملين في المجالات الأخرى الآنفة الذكر من حيث النتيجة ، ويمكن تسميتها برجال الخدمة .

وهم مجموعة من الأندلسيين والمغاربة الفقراء، الذين يختلفون عن المجموعات الأخرى من حيث طبيعة الأعمال التي مارسوها ،واشتغلوا فيها ، والتي اعتبرت من أدنى الأعمال ، بالقياس الى مردودها وقيمتها بالنسبة للعاملين فيها فقط . وقد تمثلت هذه الأعمال في ميادين ومجالات متنوعة ، مثل العمل في حراسة طاحونة ما ، أو بستان أو حمام الى غير ذلك من هذا القبيل . وربما الذي دفع هؤلاء للعمل في هذه المجالات ، أن ظروفهم العامة ، لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع وأفضل مردوداً ، مثل العمل في حقل التدريس أو بالتجارة أو غير ذلك . وان خير من فند الأعمال التي امتهنوها في بلاد الشام الرحالة ابن جبير عندما تحدث عن الجالية الأندلسية بالشام فقال: « فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة غير وصون ، محفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحالة ممن عهد الخدمة أو المهنة ، يسبب له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة ، اما بستان يكون ناطوراً فيه أو حمام يكون عيناً على خدمته ، وحافظاً لأبواب داخلية ، أو طاحونة يكون أميناً عليها ، أو كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ، ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة ، وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لانهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة وطار لهم فيها ذكر »(٦٢) وفي هذا الميدان ينقل الوهراني الذي رحل الى المشرق، قول أحد المشارقة فيه، وهو ابن العميد : « ضيعتم الوقت في حديث الوهراني . والله ان ملك المغرب نحس ، ما جاءنا قط منهم الا حارس كرم أو ناطور بستان »(٦٣) هذا القول من جانب واحد ، فلا يصح ، بأن أهل الأندلس والمغرب ، الذين وفدوا الى الشام ، كانوا كلهم حراساً ونواطير بساتين . وتوجد بعض الأمثلة التي تبرهن على اقبالهم على مثل هذه الأعمال واشتهارهم في مجالها هذا بالاضافة الى أنها تشير الى أنهم كانوا كثيرين جداً . فقد جاء على لسان المقريزي في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، أن أكثر من ألف حمام كانت مع جيش صلاح الدين ، ترافقه أينما ذهب وكان أكثر الذين قاموا بمهمة تجهيز وتحضير الحمامات ، كانوا من الأندلسيين والمغاربة الفقراء يقول : « ... وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين، فيطلع الماء ويأخذون الطين ، فيعملون منه حوضاً وحائطاً يسترونه بحطب وحصير ،

ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم ،ويحمون الماء في قدر ، وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم أو أكثر » • ولا يستبعدان تكون اعداد كبيرة منهم ، قد شاركت الى جانب هذا العمل في أعمال أخرى ، مثل الطبخ وتجهيز الطعام للجيش(١٤) وهناك دليل آخر يتجسد بشخص عمر بن سعيد التلمساني ،ابي حفص من اهل القرن الثامن الهجري ، الذي عمل أميناً لطاحونة أشنان بدمشق ولفترة طويلة من الزمن ، كان آخرها سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥٢ م(٦٥) وعمل يحيى المغربي نزيل دمشق المتوفى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م في مجال آخر غير الذي ذكر حتى الآن ، هوقشر القمح ودقه وتجهيزه بالشكل الذي يكون فيه صالحاً للاستخدام في أنواع مختلفة من اعمال الطبخ والطعام • وقد درت عليه هذه الحرفة مالاً كثيراً(٦٦) ومثله في ميدان آخر عمل المغربي علي بن عثمان بن يحيى الصنهاجي، عمل شواء للحمة بمدينة دمشق خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي(٦٧) •

وفي الحجاز حيث الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، احتاج الأمر لوجود فئة من الرجال تقوم باعمال الخدمة العامة في هذه الاماكن ،فكان للمغاربة والأندلسيين حضور ومشاركة فيها بصورة فعالة وملموسة ، مثل محمد بن محمد الانصاري الغرناطي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م ، الذي كانت له معرفة بالطب ، لم يستغلها في أي من الأعمال خلال نزوله بالمدينة المنورة ، التي اشتغل فيها أميناً على الخدم حتى وفاته(٦٨) •

وقد اشتغل الأندلسيون والمغاربة في أماكن حساسة وهامة من أماكن الخدمة العامة، مثل النقل البحري ، الذي عمل فيه عبدالله التونسي • ويذكر ابن بطوطة أنه شاهده بمدينة جدة سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م ، وقال انه كان يمتلك مركباً يعمل فيه لحسابه الخاص ، وينقل الركاب والمسافرين من مدينة جدة الى ناحية القصير التابعة لمدينة قوص المصرية وهكذا(٦٩) وخدم بالأماكن المقدسة محمد بن محمد المغربي المتوفى سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٤ م واستطاع أن يجمع من وراء عمله هذا بعض المال ، على الرغم من أنه كان يتظاهر دائماً بالحاجة والفقر(٧٠) واشتغل بحرفة الدهان بالمدينة عبدالله بن ابراهيم المغربي المعروف بالزعبلي ، وكانت هذه الحرفة مصدر عيشه ، مع بعض الأعمال الأخرى ، التي كان يقوم بها ، وهي خدمة الحجاج في أيام موسم الحج • وظل هكذا حتى مات سنة ٨٨٥ هـ/١٤٨١ م(٧١) •

وفي مصر كثر هؤلاء ولا سيما في المدن الكبرى مثل القاهرة والاسكندرية وبعض الحواضر ، التي كانت محطة للمسافرين من مصر والقادمين اليها ، مثل مدينة قوص ، التي عرفت كثيراً من هؤلاء ، مثل محمد بن أحمد الجزيري المتوفى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م، الذي سكن هذه الناحية ، وعمل فيها بحرفة تجليد الكتب وترتيبها وتصفيفها ، وهو من شخصيات مدينة بلنسية الأندلسية المعروفة(٧٢) واشتغل أحدهم بحرفة الخياطة بمدينة القاهرة، هو محمد بن يوسف الزواوي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م ، الذي وصفه السخاوي ، أنه كان خبيراً ومتسامحاً(٧٣) وبالحرفة نفسها اشتغل محمد بن عبدالله التونسي أبو عبدالله المتوفى سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م بمدينة الاسكندرية على الرغم من تضلعه في العلوم الدينية واللغوية والحساب • وهذا يدل على أن هذه الحرفة كانت من الحرف ، التي تدر على صاحبها المال والثروة وكان يمارسها في بيته الذي يسكنه(٧٤) •

وقد اشتهرت عائلة الزواوي المغربية بمدينة القاهرة خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بعمل جديد من أعمال الخدمة العامة ، لم تمارسه جماعة أخرى من المغاربة والأندلسيين بالاعتماد على معطيات المصادر ، وهو العمل في مجال القبان ، الذي يستخدم عادة لمعرفة الأوزان المختلفة والذي يكون مكانه بصورة عامة في سوق كبيرة للمحاصيل • وأفراد هذه الجماعة المغربية هم: شعبان بن علي بن أحمد المغربي الزواوي القباني المتوفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠م ووالده وأخوه ، وهما اللذان أورثاه هذه الحرفة ، ولكنه تميز عنهما ، بحيث لم يكتف بوضع قبان واحد ، انما قام بوضع بضعة عشر قباناً ألفياً• وتطورت به الأمور ، حتى أصبح شيخ المشتغلين في هذه الحرفة • فكثيراً ما كان يلجأ اليه الذين تحدث بينهم خلافات من أصحاب القبابين • وفوق كل ذلك ، فانه كان من الماهرين بتصليح القبابين وصيانتها ، فقد سافر كثيراً لاصلاح قبابين كانت معطلة في مناطق مصرية بعيدة عن مدينة القاهرة ، مثل منطقة الوجه البحري وغيرها • وقد أثارت شهرته هذه حقد كثير من الناس عليه ، كان منهم قسم من أقربائه المقربين ، مثل أخيه محمد بن علي الزواوي الذي كان قبله معلماً كما مرَّ آنفاً ، فادعى عليه ببعض أشياء لم تكن فيه ، فأوقف لفترة وجيزة وأطلق واستطاع صرف أخيه من زعامة المشتغلين بالقبابين ، وأصبح هو زعيمهم من سنة ٨٥٠ هـ/١٤٤٧ م حتى وفاته ، أي قرابة خمسين عاماً • وهو يشبه ما يسمى في أيامنا هذه رئيس حرفة من الحرف المتنوعة(٧٥) ويبدو أن حرفة التجليد توريق الكتب ، كانت من الحرف المحببة للأندلسيين والمغاربة وانهم كانوا لا يرون في ذلك أية احراجات أو متاعب معنوية ، وخاصة منهم الذين كانوا من عائلة علمية معروفة أو غنية الى غير ذلك ، مثل عبدالعزيز بن علي بن محمد بن فرحون، الذي اشتهر عن أبيه ، أنه كان علامة عصره ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان كابنه يمارس حرفة التجليد وبالأجرة(٧٦) •

وهكذا فقد تبين من خلال الأمثلة ، التي توفرت في مصادر فترة هذا البحث ، أن المغاربة والأندلسيين قدموا خدمات جليلة للمجتمع الذي عاشوا فيه في المشرق العربي ، وكانوا يعملون بحرية تامة ، لا يقف في سبيلهم أي عائق ، وان كان بعضهم قد واجه بعض المصاعب، فانها كانت فردية من حيث مصدرها، وآنية كانت تزول بسرعة وسهولة •

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ ـ ابن عذاري (المراكشي) البيان المغرب ج ١ تحقيق س•كولان أ• ليفي بروفينسال بيروت ١٩٤٨ ص ٢٤٤ ، ابن ابي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام الطبعة الثانية ص ٦٤، ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٦٤ •

٣ ـ ابن دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام الطبعة الأولى مصر ١٣٠٥ هـ ص ٢٠ •

٤ ـ المسعودي (علي بن الحسين) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٤ تحقيق شارل بلا بيروت ١٩٧٣ • ص ٧٧ ، الجاحظ ـ كتاب العثمانية تحقيق عبد الله محمد هارون مصر ١٩٥٥ ص ١٣٦ •

٥ ـ الصفدي (خليل بن أيبك) الوافي بالوفيات ج ٣ تحقيق محمد بن عبدالله ومحمد بن محمود باعتناء س• ديدرينغ دمشق ١٩٥٩ ص ٢٠٧ •

٦ – ابن الدباغ معالم الايمان في معرفة أهل القيروان تحقيق ابراهيم شبوح ج ١ ط ٢ مصر ١٩٦٨ ص ١٨٤ وما بعدها وابن القوطية – تاريخ علماء الأندلس ، مصر ١٩٦٦ ص ٣٢١ ٠

٧ – الحميدي (محمد بن فتوح) جذوة المقتبس مصر ١٩٦٦ص ٦٨ – ٦٩ ٠
٨ – المقري (أحمد بن محمد) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٣٢ ٠
٩ – نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٣ ٠
١٠– انظر عددا من الأمثلة ابن مخلوف (محمد) شجرة النورالذكية في طبقات المالكية ص ٩٧ ٠
١١– نفح الطيب ج ٢ ص ٤٦٧–٤٦٨ ، محمد كرد علي – خطط الشام ج ٤ دمشق ١٩٢٦ ص ١٦٣ ، جورج يعقوب اثر الشرق في في الغرب خاصة في العصور الوسطى ترجمة فؤاد حسنين علي القاهرة ١٩٤٦ ص ٩٧ ، شجرة النور الذكية في طبقات المالكية ص ٩٧ ٠
١٢– أثر الشرق في الغرب في القرون الوسطى ص ٩٧ ٠
١٣– الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبرالأقطار تحقيق احسان عباس بيروت ١٩٧٥ ص ٥٨٣ وانظر بعض التجار الذين تنقلوا بين البلدين ابن بشكوال(خلف بن عبد الملك) ٠ كتاب الصلة قسم ٢ مصر ١٩٥٢ ص ٦٣٩ – ٣٧٨ – ٤٣٥ ٠
١٤– انظر بعض المهاجرين نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤ ٠

١٥– الوهراني (محمد بن محمد) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش القاهرة ١٩٦٨ ص ١١ ٠
١٦– محمد لبيب البتنوني – رحلة الأندلس الطبعة الأولى ١٩٢٧ ، محمد عبدالله عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس قسم ٢ الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٢٧ ٠

١٧– ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٠ ، ابن جبير (محمد بن احمد) الرحلة بيروت ١٩٥٩ ص ٢٥٨ ٠

١٨– السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج ٢ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طبعة دار احياء الكتب العربية بلاتا ص ٣٢٤ اليونيني –ذيل مرآة الزمان ج ٣ الطبعة الأولى حيدر آباد الدكن ١٩٦٩ ص ٢٥٢ ٠

١٩ – Encyclopedia of Islam. volz-new-Ed. P. 126 .

٢٠– انظر تفاصيل وافية حول تاثير هذه المقدسات بالمغاربة حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٤ ، السلمي – ترغيب اهل الاسلام في سكنى الشام، صححه ونشره أحمد سامح الخالدي القدس ١٩٤٠ ص ١١ وما بعدها ، الربعي فضائل الشام ودمشق تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٥٠ ص ١٤ وما بعدها ٠

٢١– انظر أوجه التشابه بين المناطق المشرقية والمغربية الأندلسية ابن خلدون كتاب العبر ج ٤ بلاتا ص ١١٩ نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٧ – ٢٠٩ ، رحلة ابن جبير ص ٢٢٨–٢٣٣ ٠

٢٢– انظر نماذج عن هذه المعاملة أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) الروضتين في اخبار الدولتين تحقيق محمد حلمي احمد ج١ ق١ القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٤ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ ٠

٢٣– ابن الزيات (شمس الدين) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة بغداد بلاتا ص ١٥١ وما بعدها ٠

٢٤– ابن حجر (أحمد بن علي) الدرر الكامنة ج ٢ تحقيق محمد سيد جاد الحق الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٦ ص ٤١٩ ٠
٢٥– المقريزي (احمد بن علي) الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار مجلد ٣ لبنان بلاتا ص ١١٧ ٠
٢٦– السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع ج ٥ القاهرة ١٣٥٤ هـ ص ٥٧ ٠
٢٧– أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) الذيل على الروضتين نشره عزت العطار الحسيني طبعة اولى ١٩٤٧ ص ١٥٧ ٠
٢٨– الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٠٦ ٠

٢٩ـ الادريسي (محمد بن محمد) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩٧ ، ابن حوقل صورة الأرض القسم الأول ليدن ١٩٣٨ ص ١١٤ . الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٥٣٨ .

٣٠ـ رحلة ابن بطوطة ص ١٢١ .

٣١ـ الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٥٥ .

٣٢ـ التادلي (يوسف) التشوف الى رجال التصوف ـ اعتنى بنشره أدولف فور الرباط ١٩٥٨ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٣٣ـ الخطط المقريزية مجلد ٣ ص ٩٧ .

٣٤ـ ابن خلدون (عبد الرحمن ولي الدين) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيق محمد بن تاويت الطنجي القاهرة ١٩٥١ ص ٣٤٧ .

٣٥ـ ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ٣ كاليفورنيا ١٩٣٢ ص ٧٢٣ السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين) نظم العقيان في أعيان الأعيان تحقيق د. فيليب حتي نيويورك ص ١٤٣ ، السخاوي ـ الذيل على رفع الاصر تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٥٨ وما بعدها .

٣٦ـ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج ٩ القاهرة ١٣٥٥ هـ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

٣٧ـ الضوء اللامع ج١ ص ٣١٦ .

٣٨ـ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج ٢ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٦٩ .

٣٩ـ رحلة ابن جبير ص ٩٩ .

٤٠ـ الطرطوشي (محمد بن الوليد) سراج الملوك ، مصر ١٢٨٩ هـ ص ٢٩٢ .

٤١ـ رحلة ابن جبير ص ٢٥٧ .

٤٢ـ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٨ .

٤٣ـ شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢٨ .

٤٤ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) الذيل على الروضتين عني بنشره عزت العطار الحسيني الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٤ ص ٥١ ـ ٥٢ .

٤٥ـ الفاسي (تقي الدين) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٥ تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩٦٦ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

٤٦ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٥ ص ١٢ ـ ١٣ .

٤٧ـ الضوء اللامع ج ١ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

٤٨ـ الضوء اللامع ج ٦ ص ٦٣ ـ ٦٤ .

٤٩ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٥٠ـ المصدر نفسه ج ١٠ القاهرة ١٣٥٥ هـ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

٥١ـ المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

٥٢ـ المصدر نفسه ج ١ القاهرة ١٣٥٥ هـ ص ٥١ .

٥٣ـ نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ .

٥٤- العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ٢ ص ٢١٨ ،السيوطي - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج ١ تحقيق أبو الفضل ابراهيم الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٤ ص ١٩٣ .

٥٥- العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ٢ ص ٣٨٧ .

٥٦- الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

٥٧- الضوء اللامع ج ١ ص ٧٢ - ٧٣ .

٥٨- الضوء اللامع ج ٥ ص ١٦٥ .

٥٩- الضوء اللامع ج ١٠ القاهرة ١٣٥٥ هـ ٢٣٥ - ٢٣٦ .

٦٠- القفطي (علي بن يوسف) اخبار العلماء باخبار الحكماءعني بنشره محمد أمين الغانجي مصر ١٣٢٦ هـ ص ٢٥٧ .

٦١- ابن طولون (محمد) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان قسم ١ تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٢ . ص ٣٥ .

٦٢- رحلة ابن جبير ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

٦٣- منامات الوهراني ص ١٦٨ .

٦٤- المقريزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق ١ تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦٤ ص ٩٤ .

٦٥- الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٧ .

٦٦- الذيل على الروضتين ص ٢٢٧ .

٦٧- الذهبي (محمد بن أحمد) العبر في خبر من غبر ج ٥تحقيق صلاح الدين المنجد الكويت ١٩٦٦ ص ٣٨٣ .

٦٨- الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٨٥ .

٦٩- رحلة ابن بطوطة ص ٢٨١ .

٧٠- الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٠٣ .

٧١- الضوء اللامع ج ٥ ص ٢ .

٧٢- نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٥ .

٧٣- الضوء اللامع ج ١٠ ص ٨٨ .

٧٤- الضوء اللامع ج ٨ ص ١١٧ .

٧٥- الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٠٠ .

٧٦- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج ٣ القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٣ .

★ ★ ★